



# بوجردة

رواية



28.3.2014

# المرث

المَرث



الكتاب: المرث (رواية)

المؤلف: رشيد بوجدر

الغلاف:

الناشر: \* المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 213 21 37 38 52 /53

الفاكس: 213 21 36 72 20 /53

الطبعة الأولى 1984

الطبعة الثانية 2003

ISBN: 9961-756-13-4

Dépôt - légal: 829-2003

جميع الحقوق محفوظة

EDITION ANEP

28 route Ahmed OUAKED Dely-Ibrahim, Alger Algérie

Tél: 213 21 37 38 52/53 - Fax: 213 21 36 72 20/53

e-mail: [dcpa@anep.com.dze](mailto:dcpa@anep.com.dze)

وما أن يمطر الصباح حتى أستيقظ وإذا بالوهن قد تأكل أطرافي وإذا بي أتذكر وكأني ما زلت غارقاً في النوم أحلم بجو حافل صاخب تملؤه رنات الهاتف وصخب الأب وضجيج العمة فاطمة وطنات الطفولة وصليل المفاتيح والهاتف يرن ويرن رنيناً متصلاً فتتبادر إلى ذهني لتوه فكرة بديهية: «لقد انتهت الحرب»... ثم أبحر في سيولة هذا الجو المائع السلس، جو يرمش رمشاً ويرف رفاً ويومض وميض ألوان طغى عليها لون البرتقال الأزرق أشبه ما يكون بالحلم الذي إذا قص شطرين اثنين نفذت منه الألوان والانطباعات على اختلاف أنواعها فراحت تسيل سيلان المياه تحت الجليد وتختمر في جوف النوم، يختمرها خمير الكلمات والحركات الغريبة المتحطمة المتفسخة المتشعبة المتفككة المتمتعة على أن تبقى معانيها غامضة تطفو على سطح مياه مشتهبه فيها فتمرث وتتعطن إلى حد الاستنقاغ ولا تلبث أن تتلاشى الحروف وتحمض فأشعر وكأن جسدي قد تحوَّحِب وتحوَّجَز واجتزعته الهواجس المرعبة وكأنها زنبور

قد فقد محوره الأساسي ويهرته بنية الخلايا حيث تعود أن يعزف أريه وشهده فيتردد - الزنبور بين الإنتاج والخمول، أتذكر أصياف القحط والجفاف فتترك في حلقي مذاق القرقة تلك التي كان يبيعهها أبي بالجملة ويصدرها قبل مغادرتي المدينة للالتحاق بمناطق الحرب، كما أتذكر أشرطة اللحمة تلك التي تجف وتذوب ذوباناً وهذا المشمش العابق الرائح يعطره يقتحم الهواء المحرق وقد نشره العمال على أخشاب مستطيلة بعد أن طرحوها على أرضية المخزن الكبير فيزيد لعبه من حدة الزوال الزاحف المتصاعد من سفح السماء الصيفية إلى أحشاء المعمل المختص في تجفيف كل فواكه العالم، لتسويقها إلى الخارج. مشهد كان للوهلة الأولى يلهمني إلهاماً: النعاس اللاصق بها والفتاح فوهات في ذكريات الطفولة تلك التي كانت تغرز أنواعاً من الأحاسيس والامارات والارتسامات التي راحت تشبع بشرتي فتختلط الأمور بعضها ببعض بصفة تناوبية - وتختلط الأماكن والأزمنة والايماءات والحركات والعمليات الإرهابية وكأن عقلي قد أصبح مجهضاً تلتطخه لطفة ضوئية يرسلها مسلاط مخفي في طياتي على شاشة قلبي الخفية فتنبض نبضات تشنجية سرمدية أفقية عمودية معاً وفي آن واحد ثم تتوقف عن مخض أمعائي. لقد انتهت الحرب! ومن جديد يطوق حوافي رنين الهاتف في مكتب أبي وأزيز الرصاص في ساحة الحروب وطين المنبه المستمر وصلصلة مفاتيح العمه فاطمة ودق الأجراس المتعنتة التي أخذت تثقب رأسي فإذا

بشتى الأسئلة تطفو على صفحة وجداني فلا أجد لها جواباً ولا إلى النفاذ إليها سبيلاً. أتساءل وخميرة النوم تخمر الأشياء والأثاث فتجعلها تنتفخ وإذا بأشرطة المواد تغطي على الجو فتجعله خائراً يتكدس طبقات طبقات نثة على صفحة المرأة فائب نحوها أنظر إلى ملامح وجهي فأتلسمه وأمرر أصابعي على بشرته الحرشاء متفحصاً، فأحس أن الشعر قد نما على الخدين وإذا بالحجرة تدور دورانها وإذا أنا أنظر إلى نفسي على صفحة المرأة فتصاعد من غياهب الماضي الأيام إلي فأتبه حائراً بين الحيرة (لماذا لم يتزوج أبي تلك المرأة اليهودية التي أنجبت له طفلين ذكراً وأنثى وقد اعتنقت الإسلام بحضور شهود عيان؟ لماذا هذا الرفض وقد شاخ هو وشاخت اليهودية وكبر الأبنان؟) والحيرة (كيف هذا الرجل الذي يقول الناس عنه إنه أبي وهو الآن طريح الفراش ليس له ما ينفقه على نفسه إلا مما يتيسر لي كل شهر من مال أمده به، كيف يمكنه تجاهل أمر العشيقة اليهودية وقد تقدمت في السن وأصبحت مسألة موتها القريب مشكلاً عويصاً لأنني لا أعرف في أي مقبرة يحق لها أن تدفن شرعياً، أفي مقبرة المسلمين؟ أم مقبرة اليهود؟) وأنا على هذه الحال أسبخ قطن الأيام بعدما بعث لي أحد أعمامي برسالة ينبهني فيها إلى هذا الأمر وقد زاد المشكل حرجاً وقد أشرفت المرأة اليهودية على أن تفارق الحياة. وأنا على هذه الحال أسبخ قطن الأيام وأجازف بنفسي وأنزلق من سؤال إلى سؤال وأنا أمام المرأة أتذكر

وأريش صوف الأعوام وأغتاظ لجنون أبي وغطرسته وصلابته. فيمتزج علي الأمر وتكسوني غشاوة من الحوامض والسوائل. المرأة تتقشر وتفقد قصديرها أمام الأيام فيغطيها قلع التاريخ العائلي الذي يدور كله حول شخصية الأب الغريبة، أحاول تفكيكها وتحليلها ولكن بدون جدوى. وأعود إلى وشائجي، لقد لحقني حقد أبي علي منذ أن كنت طفلاً! وما أن يهطل المطر ويتراكم ضوء الصباح الشاحب بضجيج الصاحب الثاقب وعراك النساء المتلعلع وأزيز الذباب المتواصل وقهقهة الأطفال المتدحرجة ودقات الساعة الجدارية تلك التي تخرق الفضاء كل ساعة بابهة وتثاقل وكأنها تعتمد ذلك تعمداً حتى أفقد وزني وأتبه في خرائط الكلمات والذاكرة وأبحر في معادلات المنطق الغريب.

تزوج أبي نسوة أربع أما الخامسة - اليهودية - فرفض أن يعقد عليها علي كونها أم ولديه وعلى اعتناقها الإسلام منذ البداية. علي أنها وإن اغتاظت فلم يكن الغيظ ليجعل منها امرأة شرسة بل كانت تبدو كمن نالها مس من الجنون. أما هو فكان يمضي هائماً علي وجهه متجلبباً في زيه الفضفاض البراق بألوانه المختلفة فكنت - بعد أن وصلتني رسالة عمي - لا أتجرأ علي مصارحتها ولا علي مصارحة ابنها ولا ابنتها. وكنت أتردد عليها وهي علي فراش الموت تسبح وتذكر اسم الله واسم محمد فأوثر البقاء إلى جانبها وهي في حالة احتضار تحديق النظر في مرسلتي إلي شرارات



مستعرة ملؤها الكراهية الملحة النكراء وكأنها تحدس بما أعلم وبما نجحت فيه لحد الآن على اضفائها من أسرار فيما يتصل بابنها ذاك الذي أصبح مديراً لإحدى الثانويات وابنتها تلك التي كانت تعمل طبيبة في إحدى العيادات. لكن الرسالة التي بعث بها عمي إليّ أحملها داخل إحدى جيوب بذلتي. كانت تحدق نحوي وتثقب جسدي بعيونها الفاترة وقد رسم الموت بصماته على نحالة وجهها وأعضائها، تحدق النظر فيّ مرسله إليّ شرارات مستعرة فيما كنت أنا أتلمس الرسالة من خلال قماش الجيب متلهياً بلف خيوط أحاديثي في تلافيف ذهني على كبة هذياني الداخلي الصاخب. حتى إذا ما أخذت العجوز تضرب في المغالاة أشواطاً وتسبح تسبيحاً وتزيد في تمتمة الذكر الحكيم بلهجة يهود قسطنطينة، رحت أباغتها فجأة متوغلاً في حساسيتها المرهفة مراسقاً إياها بوابل من الأسئلة الجوفاء لا تمس من قريب أو بعيد مشكلة رفض الزواج بها على طريقة الشرع أو على منوال الشريعة. أما عن المقبرة التي سوف تدفن فيها فلم أتجرأ على طرح السؤال عليها خشية أن أؤخذ روحها وهي تعاني من مرض مزمن سوف يقضي لا محالة عليها. أرسل عمي المكتوب وتركني أتخبط في كيفية إيجاد حل مرضٍ لهذه القضية وإن كنت في الحقيقة لا أرى أي فرق بين مقبرة إسلامية ومدفنة يهودية، لكن عمي لما بعث إليّ برسالته لم يترك لي حق الاختيار. كان عليّ أن أجد السبل الدينية والإدارية حتى تدفن المسكينة في

أفخم مقبرة إسلامية. ألم تعتنق الإسلام منذ بداية علاقتها مع أبي وذلك أمام شهود عيان وإن هم ماتوا كلهم ولم يتركوا ولو أثراً واحداً مكتوباً يدل على إسلام عشيقه أبي وأم أخويّ من أبي... كنت ملتھياً إذن بلف خيوط أحاديثي الداخلية وحواراتي الذاتية في تلافيف ذهني على كبة هذياني الصاحب. أكفر وألعن اليهود والمسلمين والمسيحيين ملصقاً فيهم كلهم تهمة الجبن والخيانة التي أدت بي إلى مثل هذا المأزق. كيف أصارح ابنيها بأن أمهما بقيت على دينها الأصلي، خاصة وان ابنها البكر هو من أعيان المدينة التي كان يشرف فيها على تسيير ثانوية اسحاق بن قره ويثابر على الصلاة كل يوم جمعة من كل أسبوع في المسجد الكبير يتصدر المكانة المرموقة وسط الصف الأول من المصلين وذلك نظراً لمنصبه المهني وورعه الديني وولوعه بالمظهر الخارجي إذ يذهب في ابتھاله حتى المبالغة ولا يعلم أحد أن أمه من أصل يهودي وأنها ليست متزوجة من أبيه... وإذا بي أفاجئها بغتة متوغلاً في حساسيتها المرهفة مراشقاً إياها بوابل من الآيات التوراتية لمجرد تحريك ردود فعل كنت لها بالمرصاد ولكنها لم تأت بشي قط. عبثاً حاولت ورثيت في آخر الأمر لحالها - سرأ - رغم أنها لم تفقد ولو ثانية شيئاً من سريرتها ووداعتها وصفائها وسكينتها، متشحة بشيء من الحنان والمودة نحوي. وكان موقفها هذا المتعنت واغفالها الحقيقة عني - والرسالة تحترق داخل جيبي - يؤلماني كل

الألم فأشعر بوجع مضمن يؤذيني ويدخل البلبلة إلى ذلك الأرب الذي كان يغشي حافة عقلي، تلك التي لا يعرفها إلا من عانى من كتمان السر مثلي. وما كان مني إلا أن أغرقت في التظاهر بنوبة من السعال المتواصل إلى ما لا نهاية له متظاهراً ببدء السل حتى أشارك المسكينة آلامها فأبين مدى حبي لها وتضامني معها. على أنها كانت هي العجوز المحتضرة تظهر التسامح لكل الناس بما فيهم أبي ذاك الذي رفض الزواج منها رغم أنها أنجبت له ابناً وابنة، متيقظة ساهرة على متعته، مصرة على الاهتمام بأموري المهنية ظانة أنني كاتب حروز لا واضع روايات، بغية ابقائي بجانبها، طالبة مني أن أقص عليها أخبار العائلة واخبار أبي الذي كان هو أيضاً طريح الفراش يناهز الثمانين من العمر، واخبار العالم وكذلك اخبار ما وراء الحياة الدنيا ظناً منها أنني من أبشر الفقهاء!

مرة أخرى حلمت في المنام أن الحرب قد انتهت وأنه قد مضى على نهايتها عشرون سنة. حلمت بذلك الاقتتال الرهيب وقد كان الفجر يطلع ولما يسكن لي ساكن. لا شيء يتحرك. الخمول والكمون يسيطر على الوضع كله. أمل وضجر. أعاود قراءة الرسالة مرة أخرى. ثم أنغرس بين همسات نعاسية متقطعة. حركات التباسية ترتسم ولا تكتمل هباء. طرادة المياه تجلجل بطوفانها. استرق السمع من حين إلى آخر. يستيقظ القط ثم المنزل فأحس أن في معوقة القط ومعائه بحة وفي أصوات الأخوان والأخوات

وفي حركاتهم نوع من الارهاق الحاسم يلون ملابسهم  
وحناجرهم شهباء فاترة متميعة. أمي تثن وتشعل المجرم.  
لا تسمي ضررتها إلا اليهودية (ما اسمها في الحقيقة؟  
هانريات غزلان. لقد بدلت هانريات بلقب عربي: حسيبة!)  
كانت أمي تغني ترنيمة بربرية من منطقة أوراس وهكذا  
وكانها تفتح كل نوافذ السعادة اليومية على مصراعها.  
اخواني وأخواتي في تجاهل تام وتناوم رديء... . سعال  
المجمر. وعند بزوغ الشمس يتضاعف ضجيج الحشرات  
الهائمة حول حلقات وهمية أو شبه مرسومة في الفضاء نظراً  
لغليان الأشعة الشمسية وارتعاش أوراق الحديقة المتساقطة  
على زجاج النوافذ فيبدو - عادة - للوهلة الأولى وكأنه  
مطلي طلاء أبيض على كونه مبرقشاً بشتى الألوان المثيرة  
حيث فيها الخزامى والاصفر على سائر الألوان الأخرى  
المتواجدة، أما الأصوات المختلفة التي يصعب تحديدها  
فقد كانت هي هي، تلك التي اعتدت عليها منذ أن كنت  
طفلاً (المرش، المغسل، تنظيف الأثاث بالنيلة، سقي  
البستان، غسل الأواني في المطبخ بالبلور الجندلي الحات،  
قرع قطرات المطر على النوافذ وأوراق الأشجار - خاصة  
منها التوتات - صرير الفرجون الحديدي الذي تستعمله  
العمة فاطمة لتبريق الأدوات النحاسية وكذلك الزرابي  
والحنابل). أما الروائح وقد اعتدت عليها كذلك: فاترة  
كانت طرية، رطبة الخ... . تنبثق منها رائحة الخميرة  
الواصلة من معجن الخبز والفرمول والكافو والعقاقير

الأخرى التي تستعمل لتطهير المنزل وتعقيمه من كل الجراثيم لا في الغرف فقط بل وعلى سطح الدار وفي بيت الغسيل هناك. وكذلك: روائح الكحول المتماثرة الحامضة المخمة المغثة وعفونة الحليب الطازج ونضج الخبز المحترقة حافته. ثم: خاصة الأريج الذي يميز الخميرة. الخميرة التي تنتفخ تحت وطأة المركبات الكيماوية فتزيد من وطأة الجو المحمض الملتهب. ثم أيضاً الأواني النحاسية أو القصديرية أو الزجاجية التي تسخن فيها (أو تصب) القهوة الممزوجة حليباً خائراً فيفوح منها الیود وأكسيد الحديد. ثم أشياء أخرى: الدهن المتقشر المتساقط على الجدران المنهارة تحت ضغط الحر المقذع والذي يحرق كل شيء عبر آلاف الأشعة المنسابة في الأشجار والأزهار، مفتقة ذلك الملاط الأصفر والمسحوق البرتقالي الذي يلتصق بالأصابع مثله مثل الصدأ الذي يطوق المسامير الصغيرة المصدأة المغروسة في الخشب الزافر فيكشف عن رائحة متعطنة هي عبارة عن مزيج من الكبريت وصمغ البطم ومرارة الحبر.

أستيفق حتى تتبدد أحلامي وكواييسي وأجد نفسي أمام هذا المشكل العويص المتصل بدفن زوجة (عشيقة) أبي وقد أشرفت على الموت. وانتهى بي الأمر إلى تمزيق الرسالة التي بعث بها عمي إلي من القرية، مغتاضاً غاضباً عليه وعلى ولوعه بأمور المحتضرين والأموات. وكان الرجل مدبراً ومفكراً ومنظماً بارعاً في المراسم الجنائزية وحفلات

الأعراس على السواء. ورغم غضبي هذا وتمزيق الرسالة ورفض استنشاق كل الروائح المتعالية من المطبخ وكل الأصوات المتهاففة من البهو، لم أتمكن إلا من زج نفسي في حالة من الاندهاش المبهمة يحفها خليط من الألم والضباب، كتب عمي: لقد تبين لي أن زوجة أبيك الخامسة إنما هي عشيقته وليس هناك أية حجة ولا أي برهان شرعي يؤكدان الزواج الذي رفضه أبوك ولا اعتناق تلك المسكينة هانريات غزلان - حسيبة - الإسلام... ما العمل وهي بالنسبة للشرعية وللعدالة يهودية وغير متزوجة رغم أنها أنجبت طفلين يحملان اسم عائلتنا... لقد أصبح الأمر مريعاً وهانريات - حسيبة طريحة الفراش وفي حالة الاحتضار المتقدم كما لا يخفى عليك... الرجاء إيجاد حل سريع حتى لا تدفن المسكينة في مقبرة اليهود... وألح عليك أن تكتم السر ولا تخبر ابنها فريد وابنتها جليلة تجنباً لأي ضرر قد يعيق عقلهما وصحتهما. إنني أعلم أنك في هذه الأمور دبير وخيالك شاسع وأن معارفك كثيرون... فالسرعة ثم السرعة وبالأخص لا تخترق السر ولا تفشيه... عمك الذي يكن لك كل مودة واعجاب. الامضاء: اسماعيل الحساب موظف متقاعد... دخلت في حالة الاندهاش والحيرة والابهام. كنت في حاجة إلى الكثير من الحيلة. فما لي وهذه المرأة المسكينة، ضرة أمي وعشيقة أبي؟ وما الفرق بين مقبرة يهودية ومقبرة إسلامية؟ كلها تربة! لكن كم كنت في حاجة إلى الكثير من

التحايل والدهاء حتى أخرج من هذا المأزق وهذه الورطة التي رمانى فيها عمي ذلك الموظف المتقاعد والمشهور بحبه للولائم والمآتم. كنت أشعر بطريقة نافذة بضرورة الامعان والانتباه المتمركز لاسترجاع الاتصال بجسمي وعقلي ومنطقي وقد أرهقتني الاستيهامات والهواجس والمساخات والكوابيس منذ أن تلقيت هذه الرسالة الملعونة (فما العمل وهي يهودية بالنسبة للعدالة وللشريعة وليس متزوجة رغم... .) التي غيرت مجرى الأمور العادية فأصبحت أبحث عن استرجاع اتصالي بالأشياء الملموسة والتملص من الأوهام المزدحمة في عقلي ازدحاماً يبهرنى وميض لمعانه وطفاحة غزارته. الضوء يلتهم كل ما يصادفه في غرفتي (عمك اسماعيل الحساب الموظف المتقاعد... .) التي كانت نواتها تحتوي فيما عدا الكثير من الفراغ والأسلاك والشرائط والحبال التي استعملها أنا بنفسى لتجفيف نسخ الصور السلبية بعد تحميضها، سريراً يساعدي على الفوز - أحياناً - على الأرق المزمّن الذي كنت أعاني منه، ومنضدة من الخشب القديم يقضض طوال الليل استعمله لكتابة الرسائل (خاصة مراسلة العم اسماعيل) وموقداً قديماً يأبى الاشتعال إلا في الشتاء وغلاية مبعجة أحضر فيها الشاي على مرأى من أمي وأفراد عائلتي وأملؤها ويسكي سراً عند قدوم الأصدقاء ممن سميتهم بالعسكر، ثم لوحة قرآنية احتفظت بها لا لاحساسى الدينى وإنما لعقتها ولاغراء المتعصبين من الجيران إذا ما أرسلوا

بعض أبنائهم لأشرح لهم بعض المسائل الرياضية أو القواعد النحوية، ثم أيقنه من الأواني والأشياء تزحف شتاتاً وسط الغرفة الصغيرة حيث أتركها تتراكم بدون أي غاية موضوعية (ساعات قديمة جدارية من أصل صقلي ورثتها قمر زوجة أبي الثانية من سلف قرصاني كان يخوض مياه صقلية الاقليمية، آلات موسيقية بالية ومعطوبة تركها الفرنسيون عند مغادرتهم الجزائر سنة 1962. افاص هوائية لم يسكنها أي عصفور قط، ساعة مائة من صنع ابن شاعر زمنه، مخطوط رث كتبه المقرئزي وعنوانه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) والمفقود من جميع المكتبات العربية وغير العربية، أول اسطوانة سجلتها أم كلثوم، أقدم آلة عرض سينمائية الخ... ) فتشرب كل يوم مزيداً من القلح والغبار وخيوط العنكبوت والدردى والسحالة كما أن الطحلب والحزاز يزحفان بتباطؤ الأيام والقرون، تاركين آثاراً مشكوكاً فيها يلطخها زنجا الاعزام المالحة وهي - الأعوام - تكرر من ورائها الثواني شذرة شذرة فتتركني أنا صاحب المحل أشتط في الكتابة على أوراق المصائب والزلازل واصلح من الآلات ما يمكن وأحمض الأفلام التصويرية ما توفر والزمن الهارب يسيل من بين أصابعي كالرمل... ولم أعرف رغم كل هذه التراكمات الرثة كيف أرد على رسالة عمي فيما يتعلق بزرجة - عشيقه أبي اليهودية وقد ناهز عمرها الثمانين وهي الآن طريحة الفراش وفي حالة احتضار متقدم لا تتوقف عن التسبيح والذكر الحكيم والاستشهاد



بأن لا إله... وسلحفاة العمه فاطمة (اليهودي يبقى يهودي كالحجرة ما توب والقحبة ما تذوب) تكاد تنساها وتنسى حتى وجودها لأنها لا تبرح حجرة أمي حيث العجوز لا تدخل قط إذ هي تعلم علم اليقين أن الضرة اليهودية سكنت فيها ونامت في فراشها وقامت فيه بأعمال قبيحة خشية أن نجد ولو أثراً واحداً أو نمرة مشبوهة للعهارة والفساد، أو شامة مرسومة على حبكة التول المتدلي على النوافذ أو...

أو تقضي - العمه فاطمة - نهارها تجري وراء الأطفال وتلقي على الأرض نشارة الخشب وجذاذ الزجاج وركام الحديد وطليان المعادن، وشظايا القصدير، أو تعاني كثيراً من مطاردة الطيور المبلولة التي تفرع على نوافذ الدار وكأنها تستشفق صلابة العجوز ثم تتحایل وإياها وينتهي بها الأمر إلى الدخول وسط الفناء فتتسلل إلى الرف حيث تموت تحت الأسرة ووراء الأثاث وتحت الفرن حيث يخبز الطابون فلا تعرف كيف تتصرف والطيور المسكينة تفرع على بلور الشبايك وتكسرها عند تساقط الثلوج وتكسرها وتتساقط في أغدره من الدم تاركة خطوطاً مخضبة لا ريب فيها... والعجوز فاطمة تعاني من كنس الأوساخ التي يتركها الأطفال ومن جثث الطيور التي فتك بها الصقيع. وأمي (أثناء الأسابيع الأولى التي أعقبت وفاة ابنها) لا تغادر حجرتها بل تبقى مستلقية على سرير وحدتها وذلك منذ وفاة ابنها البكر عبدالله خاصة وهي تعلم أنه كان مدمناً على كل ما يجلب المتعة وأنه كان ينفق الكثير من الأموال

في دور القمار والميسر فتبكي سائلة من الله الغفران والسماح راجية منه ادخاله جناته لأنه حسبما تتمم في سريرتها كان ابنها طيب القلب، رؤوفاً، طبعاً... أما عن الخياطة اليهودية التي ضاجعها سي حسان على نفس الفراش فهي لا تحقد عليها قط. إنه القدر وهذا من أمر الله ومشيئته. وبعد تمزيق الرسالة فقد ندمت على ما فعلت وقد كنت بأمس الحاجة إلى قرائتها من جديد ليس مرة فحسب بل مرات عديدة لأنني لم أفهم شيئاً في الواقع من هذيان عمي اسماعيل وقلقه بالنسبة إلى دفن ضرة أمي اليهودية. ولكنني احتفظت بقطع من الورق الذي كتبت عليه الرسالة، فما أن أخلو إلى نفسي حتى أتلمسها محاولاً إلصاقها بدون جدوى وأذهب كالأعمى أتلمسها ونكهة المرارة تلازمي لا تفارق فمي. ذلك أنه لم يكن ثمة ما من شأنه أن يجعلني مستعداً لتحمل مسؤولية الموت. خاصة وان الأمر يتعلق بموت امرأة يهودية كان كل أفراد العائلة يظنونها إحدى زوجات أبي الشرعيات، معتقدين أنها اعتنقت الإسلام أمام شهود عيان. وها أني الآن اصطدم بواقع لا عهد لي به قط، إذ لم يتزوج من هانريات الخياطة اليهودية التي عرفها يوم كانت تردد على منزل أمي لتفصيل فساتينها. وكان ما كان فتعلق بها وأسكنها منزلاً فخماً ثم أنجبت له ابناً أولاً ثم بنتاً. ولم يعثر أحد على عقد الزواج ولم تعلم المرأة المسكينة بذلك الا ساعة احتضارها وكتمت السر خجلاً من أبنائها. ورغم الحاحها، رفض أبي أن

يكتب عقد الزواج وترك الأمور هكذا، لمشيئة الله. أما الشهود فقد ماتوا جميعاً. وليس ثمة وثيقة مكتوبة. كان أبي مسافراً يجوب العالم ويرسل من حين إلى آخر بطاقة بريدية لزوجاته الأربع المسلمات وعشيقتة اليهودية. كان لا يكتب على ظهر البطاقة سوى اسم المكان (مدينة، قرية، صحراء، جبال) والتاريخ والامضاء (حسان):

«اسطنبول»

12 - 8 - 1924

«حسان»

وبعد التلمس كالأعمى الذي ضيع عصاه تدفقت المرارة وعطنت نكهتي. منذ سنوات وأنا أشاهد الموت يذهب بأفراد العائلة واحداً واحداً. أما علاقتي الأولى بالموت فقد بدأت يوم قرر عبدالله أكبر اخواني من أمي أن ينتحر بادمانه المدقع على الكحول ففتتت كبده تفتيتاً. لم أكن مستعداً لمجابهة مثل هذا الأمر الغامض! حتى ولو كان الموت موت عبدالله أخي البكر، وذلك وقد وجب أن أترك حومي ولفي حول أمي وزوجات أبي بمن فيهن هانريات - حسيبة اليهودية الأصل. قالت عمتي فاطمة: اليهودي يبقى يهودي تحبو ولا تكرهوا! اليهودي ما يتوب والحجرة ما تذوب والقحبة ما عندهاش وقت باش تبول... كان عليّ أن أترك حومي ودوراني حول أمي وزوجات أبي وبنات أعمامي والقطط الوديعه وعمتي فاطمة الخادم العجوز

والأعمام والأب وأختي ليلى من أبي... قررت أن أترك هذه الصببانيات وهذه التفاهات الغثائية وأن أستقر في جحيم النعمة والحقء. وبعد عبور الأيام مسرناً إذا بي أسقط من جديد في فح الجنازات والمآتم (كان كل شيء منذ البداية غارقاً في عالم ضبابي، لف دور الأب بسحاب اللغز القاتم) كان قريباً وبعيداً (صحراء منغولية. 1930 - 9 - 12. حسان) ولم يهتء عبدالله الذي كان أشجعنا من فكه بل مات ولم يناهز العشرين. كان أبي غائباً عندما وصلتنا البرقية من فرنسا. وفي نفس اليوم جاء ساعي البريد ببطاقة بريءية، محررة كالمعتاد وبدون أي تعليق أو تسليم أو تساؤل:

«قرطبة»

12 - 6 - 54

«حسان»

(وعاء الأب يوم تشيع الجنازة برفقة تابوت الفقيد، يرفل في بءلة أنيقة كان قد اشترها الابن لأيام قليلة قبل أن يسكر سكرته الأخيرة. قال: هذا ما شاء الله وعقابه لا يمنع منه أحء!. لم يعد هناك شيء يهمنا ولا لغز يجذبنا بعد وفاة الأخ الأكبر حتى ولا تصرفات زوجة الأب الثانية وقد كانت وهي لا تزال مراهقة ذات تصرفات شبقيه تحاول اغراءنا بها. فأصبحت ممتازة متفننة في كيفية نزع سروالها التركي في تلك الغرفة الكبيرة حيث القطط تأتي إليها

لتلحس بحضوري اللبن المتقاطر من نهديها الرائعين  
البنفسجيين، فاهرب وأركن داخل متاهات الابهام المطلق  
فترن أذناي وأتصور أن كل الكلمات إنما يقطعها جرس  
إحدى عربات الترامواي. وهكذا فقد كان كل شيء في  
تدحرج وانقلاب. ومرة أخرى كان أولئك الكبار يفركون  
سبحاتهم حبة حبة بين أصابعهم السمينة وبسرعة جنونية  
تبعث في الرأس الدوار وتقنعني بأنهم كهنة، ذلك أنهم  
كثيراً ما عبروا عن يقينهم بأن أخي عبدالله سيموت في  
القريب العاجل لا محالة!)

إن عبدالله هذا لم يكن له أب، لا، كما لم يكن  
لهنريات اليهودية زوج قط. ولم يتمكن أخي من الذود عن  
الأبوة كما عجزت اليهودية في الحصول على الزواج. وما  
أن وصل جثمان أخي حتى قامت القيامة وعندما أرست  
الباخرة التي كانت تقل نعشه بجانب الرصيف برز شيخ  
العشيرة برزة مشهودة كممثل عبقرى يتحكم في فن التمثيل  
وبرودة الأعصاب، لا يقوم بحركة إلا وقد درسها بتأن  
وفكر فيها بتمعن وممارسة. كان مرتدياً بذلة جديدة زرقاء  
اللون كانت ملك عبدالله ولعل الأب قد عدلها حسب  
هندامه من قبل أمهر الخياطين الايطاليين، وكان يظهر أقل  
سمنة وأكثر أناقة ولياقة جمالية وصخباً متعمداً وهو يتقبل  
تعازي الحاضرين متظاهراً بمظاهر الكدر ولاغتنام المتدفقة  
على محياه. كان جماعة من الحشائشية وأقرب الناس من  
الفقيد وأعز أصدقائه قد تمكنوا من اجتياز الرقابة التي

تضربها الشرطة عادة على الميناء بدون حرج ولا عائق، وحاصروا مجموعة المعزين والمشايخ والقضاة وكبار التجار وأصحاب الجاه. وكان الأب في حيص بيص وهو خائف من أن تسبب هذه الشرذمة من أصدقاء الميت فضيحة لا تحمد عقباها خاصة وأن هؤلاء الأشخاص كانوا قد شمروا عن سواعدهم فظهرت أوشامهم ووشاماتهم منها الصور الإباحية والقصائد الأندلسية الرائعة فيصبحون ذوي ضراوة ومشاكسة في وجه هذا الخليط من البشر الذي شد إلى العالم وهو عاجز عن الاقتلاع منه، كان جماعة المدمنين على شرب الكيف هؤلاء يحملقون أعينهم على الحاضرين نافذة متبصرة في آن واحد فيقهقون في غير احتشام وابتذال بمجرد أن يستنكر أحد الأعيان وقاحتهم، ولقد جاؤوا لا لشيء سوى حمل صديقهم المسجى في تابوته. فضاقوا ذرعاً بمثل هذا الحجم الكبير من الطقوس الخاوية من كل معنى في حين كان كل واحد منهم يتألم ويتململ على ضياع وفقدان ذلك الحبيب الراحل الذي كثيراً ما نادموه وأداروا الكؤوس بينه وبينهم حتى الثمل وبعد ما بعد الثمل. الحرارة عابقة... رائحة الشمع الأحمر المحروق عائمة... أريج المياه الراكدة العفنة عارم يجعل المناخير ترتخي... والسفن متراكبة متشابكة متراصة طبقات طبقات متتالية... تشابكات صامته من حبال وأصوار... الأكبال تقصف الصمت... الأشكال ترسم نوافذ من هروب... نجوم وموت مملوح... سماء مسدودة معطلة عطلها التهاب

السعير الجهنمي... مراوح يحركها القوم طلباً لشيء من البرودة أو لبعض النسيم الخفيف صعب المنال بين فترات القيظ والجفاف. هرج ومرج وهباط ومياط... شبكة حبال... أرصفة بالخلق مائجة... سيول من العرق متمازجة تسيل من الأجسام المتلبدة... صلوات وابتهالات لا نهاية لها... صلاة الجنائز أمام السفن الضخمة وأمام البحر الساكن المتختم كما وأمام السكك الحديدية التي تشق طريقها عبر الميناء وكأنها ذاهبة نحو البحر تغطس في أعماقه... البحر! البحر دائماً... وصيحات البحارة تقطع لجمة كلام الناس الهزيل... وأخيراً يصل المرفأ ويمسك بالتابوت حيث جثة عبدالله جاثية، يا له من منظر مزر ومهيب في آن واحد. وإذا بالنعش يتأرجح في شيء من الغرابة والبؤس والشذوذ واللاواقعية. وينزل الصندوق ببطء شديد حتى ليخيل إلى القوم أنه لن يدرك الأرض أبداً. وجميع الحاضرين بين الحيرة والقلق تائهين. وفجأة يقف المرفأ محدثاً صوتاً يشبه السعال ويبقى التابوت بين السماء والأرض معلقاً. وتنطلق من الجمع همهمة ترجرت لها صفوفهم وقد رأوا في ذلك ما يرمز إلى غضب الله. ويبقى التابوت الضخم معلقاً بين البحر المصقول والأرض الغارقة في شبه اغماء تحت انعكاسات أشعة الشمس التي لم يبق منها إلا إحساس غريب بالانتفاش والفيضان انتفاشاً كثيفاً مثل انتفاش الريش الفخم الملون بألوان لا يستطيع المرء أن يقدر إن كانت هي وردية أو برتقالية. كانت الأرض

تلتهم العيون التهاماً وقد بهرتها شفافية الهواء، ومن البحر تتصاعد رائحة كرائحة الجبن... (ولكن الذنب ذنبي ولا مذنب الا أنا ذلك أنني كنت قد مزقت الرسالة وتذكرت تفاصيل ماتم الأخ الأكبر ولم أر منه شيئاً وقد سمعت عنه الكثير). كانت أمي ترجو لشدة حزنها أن تدوم فترة التأبين وتمتد إلى ما بعد التاريخ. خيطوه في كفن من قماش الغياب وسمروا غطاء التابوت بالمسامير الغليظة دون أن تراه للمرة الأخيرة ولكنها أرغمتهم على وضع اكليل صغير من مادة الطلق والبلق على النعش المصنوع من خشب البلوط والمشمع بالخاتم القمريقي الأحمر. أخذوه إلى المقبرة محمولاً على النعش ذي الأرجل الأربعة واللون الأصفر اللامع والزخرفات المسمارية والصفائح المعدنية، شاهرين الجثة وقد راحت تململ تحت قبط القيلولة يرتلون القرآن (مالعمل مع زوجة الأب المسكينة وهي على فراش الاحتضار؟) بأصوات نحاسية وقد كنت أنا صغيراً لا أتجاوز العاشرة. قضيت النهار كله تحت شجرة التوت المورقة صيفاً شتاءً، بصحبة أخي المهدي وأختي سعيدة وأبي لا ينفك يسافر ويجوب العالم للتجارة ولأمور أخرى كثيرة الله أعلم فيها!...

«القاهرة

12 - 10 - 1936

«حسان»



انتهت الحرب منذ أكثر من عشرين سنة وكانت احداهما  
توشك أن تلتصق بجدار الدار حتى أنني كنت أكاد أمسها  
في فصل الصيف وأنا جالس إلى مكتبي خاصة عندما كنت  
أطيل العمل حتى ساعات متأخرة من الليل، كنت أكاد  
أمسها أو بالأحرى أكاد أمس أحد أو بعض أغصانها تلك  
التي كان يضيؤها المصباح الكهربائي على المكتب فتلمع  
أوراقها وكأنها ريش يرتعش بحركة طفيفة وقد ادلهم مؤخر  
الحديقة وتراكت عليه الظلماء طبقات تكاد تكون ملموسة.  
بينما تتضاعف حركة الوريقات الاهليجية الشكل وكأنها  
مخضبة بلون أخضر ساطع يتصبب من الضوء الكهربائي  
المنبثق من حجرتي التي كنت أترك مصراعي نافذتها  
مفتوحين فانتعش لأدنى نسيمه تهب خفية آتية من وراء  
جدران الحديقة وتسري - أو بالأحرى - تمتد رويداً حتى  
تستقر داخل التشابك الحالك الذي تكونه تفرعات  
الأغصان، يظهر - هذا التشابك - من خلال زجاج النافذة  
وكانه يعتمد على حركة ذاتية مستقلة تنتشر بسرعة أكبر عند  
هبوب الريح قوية بعد انتصاف الليل، فكان التوتة بكلبتها

تستيقظ فجأة وتنتفض وتحمم، ثم - وبدون فترة انتقال تدريجية - تعود السكينة وتهدأ الأوراق في الوريقات وتسترجع سباتها العميق الهائل وجمودها المهول ما عدا الأغصان الأولية تلك التي تسلط أشعة الأنبوب الكهربائي أضواءها المجهرة عليها فتبرز بدقة في مقدمة الأغصان الأخرى التي لا يصل إليها الضوء فيشحب لونها أولاً، ثم تغيب عن النظر شيئاً فشيئاً فلا أعود أراها وإنما أحس وجودها إلى أن تضمحل رؤيتها نهائياً لكنها تبقى في الحقيقة متواجدة متداخلة متطابقة الواحدة فوق الأخرى وسط قشرات وطبقات الظلام المتراكمة التي من خلالها ينبع حفيف خفيف أو زقزقة عصفير خافتة وكأنها - العصفير - تطلق هكذا من حين إلى آخر صيحة ضعيفة من خلال نعاسها، مرتعشة، مضطربة، متأوهة، نائحة، نواحة .

وكان كل هذه الوشوشة والحفيف والتأوهات والتنهدات والخفقانات والاختلاجات تعشش في عتمة التوتة الضخمة العتيقة التي تكاد تلتصق بنافذتي، لم تكن مجرد خفقان أجنحة العصفير المتناثمة بين أغصانها وأوراقها، أو مجرد همهمات نابغة من حناجرها المتكاسلة، بل هي - على الأصح - تمثل أنات وأنياناً وعويلاً وظلامه شيوخ العائلة الذين تقدم بهم السن ولم يبرحوا بعد تلك الدار الكبيرة الرائبة جدرانها، المهشم بلاطها والمعطلة أجهزتها (خيوط الكهرباء، أزرار الحنفيات، معادن المزارب مفاصل الأبواب، قنوات المياه، براعم المزالج امعاء المذياع، محرك الثلاجة، كلس الجدران، آليات الساعات الجدارية

الخ...). فبقوا على فراشهم مستلقين وأعينهم في الظلام مفتوحة وألسنتهم عن الشرثرة لا تكف والعقعة والهديان واللغظ والوشوشة بأصوات خافتة تبرهن عن قرب أجلمهم وأنهم لا يتكلمون إلا ويلجأون إلى سجل صوتي ومدى سلم وتري حتى ما تحت درجة الصمت باستثناء - من حين لآخر - بعض القهقهات المباححة أو بعض الصيحات المذعورة التي لا تجلب انتباه أحد من سكان المنزل ما عدا أمي والعمة فاطمة اللتين قررتا التضحية بوقتتهما للاستماع إلى كل شكواهم وخرافاتهم وهذياناتهم... ولعل أكثرهم بكاء على نفسه وشفقة على روحه هو أبي الذي أصبح طريح الفراش فعاد إلى منزل أمي وقد تزوج عليها مرات عديدة وأكثر من عدد العشيقات والصفقات التجارية الجنونية حتى أفلس وفقد أسنانه وجاء إلى المنزل يطلب الحماية والمغفرة وللهدوية المسكينة الشفقة. فبيع كل واحد منهما في حجرة وأمي بينهما صامته صابرة والعمة فاطمة (قبل أن تسحقها قاطرة الترامواي الكهربائي) بينهما كذلك لكنها مزمجرة معاتبة لا ترحم ولا تشفق ولا تكف عن اللوم مذكرة إياه (أبي) كيف كان يجول العالم ويكس الأموال وينجب الأطفال ويبعث من حين لآخر ببطاقة بريدية:

«طشقت

12 - 12 - 1928

حسان»

والعمة فاطمة لا تفارق أمي وتربي الأولاد وتسهر على نظافة المنزل وتحارب العصافير مهما كان الفصل شتاء كان أم صيفاً وعمتي فاطمة تهول وراءنا وتهددنا وتهدد السماء بقبضة اليد (أولاد... يالكم من جبناء! تخافون الله وتعصونني أنا التي مسحت خراكم بيدي الاثنتين! أولاد القحبة... جيتو تزربو قبل ما تتعنبو... الحسو طيزي!) ثم تركنا مختفين فوق أشجار البستان ريثما تهدأ أعصابها، فتعود إلى المطبخ وتنظر تحت حوضه تطارد جحافل البزاق وقبائل العلق وزرافات الرخويات الوردية المتزحلقة وكأنها مطلية بصابون الغسيل تزيل وتشرب الرطوبة في مرح وهرج وتعبث بحيل العجوز الشمطاء (وقد أصبحت في آخر سنها المتقدم جداً وأيامها الأخيرة تسترق السمع لهمسات الأب المريض واليهودية المسكينة ولأي سعلة أو كحة فتجري وتترك كل شيء، تفهم أن كل تصرفات هذين الشخصين إنما هي تصرفات صبيانية إذ أنهما يتصنعان السعال والألم لا لشيء سوى استغلال حضورها والحديث لها فيريشان ويهدران ويقصان عليها بأصوات باهتة وجمل متراطمة كل ما في ضيمهما وهي غاضبة، ناهرة قاهرة، لكنها لا تقدر على تركهما هكذا وهما يقصان عليها ويشتكيان لا من الآلام فقط بل من المعاملات السيئة التي يلقيانها حسب ادعاءاتهما من أفراد العائلة ومن الأصدقاء ومن الأحباء ومن الشركاء الخ... ) وتفك كل محاولاتها للقضاء عليها، منتقلة (الرخويات) من ميزاب إلى ميزاب ومن جعبة إلى

جعبة ومن صنوبر إلى صنوبر ومن أنبوب إلى أنبوب تاركة  
 اناراً مقززة وقلويات طرية وخطوطاً دبقة، فتصب عليها  
 العجوز فاطمة وابلأ من اسطل الماء الممزوج بامقت  
 العقاقير فيترشح الماء ويتسرب من كل شق وفج ومن كل  
 فجة وثقبة ومن كل فرجة وفجوة، (الأب لا يرسل بادني  
 خبر ما عدا تلك البطاقات البريدية (جكارنا. 12 - 2 -  
 52. حسان) والعمة فاطمة بالمرصاد لكل جرثومة أو عفونة  
 أو تعطن أو مرث أو مرس أو نقع أو استنقع أو طحلب  
 أو تطحلب، فتنهر الأطفال مهما فعلوا شاتمة إياهم  
 وتلومهم وتقرصهم وترجهم وتهمزهم وتزعزعهم فلا مناص  
 أنذاك لهم من ذلك الا اللجوء إلى أعلى الأشجار وخاصة  
 التوتة المعمرة أكثر من مئة سنة والتي تكاد تدخل أغصانها  
 الرائعة اليانعة حجرتي وأنا أكتب ولم أسكن المنزل القديم  
 إلا في فصل الصيف حتى أخفف من عزلة أمي وأستفيد من  
 طيبة المناخ وقد كانت دارنا واقعة في قرية منصوبة على  
 خط الهضاب العليا التي تشق البلاد من غربها إلى شرقها،  
 ولعلني كنت أقضي الصيف في هذه الدار حتى استرجع  
 الذكريات وأحاول فهم وفك اللغز الذي ركبه لي أبي،  
 خاصة، ولكل أعضاء العائلة، عامة، وقد كان يكرهني وأنا  
 طفل ولم أفهم سبب تلك المعاملة السيئة وقد أصبحت  
 رجلاً في عنفوان العمر، ولا تفارقني قط تلك التصرفات  
 البذيئة التي كنت أنا دون سواي ضحيتها رغم ان الأب  
 أنجب أكثر من ثلاثين ابناً لم يكن يكرههم ولا يحبهم.

آتي إلى هذا المنزل العتيق وأسكن الحجرة التي كانت موعودة لي منذ الطفولة وأفتح النافذة وأضع مكثبي - ليلاً - أمام التوتة المتهامسة بينما تصلني من الطابق التحتي همسات الأب وصوت أقدام العممة فاطمة المعراجة إلى حد ما وقرع قدم العم جلول الخشبي وسعال اليهودية وأبقى هكذا أمام أغصان التوتة المطلية فروعها الأمامية بضوء المصباح الكهربائي فوق المكتب ومن خلفي شرائط الغسيل التي تتداخل وتتشابك حاملة الأفلام السلبية المعلقة بالمساسيك حتى تجف بعد عملية التحميص. إذن أتمسمر، أحزن جالساً كالتائه، راجعاً إلى الوراء من خلال الذكريات. إلى وراء الوراء لأصحح أخطائي التاريخية ونكساتي العاطفية وانبهاري بهذا الماضي وهذا اللغز الابوي الذي يستعصي على كل حل. لن أبرر. كل تبرير خاطيء. انتهى ذلك الزمن المقيت الذي كنت أرفض فيه العالم ولا أقبله كما هو. هكذا علمني أبي وأنا أعمل في مخزنه الضخم مثلي مثل العمال لا يرحمني ولا يشفق علي. كان عليّ أن أعمل في معمل تجفيف الفواكه والبقول التي يصدرها فيربح الأموال الطائلة. كما كان عليّ أن أدرس في الابتدائي والمتوسط والثانوي وأن أحصل على المكانة الأولى في كل المواد. خراي على هذه الفترة المقيتة. لن أقبله بعد وعليّ أن أفهم لماذا هذه المعاملة، هذه المشاكسة، هذا الطغيان! لا أقبلني أعوج ملفوفاً كذلك الكلب. يا ما كنت اطأطىء رأسي هابطاً أسفل السافلين

مبلاً حالي بحالي. كثيراً ما ساورتني فكرة قتله وفي آخر لحظة جنت. يا ما كنت أبكي في الظلام كارفاً بولي كهطل الحمير. من علمني أن أكون هكذا؟ في هذه اللحظة المنبثقة كالنافورة القوية في بحر الزمن الراكد، والتوتة تكاد تدخل الحجرة بأغصانها وأوراقها ووريقاتها كنت أحس بأنه كان عليّ أن أفتح مغلاقها. أن أفكك أجزاءها جزئياً، أن أغوص حتى العمق في مجمع الرخاوة الهاتكة... ما كان علي لو كنت استحي من حالي أن أهديء نفسي وأرفق بأبي (لكن كيف حل مشكل دفن الزوجة اليهودية؟) ان أصم على شهوتي الحارقة كمصرة الشرج، أمنع مناء تلك الرغبة الخانقة (قتل الأب) من التمرد والكفر والانفلات. أبقى أكتب أمام النافذة المفتوحة على مصراعها وحفيف الأوراق يسري إلى أحشائي ويذكرني بما قمنا به أنا واخواني وأبناء عمومتي وبنات أعمامي من أعمال ومصائب فوق تلك التوتة. يلسعني الشوق إليهم (فاروق أصبح تاجراً وفؤاد انتهازياً، أما البنات...!) أجوف ملحوساً مملوساً... تغيروا كلهم. أصبحوا أرباب أعمال وعائلات وعصاب مزمن... أما أنا فأكتب وأتذكر... فاروق علمني العادة السرية وهو اليوم يتبختر في مشيته وبطنه مملوء بيرة من النوع العالي جداً والفاخر.

ولا أخال أن ذلك، يمضي الآن، كعتب شديد على الذات، هذه الوطأة التعيسة التي أحسها ثقيلة كحجر الطاحون، ترضني، تدهسني بثقلها الباهض اللامرئي،

أجدني على العكس وأوراق التوتة تخدش بلور النافذة،  
تحت تأثير ذلك التوازي والقلق وقلة الحيل والتصبر، ميتاً  
منفوخاً (الجرذان التي تلاحقها العمّة فاطمة أو العصافير  
التي يقتلها الصقيع الليلي) بليداً (أجساد الفطائص  
الملقوحة) أهب زنخاً وقرفاً والدواة العتيقة أمامي وورائي  
الأفلام السلبية المعلقة على الأشرطة (كل المدن التي زارها  
أبي زرتها بدوري وأخذت صوراً منها: جاكرتا، القاهرة،  
اسطنبول، طشقنت الخ...); والآن وقد قبضت على هذا  
الشعور المنفلت المتفجر، لا أريد أن أبدده (كما بدد أخي  
الأكبر عبدالله كبده في كوؤس الكحول حيث أنقعه وأمرسه  
وفرمله (لا أريد أن أبدده ولا أن أبعثه (كما بعث أبي  
حياته بين عواصم العالم وأفخاذ النساء من كل الأجناس  
بما فيهم الجنس الأسود رغم عنصريته)، لا أريد أن أبعثه  
- أريد أن أصونه، هذا السخط الضامي، بينما العجوز  
فاطمة تعرج صاعدة الدرج (أعلم أنه مجرد هوس،  
لكن... الواصل إلى الطابق الثاني حيث غرفتي، وبينما  
اليهودية تشهق بكاء وهي خائفة أن تدفن في مقبرة يهودية،  
وبينما الأب يبصق في إناء من فضة وهو آخر عينة من  
ماضيه الفاخر ايماءة إلى تعجزه وغطرسته وتعصبه وبهتانه؛  
هذا السخط الضامي أريد أن أرويه، أن أغذيه حتى بعد  
فوات الأوان، وحتى بعد أن جمعت مجموعة من صور كل  
عشيقاتي أبي والأربع زوجات ونصف زوجته - (عشيقته  
النصف يهودية والنصف مسلمة) وكذلك صورة جدتي لأبي



ذات الشخصية الرهيبة التي أثرت لا بد في تهافت ابنها على الملذات وتفاني حفيدها الأكبر (عبدالله) على المحرمات؛ وقد فرضت الجدة وهي على فراش الاحتضار أن تصور بوقارها وعنجهيتها وأجمل جلبابها الحريري القطيفي الفاقع الاحمرار (صورة جدتي السمينه والشرسة: كانت قد أمرت أن تؤخذ لها صورة أثناء احتضارها تخليداً لهذا الحدث العظيم، فتربعت فوق السرير وواجهت عدسة المصور وهي رافلة في حلق كانوا قد البسوها إياها على جناح السرعة مخافة أن تموت قبل التقاط الصورة، فظهرت وعلى رأسها تصفية مخروطية الشكل عنابية اللون تظهر من خلالها ضفيرتها السوداء مثل ضفيرة صبية صغيرة بالرغم مما هي عليه من كبر السن، ومن بصمات الموت التي بدأت تتسرب إلى عينيها الشبه زجاجيتين. أما جسدها فكان يتكلم عن السفر بين التعفن والدود، يتكلم عن انقلاب الحياة وممارسة السلطة العائلية رغم اقتراب الموت، وكان لمها - على الصورة - يتكلم ليقيم نظام الدم بين أعضاء جسدها المتفوق في حامض الموت وكأنها تريد أن تبقى عالية في سوية الموت... أما وجهها فقد احتفظ بشراسته المعهودة وبتلك السلطة التي لم ينافسها فيها أحد طيلة أيام حياتها. فيها شيء من الغطرسة الممزوج بشيء من الغرور أو الرخاء الذاتي... ولكم تعذبت أمني من جبروتها في أيام عزها! ولكم هي غريبة تلك الصورة التي التقطت ساعة احتضارها بوجهها الشاحب وجسدها الضخم... وقد

طلبت هي بنفسها احضار المصور تخليداً لرباطة جأشها فتكون مثلاً يقتدى به من قبل الأحفاد (ومن بينهم أنا) ونموذجاً للشجاعة النسوية). هذا السخط الظامى أريد أن أجعله يتنامى، يتسامق كشجرة التوت الضخمة الفخمة المسنة التي عرفتها منذ أن فتحت أعيني على البستان المنزلي والتي ما زالت أغصانها تتشابك وتتداخل أمامي وأنا وراء المكتب جالس والليل قد طاش زمانه وطفح جنونه والمصباح الكهربائي قد زاد في اخضرار الأغصان لمعاناً وأبهة، خاصة وأن التوتة المثوية قد ألفت الهواء والشمس والرمل والجليد من زمان طويل، كما تعودت السمق والعلو، والعصافير التي تفرفر في أعلى قمته وأنا بالمرصاد لشخصيتها وهي نائمة ملفوفة الرؤوس بين حرير ريشها...

... والصور! كانت كلها تمثل إما أكبر المساجد في هذه العواصم الإسلامية وإما موانئ ضخمة بخلفياتها المتشابكة وبواخرها المختلفة الأشكال والألوان. وكل هذه الأشياء والبنائات والقصور ما كانت تجسد شيئاً في حقيقة الأمر بالنسبة لزوجات الأب وما كان مثابها إلا عبارة عن كسرات أو شظايا أو نبذات قد اقتلعت من سطح المعمورة: نوافذ مستطيلة حيث تتأطر من خلالها وبالمنابذة العواصف الرعدية والرياح الرملية والصحارى الجامدة والمستنقعات الجليدية والنباتات الرهمة والقرى الأفريقية الجافة وعمال صينيون يركبون دراجاتهم وفتيات سنغاليات

نصف عاريات بنهودهن الهزيلة الخ... فكان العالم العاج بجمهراته والفتاح بروائحہ يدخل هكذا بواسطة البطاقات البريدية - بل ويغتصب المنزل ويزعج النساء بوقاحة أو إباحة بعض الصور التي كان الأب يشتريها بدون أي تمييز، متسرعاً كعادته. فاشغاله كثيرة وأموره الخاصة أكثر، فيخربش على ظهر البطاقة اسم المكان والتاريخ وإسمه هو، بعد أن يكتب العنوان على الجهة الأخرى من البطاقة المخصصة لهذا الغرض، حيث هناك أيضاً مربع صغير بحجم الطابع البريدي الذي كان عليه أن يلصقه. يدخل هذا العالم العاج والصاحب إلى هذا المنزل الكبير والوقور وهي لا... (هي أمي التي لم تتغير أبداً والتي كانت تشبه - بجسمها الرقيق المخفي تحت هذا العدد الوافر من الفساتين المطرزة وبوجهها الصباني الذي لم يعرف أبداً تلطيف المسحوقات ولا المساحيق التي تستعملها كل قريناتها سناً وجاهاً - تلك الجدران العالية الشامخة التي تحيط يمنة ويسرة الأزقة الضيقة والملتوية. والتي لا يظهر منها سوى باقات الدفلى والخزامى والكميليا والتي تبقى أزهارها ثابتة لا تتحرك، غارقة في ظل أخضر يسمع من خلاله خريف المياه الهافت وتغريد العصفير اللطيف).

... وهي لا تسكنه بل تعتبر نفسها مسجونة فيه بإرادة الله والزوج الذي لا يعرف إلا إرسال تلك البطاقات الملعونة وكأنه لا يفعل ذلك إلا للتعبير عن حضوره مهما كانت الظروف والمسافات التي تفصله عنها، ولإنذارها بأنه

قادر على التواجد في أماكن وأزمنة مختلفة فيزداد خوفها منه واحترامها له، كما يزداد صبرها وصمودها وسكينتها وطيبتها فتجمع كل هذه البطاقات الآتية من كل أماكن العالم ومن جميع القارات في صندوق قديم. وإن كان لا يخفى عليها أن الزوجات الأخريات تصل إليهن أيضاً مثلاً هذه البطاقات بما فيها من المساجد والقصور والصحارى والجبال الجليدية والعهات المتقنعات بلباس فولكلوري أو سلافي.

«.. مراكش»

12 - 1 - 1945

حسان..»

حاملات كل هذه البطاقات أسماء تذكر بالحمى والسل والملاريا والزلازل والمستنقعات (ماجونة، هايفنق، ازمير، مسينا، سرايفو...) بينما كان هو يبذر أموالاً طائلة مع المومسات الأندلسيات أو القحاب التيلانديات اللواتي لم يبلغن بعد، ويقتحم العالم ويدبر الخطط التجارية والعقود العقارية والصفقات المالية وقد كون ثروة طائلة في مدة قصيرة جداً (أربع سنوات أو خمس على الأكثر) بعد أن كان يشتغل في دكان أبيه الصغير في قرية نائية على الهضاب العليا حيث كان (الجد) يبيع الفحم وأسلاك الغرابيل وغرامات الخميرة وحيث كنت أقضي فيه كل أيام العطلة الصيفية ولم أبلغ بعد سنة الدخول إلى القسم الابتدائي... الحديقة أمامي...

... والحديقة أمامي وأنا أكتب تحت ضوء المصباح الكهربائي بين وشوشة العصفير الترنمية ووسوسة الأب المريض. الليل يتهالك أكثر فأكثر والصور والبطاقات البريدية والعقود التجارية وأوراق الإفلاس العائلي كلها أمامي. فكرت أن المطر الذي انحسر في النهار سيتساقط في المساء. إنه أمر مألوف في فصل الصيف وخاصة في هذه المنطقة من البلاد. ولكنه لم يسقط منذ وصولي من العاصمة وأنا أترقب ذلك بفارغ صبر، حتى أغوص من جديد في ذكريات أحد الأسياف الذي تحول إلى طوفان. فكان عليّ أن أكتب قبل انتهاء الليل وطلوع الفجر فيأخذني الرعب من جديد وأحاول تلصيق أجزاء الرسالة التي مزقتها والتي بعث بها عمي... فترات الانتظار العصبية بدأت تتشنج من جراء السهر والكتابة على ضوء المصباح الكهربائي ورائحة الحوامض التي تطفو على جو الغرفة نتيجة لوجود الأفلام السلبية المعلقة بالمسايك على عدد لا بأس به من أحبال الغسيل التي لا أنصبها إلا في الليل خشية ردود فعل العمه فاطمة. الليل الذي يجب اجتيازه وهذا الإحساس الكريه الذي أشعر به كل صباح بعد انتهائي من الكتابة وتجميع الأفلام السلبية وتجريد الغرفة من كل الجبال، هذا الشعور الذي كان ينتابني كلما انطفأ النهار الهامس إليّ بأنني أفقد حوافي وحواشي... عروق متأكلة باحتكاك الكلمات على تخوم الوعي وبتراكم الصور الملتقطة هنا وهناك، أي في كل الأماكن التي زارها أبي

منذ سنوات عديدة. لقد مرت هذه السنوات على جسده وتركته طريح الفراش لا جاه له ولا قدرة، ينتعش كل يوم من شفقة أمي وسخاء العممة فاطمة وهي (أم هوس هذا؟) قد تجاوزت المئة ولعبت دور المربية لجميع إخواني وأخواتي وأبناء وبنات عمومتي... غزارة التوتة النباتية تكاد تغزو الفضاء الداخلي للغرفة. سنام شجري. ومع هالات الفوانيس والزجاج وبلور الزهرية (الموضوعة على المكتب والتي أتى بها من منطقة بوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) في عز ثروته وإبهته ورونقته) المغشى بالبخار، تغدو الحديقة تخيلاً فائق الروعة. وكأن أغصان التوتة وأوراقها ووريقاتها تنامي في رأسي وتشق مسلكاً مؤلماً عبر خلاياي العصبية إلى حد التفجر في الهياج المذبذب والمكثف لحالة نفسية معدنة. زعانف التوتة بشكل أزهار. شيء في رأسي (تسلسل ذكريات ليلة في ماخور المحمدية بالمغرب الأقصى...) أتكون العممة فاطمة المربية على حق؟ (ولد الفار يخرج حفار...) فتاة بربرية حاملة سطل ماء... فتاة بربرية حاملة سطل ماء... فتاة بر...

ولما بلغ أبي الخامسة عشرة، باغته أحد أصدقاء جدي  
في أكبر ماخور من مواخير قسنطينة، وبعد هذا الحدث  
ببضعة أشهر زوجه والده وعندما بلغ الثامنة عشرة ترك  
القرية ومعه زوجته وابنه حاملاً معه صندوقاً من البيض.  
وبعد مبارحته القرية ببضعة أشهر فتح دكاناً في المدينة حيث  
كان يتردد على مواخيرها قبل أن يزوجه أبوه وعند بلوغه  
العشرين انخرط في أحد الأحزاب الوطنية المطالبة  
بالاستقلال (وبعد انخراطه ببضعة أسابيع أصبح أميناً للمالية  
للحزب. وبلغ الخامسة والعشرين فأصبح تاجراً من أكبر  
تجار المدينة وأباً لثلاثة أطفال: ابن بكر سماه عبدالله  
وابنتان ولدت الأولى في أول شهر من سنة 1927 وسماها  
سعيدة وولدت الثانية في الشهر الأخير من نفس السنة  
(1927) وسماها ياسمين لما بلغ الثلاثين وكان من أثرياء  
قوم المدينة ومن روادها السياسيين صفع عقيداً فرنسياً على  
عين الملاً في الشارع الكبير، وبعد ساعة من الحادث زج  
به في السجن العسكري. من يومه الأول طلب من أحد

المساجين السياسيين أن يعلمه الفرنسية التي لم يكن يكتبها ولا يتقن من أمرها شيئاً. وتمضي سنة كاملة يخرج من السجن وقد تعلم الفرنسية وأصبح يتقنها نحواً وصرفاً. كانت الجماهير تنتظره أمام باب السجن وسادت المدينة الغبطة والسرور وأقيمت الولائم والأفراح على شرفه، وبلغ الخامسة والثلاثين فترك مدينة قسنطينة حيث ازدهرت تجارته ازدهاراً عجبياً وتضخمت شهرته تضخماً طبيعياً وسافر صحبة أهله وبعض الأقارب إلى تونس حيث سيطر على تجارة الاستيراد والتصدير والأملاك العقارية ومعامل النسيج والأراضي الخصبة. وعندما بلغ الأربعين دشن أكبر وأفخم مقهى في مدينة تونس سماه (مقهى الجزائر) وبدأ يحضر دروس أكبر أئمة جامعة الزيتونة رغم إمامه بعلوم اللغة والفقه والتاريخ. أصبح مقهى الجزائر مركز الوطنيين المغاربة وبؤرة تشويش دائم ومتواصل ضد السلطة الفرنسية الاستعمارية. ألقى عليه القبض سنة 1939 وزج به في سجن القصبة العسكري بتهمة الدعاية السياسية المغرضة والنيل من أمن الدولة الفرنسية الداخلي والخارجي. وعندما دخلت الجيوش النازية شمال أفريقية، أطلقت سراحه سنة 1941 (شهر جانفي) وبعد تسعة أشهر، أي في اليوم الخامس من شهر سبتمبر أنجبت زوجته الأولى ابناً سماه بالرشيد وقد حرص على أن تضع حملها في قرية أجداده على الهضاب الجزائرية العليا، كما جرت العادة بالنسبة لكل المواليد، وتواجد الجيوش الألمانية بالعاصمة التونسية



تباطت عليه الأموال والأرباح والصفقات وحول (مقهى الجزائر) إلى مطعم فخم خاص بالضباط الألمان. وفي سنة 1942 عين أميناً مالياً للحزب الدستوري التونسي واستقبل في منزله الشيخ عبد الحميد بن باديس على رأس وفد من جمعية العلماء جاء لزيارة تونس حيث كان الشيخ بن باديس تلميذاً في جامعة الزيتونة، منذ مدة مضت. وفي شهر مارس 1942 انهزمت الجيوش الألمانية المتواجدة في شمال أفريقيا وتركت كل المدن التي كانت تحتلها بما فيها مدينة تونس. بعد عودة السلطة الفرنسية القي عليه القبض ودخل مرة ثانية قلعة القصبة وحجزت كل أملاكه وجمدت كل أمواله فاستغل الفرصة وتعلم الألمانية على أيدي أحد الضباط النازيين وكذلك التركية على أيدي ضابط تركي مرتزق كان قد اعتنق النازية منذ البداية كما تعلم الإسبانية والإيطالية. ولم يقبل تعلم كل هذه اللغات إلا شريطة أن يلحق زملاءه المسجونين اللغة العربية. وهكذا تحصل على نتائج جد مرضية إلى حد أن أصبحت اللغة العربية رسمية يتعامل بها كل المساجين مهما كانت جنسيتهم للاتصال بإدارة الحبس العسكري. وسنة 1945، يوم 25 جويلية خرج من السجن وهو يبكي بين أحضان أصدقائه الذين لم يفرج عنهم بعد، احتفل في ذلك اليوم باسترجاع حريته وأملاكه وأمواله وجاهه وشرفه، وكذلك بعيد ميلاده الأربعين وقلده المنصف باي الوشاح الملكي من الدرجة الأولى وأهداه جواداً عربياً أصيلاً سماه عبد الحميد اكراماً

للسلطان عبد الحميد وللشيخ عبد الحميد بن باديس...  
وابتداء من ذلك اليوم، أي منذ ذلك اليوم الذي بلغ فيه  
أربعين عاماً من العمر (25 جويليه 1945) قرر أن يدون  
سيرته الذاتية فاستهلك في هذا الصدد قرابة مائة كراس،  
وكان يستعمل الأقلام الرصاص حتى يتمكن من استعمال  
المحاية المطاطية عوضاً عن أن يشطب ما يريد حذفه من  
الجمل أو الكلمات والحروف أو الفصول واعتاد على عدم  
مفارقة كراسه وقلمه الرصاصي وممحاته أياً كان موقعه  
(تونس، الجزائر، الرباط، القاهرة، كولمبو، دجاكارتا،  
اصطنبول، بغداد، برشلونة، مرسيلا، جنوة الخ...) كما  
اعتاد على الأسفار وعلى الأزواج. فتزوج سنة 1946 من  
امرأة ثانية كان أبوها من أصل تركي ومن أعيان مدينة  
عنابة. وكانت عائلة القرصاني هذه مشهورة في كل المنطقة  
لملكها لتسع عشرة ساعة صقلية كان أحد أسلاف الزوجة  
الجديدة قد استولى عليها أثناء غارة دارت رحاها قرب  
ميناء بالرمو. كما قيل إن هذا الرجل نفسه قد غزا الكثير  
من المدن الفرنسية الجنوبية وهي مسجلة في كراس الأب  
بأسمائها العربية: عربونة، طولوصة، كرشونة، نيماء، بواتية،  
جبل هيكل وكلها واقعة في منطقة كان العرب يسمونها:  
جبل البرطاط، كما كان هذا السلف القرصاني قد غزا أيضاً  
منطقة جبل القلل وموانئها ومدنها مثل: صيطرون، عنبرون.  
نيسي، اقصي. الخ.

لم يمارس الحب تلك الليلة مع زوجته العنابية التي لم

مكن تبلغ الخامسة عشرة بل نام في رائحة بلوغها المتنامي  
 خاصة وأنها لم يأتها الحيز بعد، رغم غضارة جسدها  
 ولخامة صدرها وحنية أفخاذها وتكور أوراها وزوغبة  
 عانتها. لم يمارس الحب في تلك الليلة معها ويات يكتب  
 على كراسه قصيدة غرامية مطولة رديئة الشكل، وردية  
 المعاني، كما سجل في تلك الليلة انبهاره بسلالة زوجته  
 الجديدة وعلى الأخص ذلك القرصان الذي قيل عنه إنه من  
 لمربي أحمد بن ماجد الذي قاد زورق فاسكو دي قاما  
 البرتغالي وعرف كيف يستدرك طريق الهند البحرية. لم  
 يمارس الحب بل نام في رائحة الطفلة العنابية يكتب بقلمه  
 ويبلل ذروته حتى لا يوقظ صريره على ورق الكراس الفتاة  
 الرائعة التي كانت تحمل زيادة عن جمالها الأسطوري لقباً  
 مريعاً: قمر! ولم يحدثها أيضاً عن اسمها الذي بهره وهو  
 لمي الحقيقة لم يرض أبداً عن اسم زوجته الأولى وأم عشرة  
 أبنائه وكان اسمها باية. وخاصة وأنه كان يكره الملوكية  
 رغم أنه قبل وسام الشرف الذي قلده إياه الملك التونسي  
 المنصف باي، كما قبل تلك الهدية الفاخرة المتجسدة في  
 ذلك الجواد النبيل: عبد الحميد وينحاز إلى النظريات  
 الجمهورية وان كان لم يعلق على جدران مكتبه الخاص إلا  
 صورة واحدة، ألا وهي صورة الأمير عبد القادر. لم  
 ينكحها تلك الليلة ولم يفتزع ولم يزل بكارتها ولم يحدثها  
 كذلك عن القصيدة التي دبجها والتي كانت تدور كل  
 صورها وتشبيهاها حول القمر، كما لم يحدثها عن أمور

كثيرة أخرى كان يمكنه التحدث عنها، قضى الليلة كاملة في تسجيلها: الساعات الجدارية من اللجين الخام التسع عشرة. السنوات التي قضاها في السجون الفرنسية من أجل أهداف سياسية سامية وعادلة، الغزوات التي قام بها القراصنة المسلمون في كل بحار العالم، أحمد ابن ماجد وسذاجته لأنه ترك فاسكو دي قاما يحتكر شرف اكتشاف الطريق البحري المؤدي إلى الهند، تدليسات وتلفيقات ألف ليلة وليلة، قوة وكثرة الحركات الثورية في الإسلام وخاصة منها ثورة الزنج و ثورة القرامطة الخ... وكلما استفاقت البنية نظرت إليه نظرة طيبة ساذجة وقالت له: «أنت في حاجة إلى النوم» لم يفتنه رغم ذلك عري جسدها الفخم المنفلتة أعضاؤه، وقبيل الفجر ترك كراسه ونام على راحة جسدها الذي لم يعرف بعد سيلان الطمث وعلى زنبق فرجها الذي لم يعرف بعد غشاوة الشعر الغث، ولا يزال محفوراً زغباً ريشياً خفيفاً. نام على روائحها فخيّل إليه أنه يحوم فوق سطوح العالم وانه يقتحم التجارة الدولية ويحرر بلاده من وطأة الاستعمار ويجعل من كل ابن من أبناء بلاده رجلاً عظيماً ومن كل ابنة زوجة مطيعة. وإذا هو أفاق أراد أن يحدث زوجته الصغيرة عن كل طموحاته (باستثناء رغبته في الكتابة والابداع الأدبي) التجارية والسياسية والجنسية، لكنه فهم لأول وهلة أن الفتاة حديثة العهد به، ولن تفهم ما يقوله لها فتفتح عينيها كل وسعها وترمش باشفارها كل قدرها. وبقي على هذه الحال مدة سنة بأكملها، ينام على

راحتها ولا يضاجعها، يقضي الليالي، وهو يكتب لها  
 القصائد سرّاً، مدوناً ما يخطر في باله من أفكار دينية  
 وسياسية وفلسفية. أما في النهار فكان يعمل بلا كلل ولا  
 ملل يبدأ يومه بقراءة جزء من القرآن، ثم يصلي، ثم يقصد  
 مكتبه حيث يغوص في حركة رهيبة، يشتري ويبيع، يمضي  
 الصفقات والعقود، يبرق لشركائه في العالم كله ويحاول  
 كل جهده افلاس أعدائه بتصرفاته الجهنمية التي لا يقدر  
 عليها سواه، حتى يرضخ إليه الجميع فيرتمي في أحضانه  
 بعض أخصامه باكياً طالباً منه المغفرة وكذلك من سولته  
 نفسه محاولة منافسته في التجارة. ولم يسافر طيلة تلك  
 السنة قط وهو يتاجر ويكتب القصائد ويحرر (لنفسه)  
 المقالات الفلسفية ويحضر بعض دروس أشرف أئمة الزيتونة  
 سائلاً كل ليلة زوجته قمر عما إذا كان الطمث قد جأها  
 وبعد مرور سنة على زواجه منها، أغدقت الدماء الحيضية  
 على الفتاة فكان الطوفان فولجها ففضّ بكارتها وهو يسبح  
 بين دم الطمث ودم الجرح وغرق لوحده في فرجها  
 المخضب دماً على اختلاف أنواعه وغاص في عزلة ما  
 خرج ولم يخرج منها في الواقع قط لكنه راح يغري نفسه  
 ويضاجع قمرأ المرة تلو الأخرى والبنية تبكي وتدوي وتعيل  
 صبراً وتضيق من همجية اعتناقه جسدها وأعضائها وفرجها  
 ونهدها. والدماء من حولها تهدر وقد كان هو، وهو  
 بهانستها، في عزلة تامة، يشعر بنفسه وكأنه يطير عبر الرياح  
 الرملية وعواصف الثلج يمر عبر المستنقعات حيث يجرف

الدم والبذار وطينة الرغبة. حتى أغمى على الطفلة على أنه وعلى الرغم من ذلك فلم يتوقف من ولوجها من الامام ومن الورا وقد فقد صوابه فاختلط دم الحيض بدم الزنج بعد المجازر التي راحوا فيها ضحيتها واختلط دم البكارة المقلوعة بدم القرامطة واختلط الحابل فتذكر التعذيب الذي عانى منه في السجون، وزاد على هيجانه الجنسي، هيجان جنون استيهامانه وكان عمره واحداً وأربعين سنة بالضبط في تلك الليلة الليلاء وفي هذه الساعة من ساعات الشهوة الشبية الهوجاء: 25 جويلية 1946.

وها هي العصافير قد تجمعت الآن على أربع أو ثلاث شجرات في البستان المنزلي الذي تتوسطه التوتة التي كانت تغطي كثافة حجمها كل الأحجام الأخرى المتواجدة في هذا المكان والتي تحدث من خلال الظلمات المتراكمة تراكماً مخيفاً مهولاً مأميماً كثيباً كأشباح متربعة ومتحدية ليس فقط ضوء المصباح الكهربائي بل وكل الأشياء المتراكمة المجاورة والمحيطة بي، وإذا بي تحت جفني اللتين ضغط عليهما النوم، أشعر وكأن الألوان تنقلب متغيرة متعاكسة، فهكذا يتجزأ مستطيل النافذة اليشبي الأخضرار إلى قسمين: مستطيل كرزي اللون (التهاب الجفنين) ومستطيل زيتوني الخضرة (غضارة التوتة). وفجأة أبدأ في الاستماع إلى أصواتهم الخافتة أول الأمر والتي لا تلبث أن تقوى تدريجياً رغم أن الجو لم يتغير تغيراً جذرياً وأن كنت أحس لاسيما وقد أخذ النعاس يتسرب إلى خلايا الرأس

أنه طراً نوع من التغيير، على أن الجو كان هو هو: يتغير بين غسق وشفق. ثم هذا: تبدأ العصافير ترد ريدا رويدا بعضها على بعض بزقزقة هافتة النبرة وكأنها مترددة، متلعثمة، مترطنة بادية الأمر ولا تلبث أن تتجرأ شيئاً فشيئاً ليتصاعد نشيدها من أعماق أشجار الروضة عامة ومن عمق التوتة نفسها خاصة تلك التي ما زالت أغصانها تخذش زجاج النافذة، يتصاعد تناغم لطيف يليه تجواق يزداد حدة تسيطر عليه الارتجالية فتأتي الوترية نشازة إلى متباعدة، غير متناسقة، ثم هذا أيضاً: إذا الوضع الفضائي والوطني يتغير بسرعة عجيبة فمن جهة يصبغ الأفق بخط وردي ومن جهة أخرى يأخذ التناغم حدة تصدع لها الأذان. فكان العالم الرث في مسيرته الصعبة البطيئة ينطلق من جديد وذلك عن طريق وترية يلجأ في أدائها إلى آلات مصداة قديمة بالية حتى إذا رفعت رأسي وقد توغل الفجر إلى أعماق الحديقة، رأيت مواكب من العصافير واقفة على الزاوية الشرقية من سقف المنزل فتبرز بشكل من الظلال العاتمة في السماء التي لم يتجل بعد لونها الأزرق العادي محتفظة بلونها الشاحب الباهت في تناقض مع مئات الرياش الرمادية المبرقعة بمئات الوريقات الخضراء المستديرة المنبثقة المتدلّية من أعالي التوتة التي تغطي كثافتها سقف الدار كلها وقطعة لا بأس بها من سقوف الديار المجاورة فضلاً عن مساحة معتبرة من السماء، أما هذه الوريقات فبالرغم من عدم حركتها فإنها تتمكن من شق العتمة

المحيطة بالأشياء والأشكال من الجهات الأربع فيما لم يزل غبش الفجر يتباطأ في تسريه إلى المحيط كله فيخرق النافذة بعد لحظات فالزجاج فبلور المصباح البوهيمي الذي اشتراه هو أثناء أحد أسفاره في إحدى مدن تشيكوسلوفاكيا:

«براتيسلافا

1937 - 4 - 12

حسان»

فالحجرة بأسرها. فينغرس في كل زاوية من زوايا الأثاث حتى أدناها فيلف كل الأشياء والتحف حتى أدقها، لكن هذا النوع من الضوء وإن كان يجبرني على اطفاء المصباح الكهربائي فإنه يبقى محتويلاً لا محالة على شيء من طبقات الليل السوداء التي كانت تصبغ بلونها الحال� الكيان الكوني بأسره وكأنني بالعممة المتبقية في الفجر والمتكونة من رواسب مادية لا مرئية في آن واحد، كأني بها تسيل وتنقاطر وتمطر ببطء تقاطر ثقل الزئبق الخائر أو لبابة الكحول، مما يجعل ريش العصافير المصطفة على السقف وداخل الأشجار وفي أعماق التوتة دون لونها الرمادي العادي وقد وقفت الآن كلها على قوائمها الرقيقة وراحت تدب من حين لآخر في أجسامها المنتفخة المنتفشة قشعريرة براقه لا تكاد العين تبصرها لشدة سرعتها والتي نصادف كل صيحة أو زغردة انسجاماً مع هذه الوتيرة



المتقطعة، المتكسرة، الفوضاوية ذات النغمات المتصاعدة والتي راحت تتفاقم وتتعاظم رويداً رويداً إلى حد الصداق، وإذا بأعينها تظهر على صغرها جلية واضحة براءة مناقرها الوردية الليمونية، فذهبت تتضخم وأجسامها كذلك بزوال آخر طبقة ليلية متنافخة وراحت تجعد ريشها الذي برز نهائياً وقد طغى على رماديته لون غريب يمازجه الأزرق الفاتر والخزامي مما زاد من ثقافتها وحجمها وعددها، وهي هكذا على أهبة الانطلاق، مجمعة ريشها الكرة منهمة في تسريح زغب أفرانها بينما الذكور منها تتبختر على حافة السقف تمشي الهويينا في عملية اغتزال وتغزل وتجاذب ودلال وتغنج مما يزيد في بريق أعينها الصغيرة الكحيلية المشتعلة الملتهبة البراقة، تذكرني فيما تذكرني بحجر من الماس العتيق يتوسط طوقاً ذهبياً كانت أمي تزين به جيدها في بعض المناسبات القليلة (أعراس، أفراح، ولائم) وتبقى الأعين تحملق مدة دقائق طويلة مملة بنظرتها الفارغة اللامعبرة الكئيبه وكأنها تحمل داخل مقلتيها كل دموع العالم عامة ودموع الأم خاصة تلك التي بقيت هكذا مجمدة منذ سنة 1945 (25 جويليه) أي منذ اليوم الذي تزوج أبي من قمر تلك المراهقة العنابية بنت الأصل والمجد القادرة، على عكس أمي، أن تنشر شجرة سلالتها - التي تؤدي بها لا محالة إلى ذلك القرصان - التركي صاحب الساعات الجدارية التسع عشرة؛ وكأنها إذن تحمل كل دموع العالم وخاصة منها دموع أمي التي بقيت هكذا مجمدة، ساكنة،

معلقة، وهي جالسة على حقيية من حقائقها بمحطة الخروب في ساعة متأخرة وقد كان الجو بارداً والظلام أدهم وأنا واقف بالقرب منها أشهد من خلال الغلالة التي كانت تستر وجهها كله ما عدا عينيها حيث ال... وأنا واقف (جامد؟) بالقرب منها استرق النظرة نحوها واسترق السمع نحو لهاث القطار الذي يقترب شيئاً فشيئاً ثم يدخل فجأة إلى المحطة مفرقاً. مجلجلاً، يلتهم الفضاء من كل جوانبه، عاصفاً دخان فحمه في الأجوار، محوفاً رصيف المحطة، خارقاً الصمت (ولعلها تترك آنذاك العنان إلى دموعها، مستغلة ما فيها من ضجيج وحركة مبالغ فيها خاصة وان عدد الركاب كان قليلاً وعدد المتنظرين أقل) وحلوة المحيط بمصباحيه الأماميين الساطعين اللذين يبعثان الرعب والخوف، مثلها مثل أعين العصافير المصطفة على حافة السقف الشرقية والتوتة تتوقف نهائياً عن كل حركة وتثبت صامدة لقبول أشعة الشمس الحارقة التي ستصلها ناراً وهاجة.

... وأنا واقف (جامد) بجانبها والقطار يتوقف تدريبياً، فتهرع هي نحو الحقائق حتى لا أرى الدموع التي تنحدر على وجنتيها البارزتين في صمت واستماتة، فيما سائق القاطرة راح يحرك بكل قوة المنبه بتصفيراته الحادة، بينما كانت هي تتفاعل السرعة حاملة حقيبتها في يدها اليمنى وقابضة باليسرى على يدي، مهرولة نحو القاطرة إلى الدرجة الأولى، وبدون الادلاء بأي كلمة،

صامته، ساكنة، ميتة وكأنها ماتت بعد أو بالأحرى مات جسدها داخل خمارها الحريري الأبيض أو قد ابتلعته الأرض، فغابت عن الوجود وكأن شيئاً لم يعد يستحق الاهتمام ما عدا الحقيبة وقبضة يدي التي تضغط عليها بعنف غير معتاد فيما لا أنظر أنا إلا إلى وجهها المقنع محاولاً فهم هول الواقعة أو الحادثة من خلال عينيها، بدون ما جدوى فإذا بي أبقى أتشخصها والقطار ينطلق من جديد نحو القرية التي تركتها فغادرتها منذ سنوات صحبة زوجها وابنتها البكر ولم تعد تزورها إلا لتضع حملها أي كل سنتين تقريباً، حاملاً (زوجها) صندوق البيض وبعض العناد المصرور في قماش قطيفي وقليلاً من الزاد (كسرة ولحم مقدد و...)، بينما هي تحاول في الورااء مسايرة وتيرة مشيته العنجهية ولا تنبس ببنت شفة. وفجأة أكف عن مراقبتها فيحيط بي الهرج والمرج وتجذبني الضوضاء والغوغاء والجلبة ولهث القطار وفرقة العجلات الحديدية وقعقة العجلات بعد أن خفت حمولتها يكركرها الحمالون لمي اتجاه بهو المحطة، ثم من جديد يخيم الصمت الرهيب على القمرية الخاصة بنا فيقبع كل واحد منا في فراشه وتطفئ أمي الضوء وتغوص المقصورة القطارية في عالم اللاوجود.

كان أبي على عكس أمي مجبولاً بروح الصراع والنضال وكان أصله الريفي قد غرز فيه تعنتاً مخيفاً وتعصباً مريباً وجشعاً رهيباً، كان يهتم بكل شيء ولا تخفاه خافية: عندما

رجع في أحد الأعوام إلى القرية وشاهد سيارة أكبر معمر من معمر المنطقه، هتف إلى الولايات المتحدة على الفور وقدم طلبية لأفخم سيارة أمريكية وقد اختار لها لوناً أخضر ناصعاً، فكاد المعمر يموت غيظاً. كان يهتم بكل شيء وكان العلم يفتن لبه فوق كل حد وقد اهتدى إلى حذق التكلم بعدة لغات بدون أن تطأ قدماه أرضية مدرسة، لكنه عرف كيف يستغل وقته كلما دخل السجن لأسباب سياسية. فكان في نظرنا محاطاً بهالة العالم العلامة: كانت جيوبه مكتظة على الدوام بالكتب والمجلات يقرأها حيثما اتفق له ذلك، وكان يتفق له أحياناً أن يعلق أمام أصحابه وأحبائه على بغض الكتب التاريخية والفلسفية والفقهية (لكنه لا ينسب باتفه تلحيض عن القصائد الشعرية التي كان يدبجها لقمر زوجته المراهقة التي كان يموت لعشقها، وان كنت كثيراً ما شككت في عشقه ظناً من أنه كان يحبها لا لجمالها وهو غير قادر على تذوقه وإنما لحسبها ونسبها وقصة سلفها القر). وكانت زوجته قمر تبعث القلق في نفسي لهذا الطيف الزاحف الذي كنت أراه يبرز من خلال القماش الحريري الخفيف الهفهاف عند حدثية فخذيتها وكانت إذا أفاقت من نومها بدت عينيها تائهتين وقد بلغ الغموض منها حداً يجعلني أسأل نفسي وأستنجد بروحي لمعرفة سرها: هل كانت تحب أبي حقاً؟ هل كانت تحب أخي الأكبر عبدالله؟ دكان أبي فسيح وفارغ. الزوال في قمة أوجه. رائحة القرفة فواحة وكتب ودفاتر المحاسبة

قشيرة والفواتير متراكمة والحبر والكتان والخشب والمزخرفة  
والدواة العتيقة كان قد اشتراها في بازار طهران:

«طهران

12 - 3 - 1926

«حسان»

كماشة القلق الأخضر. شجر ينبت في نخاعي. انكح  
لحبة تأتي إلى الدكان من حين إلى آخر تأخذ بيدي العمياء  
وتولجها بين أفخاذها. علق الفرج وعشبه وماؤه. الغثيان.  
زخامة البعن السمين. أنامل الصقيع تمعج الهواء. فوضى  
الفرج وضوضاؤه، البظر كجعبة الحنفية والشجرة تطلق ماءً  
خثيراً. خداع الحواس: من خلف الزجاج المطلي بالعتمة  
أنظر إلى المارة وكأنهم يتقلصون. خداع الحواس. أين  
الثقبة؟ أين الخرم؟ أين الثلم؟ أتقياً وأبكي. تعاسة صفراء  
وقلق أخضر أم هل كانت تحبني أنا؟ كنت آنذاك أخاف أن  
أسقط في فخ الغرور وأنايتي ليس لها حدود.

... والتوتة تتوقف نهائياً عن كل حركة وتثبت صامدة  
مدة لقبول أشعة الشمس المحرقة التي تصلها ناراً وهاجة،  
وإذا أفتح في الغروب عيناى أرى الشمس وقد راحت  
تجاحف قمة أغصان التوتة وتطليها ألواناً وردية ودبعة،  
ملونة أعلى الجدار بضوء هافت لطيف برتقالي - أو  
بالأحرى - نحاسي الفارق. أما القرميد العلوي فقد لطح  
بمادة حمراء ولم يبق عليه ولا عصفور واحد، بينما في

الأسفل، على جهة الجدار حيث الشمس لم تصله بعد، فكان، خبازي ليلجي يجعل من صفوف القرميد المتزاوية صفاً صفاً حزمة ضوئية متتابعة ومتلاقية تلاقي النمط الهندسي، فيتسبب هذا التحزم الفيزيقي هروب الرثاية وكأنها شفتت في اتجاه نقطة معينة وخيالية، من وراء الجدار المقابل حيث يتشعبط اللبلاّب العشبي الذي لا تلمسه الشمس قط؛ إذ ينمو على الجدار المتصاعد عليه لوناً أزرق نيلياً. لكن سرعان ما يأتي الطائر الأول ويأخذ مكانته على القرميد دون أن أراه وقد أبهرتني أشعة الشمس الأصيلية لكنني أسمع زقزقة مرحة معلنة عن رجوع كل الطيور الأخرى. أبقى هكذا بعض الساعة أو أقلها لا أتحرك مترقباً غروب الشمس وسقوط الطبقات الليلية الأولى لإشعال مصباحي الكهربائي والبداية في الكتابة من جديد والنافذة مفتوحة على مصراعها والتوتة هامسة والعصافير موشوشة وفي الطابق التحتي سعال المرضى يصل إلي - أو بالأحرى - يتصاعد إلي وكذلك وقع أقدام العمّة فاطمة وما يواكبها من تعرج وثناقل وهي قد فانت المائة ولا زالت في ركضها وتجوّالها تصول وتجوب في الدار ليلاً ونهاراً، تداوي الزوجة اليهودية وتعاتب الأب وتمزح مع أمي، ريشما تأتي العجوز وتباغتني وأنا غارق في نشر الحبال لأجفف عليها أفلامي السلبية التي حمضتها أثناء القيلولة، فتسخط بي وتحاول اقتلاع الأفلام فأمانعها ضاماً إياها إلى صدري وتبقى هكذا بين أحضانني دقائق طوال، لا أدعها تتكلم،

فأقاطعها عندما تبدأ جملتها العادية: «لماذا تبحث عن...»  
(هي الوحيدة التي كانت تضحك وتصفر كقاطرة (تلك التي  
امتطيناها في محطة الخروب سنة 1945) قديمة تتسلق  
جبالاً... تجري وراء الأطفال عبر الحديقة، فنلجأ إلى  
الشجرة العتيقة ونأكل من أوراقها العديد العديد منها،  
فتضرس الحموضة أفواهنا وتخاف علينا العجوز الطيبة،  
فتتوقف عن مطاردتنا وعرا كنا... أما الآن فما هي الدار  
خالية من الأطفال وأصبحت ملجأ المسكين بعد تبديد  
أمواله ودفن ثلاث من زوجاته الشرعيات، أما قصة العمّة  
فاطمة: استيهامات فقط، مجرد أهواس لا أكثر... أولم  
تمت موتة شنيعة ولم أبلغ بعد العاشرة أو التاسعة، تحت  
قاطرة الترامواي الكهربائي؟.

يتساقط الصباح على المدينة ويغزوها تدريجياً فيفتت أحجامها ويحرقها في آن واحد. وأصبحت بؤرة ضوء متعرج. أرى أشكالها المستطيلة المستديرة معاً تتحرك ثم تذوب فجأة وتترك المجال لضوء صاخبة تنبثر المنازل الواحد تلو الآخر ويزحف في الفضاء خيط من الضوء والهواء يعجن كل الكتل ويدلكها بعنف فلم يبق سوى صليل الرياح المتضاربة فيما بينها والتي تنكسر ذروتها على أحجام العمارات الشامخة المتراسة المتماسكة حاملة جروحها وتورماتها، ورحت أنا أكتسحها (المدينة) وأمسحها ذهاباً وإياباً منهوكةً مهموماً مهموماً وقد توغل القنوط والبغضاء في احشائي، رحمت باحثاً عن أخي الأكبر ملاحقاً إياه راكضاً وراءه، وقد نمت في ذقني لحية كثيفة لم أحلقها لعدة أيام مضت وقد تسربلت بثياب قذرة غير لائقة، رحمت وقد كنت في حاجة إلى النوم وأنا أتشاحب تحت كابوس الأرق باحثاً عن أخي، انتقل من مقهى إلى حانة فأشعر أن زبائننا كانوا على أهبة الاستعداد للانقضاض على



جسمي الهزيل كما لو كنت حشرة أم الأربع الأربعين، وإذا  
بي أمر في تجوالي هذا على دار الحبيبة المجهولة التي لا  
أعرف منها سوى خطها الرائع وأسلوب رسائلها البليغ،  
وهي أن دخلت دارها متاهبة الصراخ فرعاً من تفرسي فيها  
بعين أبالغ في حولها نكاية فيها... لا أعرف منها سوى  
خطها الرائع ورائحتها التي استنشقت وهي عائدة من الحمام  
فاتبع خطاها متشمماً آثارها في عقب الرياحين والمسك  
والعنبر فأتمكن هكذا من السير في سياجها المعطر، مغمض  
العينين حتى تصل إلى باب دارها حيث يترقبها أبوها بلهف  
وشغف وحيرة، لشدة ما كان يخاف عليها من زحمة المارة  
والمارقين فتتقاذفها أذرع الذكور لا غرض لهم سوى  
التحويم ليلاً نهاراً في أرجاء المدينة، يلغون ويدورون  
ويلفون حول سعادة الآخرين، أولئك المحظوظين وحول  
هنائهم وترفهم لاهئين مثلهم مثل الذباب المتزاحم حول  
نقطة من القهوة المشبعة سكرًا على طاولات المقاهي القذرة  
حيث يعكفون بضع ساعات يتفاعلون لعب الدومينو أو  
الأوراق، وهم في حقيقة الأمر ذوو قلوب منتفخة  
ممضوضة، يعكفون على التهمع لأتفه الأمور ويطلقون  
العنان لعواطفهم السيالة والجياشة، حاملين في جيوبهم  
المبعجة كتب العشق وأشرطة أغاني أم كلثوم وأسمهان،  
واضعين وراء آذانهم غصن نعناع أو ورقة حبق أو زهرة  
ياسمين، وقد تهرأت أحذيتهم من كثرة جولها وصولها على  
اسفلت الشارع الرئيسي وقد تميع قطرانه من فرط الحر ومن

كثرة الحركة المرورية التي لا تكف اطلاقاً، ينتقلون من رصيف إلى رصيف في هرج ومرج دائمين من فرط ما يعانون من أعباء الحيرة والعزلة والارتباك بالنسبة لهذا المعاش المنفلت بين أصابعهم محاولين دون ما جدوى السيطرة عليه ويرجعون القهقري فيلجأون إلى الكذب والمغالاة فيه، متبجحين بالغنائم الأثوية التي يزعمون تحصلهم عليها، فيغوصون مرة ثانية في أحد المقاهي ويتركون العنان لمخيلتهم فاتحين المجال لتنفجاتهم ومزاعمهم وتشدقاتهم ما عدا واحد منهم كان لا يفارقني وأنا ذاهب من حانة إلى أخرى ومن علبة إلى علبة ليلية باحثاً عن الأخ المسكين، كان يصطحبني ويمشي برفقتي، جنباً إلى جنب كثيراً، صامتاً، ممشوق القد، رائع الجمال، رهيف الشعور لا يمر عليه يوم إلا ويعشق امرأة جديدة، يكاد رأسه وهو يصطحبني ينطح السماء لطول قامته، يمشي بجانبني، يسايرني شاهراً ربطة عنق عريضة ذات ألوان صارخة أصبحت موضوع سخريتي منه لا! لا! لا! هذا من سوء الذوق.. ما تعلمها ياخو.. ما عندك ذوق ولا نوق.. ولكنه يتعنت ويصر على اشهارها في مهب النسيم فيبدو وكأنه فخور بها، قائلاً: والحذاء؟ ما رأيك في الحذاء؟ من صنع ايطالي لا تغلط ولا تغرنك نفسك يا ابني.. وأنا كذلك: رديء - سوء الذوق يا رجل أصفر أسود - ما هذه الألوان؟ أتريد أن تظن النسوة أنك مهرج أو بهلواني. ولو كان لي عينيك لاقتحمت كل أنثوات

العالم. سوء الذوق يا كمال! ما هذه الألوان؟ وهو: تقول هذا لأنك غاير.. تغيير مني.. وواش بيه الصباط.. قتلتك مصنوع في ايطاليا،.. وأنا: سوء الذوق عليّ أن أعلمك الكثير من الأمور.. لكنك لا تريد... سوء الذوق والأنانية! قتلتك الرجلّة يا كمال... لا يقبل كلامي بسايرني يمشي بجنبي ومرفقه مغروسة في جنبي... يؤلمني... لا أقول شيئاً.. علينا أن نعثر على الآخر التائه... الضائع... ثم يعيد الكرة: مالها ربطة العنق؟ من حرير خام! قلت لك من حرير خام! وأنا: أعلم ذلك، لكن (أسكت) لكن... (أسكت ثانية) أعرف.. أعرف.. من حرير خام وحذاء من صنع ايطالي... لكن صراحة بيني وبينك.. لا تغضب.. لولا عيناك لما عشقتك حتى ولا امرأة واحدة.. أما عن ملابسك فلا تخرف: رديئة، صارخة، قبيحة.. يسكت. كان يعلم أنني على بينة من أن كل هذه الملابس ليست ملكه وإنما اعتاد أن يستعيرها من بعض الأصدقاء الأثرياء آبائهم أو من أحباب أقل منه فاقة. لا يتركني كلما جبت شوارع المدينة أبحث عن أخي الأكبر. لا يتركني ولو لحظة واحدة إذ أنه كان يعلم أنني في حاجة إلى مساعدة لنقل أخي من الحانة إلى المنزل كما أنني سوف أمدّه بعض الأوراق النقدية عنوان شكر ومحبة. وما أن أمدّه بما تيسر حتى أرى مزاجه يتغير عما كان يتظاهر به في أول الأمر من رفض. مما يحملني على اللحاح، فيغلق في النهاية قبضته على الأوراق فجأة

متظاهراً بالتلعثم واحمرار الوجه، وما هي إلا ثواني حتى ينطق قائلاً: إني مدين لك بهذا الجميل.. لكن عيب... عيب عليك.. لا أقبلها إلا مجاملة لك.. ثم ينطلق كالصاروخ شاكراً، باركاً، مثرثراً، مسترجعاً لتوه فصاحته وفضاظته: معك الحق هذه الربطة شنيعة... سأنزعها... والحذاء كذلك.. لكن العفو لي موعد مستعجل.. أتركك.. الحمد لله على سلامة عبد الله،.. إلى الغد.. ينطلق كالبرق نحو إحدى عشيقاته وجلهن من الفرنسيات أو اليهوديات وكن عديدات. ينطلق نحو بائع الزهور يشتري باقة من الورد لجاكلين آخر امرأة فاز بلبها وجسدها وكانت متزوجة من ضابط يعمل في صفوف الجيش الفرنسي في فيتنام، وابقى لوحدي جاهداً في البحث عن الأخ الأكبر فأجده، في نهاية المطاف في إحدى الحانات الشعبية، شارباً، ثاملاً فأغتاظ منه. وأحقد على صديقي كمال وقد تركني ليشتري باقة زهور فيهدئها لجاكلين فتهديه جسمها وحيويتها وقهقهتها ومرحها. فأجده إذن شارباً، سكراناً، ثاملاً، وسط روائح النشارة والسردين المشوي والكحول الرديئة وأنواع النبيذ الرخيصة فيشرب ويأكل بضع حبات من الزيتون المملح ويبالغ في أكلها عمداً، فيبرر بالتالي عطشه ومقارعة الخمر، فلا ينتهي إلا عند الصباح وقد أحاطت به زمرة من المدمنين، غير مباليين بقشور الحلازن التي كانت تتفرقع تحت أقدامهم، غير أبهين للضجة المسيطرة على المكان وحتى لصوت المطربة الموهوبة وقد راحت تغرد

وتنوح باكية على حبيب العمر فيتناثر صوتها مجموعة  
لحظات تتساقط على رؤوس السكرارى وتنحرف قلوبهم  
المحرومة وقد لعب الخمر في رؤوسهم وإذا بهم يأخذون  
في البكاء من البداية (بعد الكأس الثالث أو الرابع)  
والتعانق والتقبيل والتودد ولا يتشاجرون ولا يدب الانشقاق  
إلى صفوفهم الا عندما يحتد النقاش حول موهبة المغنين  
لكان منهم من يدافع عن أم كلثوم أو أسمهان أو غيرهم  
من المطربين والمطربات الشرقيين ومنهم من يتذوق الحاج  
محمد العنقة أو الحاجة حمداوية أو غيرهم من المطربين  
والمطربات المغاربة. . لكن سرعان ما يتركون هذه  
التفاهات ويعادون الكرة ويشربون مرة ومرة فتتعطن نكهة  
أفواههم وتتكاثر دموعهم وتبرز أوشامهم على بشرات  
عضلاتهم فيسترجعون لأول وهلة أخوتهم المؤلمة الحساسة  
ورائحة البسباس المبلول والحبقة المجنونة والبول الآسن  
تعبق الجو وقد قص ارباً ارباً (البسباس) ووضع في صحون  
صغيرة ملونة ومثلومة. . أما صديقي كمال فقد كان  
بضجرني بربطة عنقه البراقة وحذائه المتعدد الألوان وطول  
قامته وجمال عينيه وجبته عندما نوشك على العثور على  
أخي، فيتركني طائراً نحو إحدى عشيقاته إذ كان عليه أن  
يقضي كل أموره العاطفية والجنسية أثناء العطلة الصيفية لأنه  
يقضي باقي السنة في إحدى الثانويات الملتزمة بالنظام  
الداخلي، لا يخرج منها ولا يدخل ولا يمارس العشق أثناء  
تلك الفترة الانغلاقية الا عن طريق المراسلة. ويشمل أخي

عبد الله فيلح على رفاقه بدفع ما يشربه ندماًؤه (وهو أغناهم وابن عائلة غنية وأبوه يجول العالم لغرض أعماله التجارية واللاتجارية راسلاً البطاقات البريدية من كل بقاع العالم وكذلك المبالغ المالية الضخمة حتى تعيش عائلاته الأربع في عز ودلال وتؤدة وسعادة وتصريف وتبذير وبذخ ورغد عيش):

### «البندقية»

12 - 12 - 1950

### «حسان»

ويغضب إذا أراد أحد الأزلام العساكر دفع الأوراق المالية لصاحب الحانة الذي كان يسجل على حسابه ما لا يمكنه دفعه لتوه إذ اعتاد أن يقدم كل آخر شهر فاتورة باهظة القيمة للعم مجيد (المسؤول عن المحاسبة بالنسبة لكل شركات وأملاك وأموال الأب وقد أتى به هذا الأخير من مدينة سكيكدة حيث كان يعمل كحمال بسيط بالميناء ولم يختره الأب هكذا صدفة وإنما كان مشهوراً، رغم أنه أمي لم يدخل المدرسة أبداً، بذكائه المفرط وقدرته في علوم الحساب والمحاسبة، لأنه كان رجلاً طيباً أميناً ليناً مطيعاً ورعاً، يكن لوالدي اعجاباً لا حدود له) فيزيد صاحب الحانة من سخائه ويصب ويملاً كؤوسهم بعرق الصبير الخام الذي يلهب الأحشاء التهاباً (البندقية 12 - 12 - 1950. حسان) فيسكر أخي ولا يكف حتى طلوع

الصباح فأعثر عليه وقد تركني كمال لحالي وراح يشتري  
باقة زهور لعشيقته الجديدة زوجة القبطان، ويرفض الابن  
الضال الخروج من الحانة وأحاول أقصى جهدي لاقتلاعه  
من كرسيه لكنه يشتمني ويلكمني، مبرزاً البطاقة البريدية  
الأخيرة التي بعث بها الوالد، مقهقهاً البندقية، البندقية -  
وهل تعلم أين تقيم البندقية.. أسأل أحمد شوقي! ويضحك  
ويستهتر ويتدخل أصدقاؤه ويصبون علي وإبلاً من الشتائم  
وكوكب الشرق تعيد الكرة وتطحن الشجن إلى ما لا يطاق  
فتذرف الدموع مدراراً على الحب الضائع والجيل  
المسكين، وينجور القانون الجو برقائلته المتساقطة عبر هذه  
العريسة الصوتية المهولة ذهاباً وإياباً البندقية! هل تعرف أين  
توجد هذه المدينة؟ أتركني لحالي.. روح خبي وجهك في  
حضن قمر (وعند ذلك يأخذ أحد الندماء يغني: ليه يا قمر  
ليه يا قمر! ترتترت) اتركني لحالي! (إلي مكتوب على الجبين  
ترتترت) روح ابحث عن حضرة الوالد المحترم.. (مبرزاً  
البطاقة الأخيرة التي تلقيناها منذ أيام)، وبعد أن أتخلص  
من الندماء وتملقهم آخذ بذراع أخي وأجرجره، قاهراً  
نفسياً. معذباً جسماً. محاولاً نسيان خديعة كمال المتكررة  
متسائلاً عن مكان مدينة البندقية هذه وهو: آه يا قمر، آه يا  
قمر...

رنت ضحكة قمر الهازئة في جسدي ومع ذلك أحسست  
مخي مائعاً في نهاية ذلك النهار الصيفي وقد دخلت  
حجرتها حيث رأيت منذ البداية نفس البطاقة البريدية التي

شهرها عبدالله في الحانة والتي تمثل ساحة القديس ماركو بالبندقية وأخذت البطاقة بين أناملي فعثرت على ظهرها على نفس الخط (البندقية 12 - 12 - 1950 حسان) وفكرت أنه كان يشتري أربع بطاقات بريدية عندما يصل إلى إحدى المدن ويرسلها إلى عنوان منازل زوجاته الأربع بدون أن يحزر ولو كلمة واحدة تعبر عن شعور ما أو إحساس ما. لا شيء سوى اسم المدينة والتاريخ واسمه هو (إمضاؤه) لا يتعب نفسه ولاية يقوم بأي مجهود لاختيار أربع بطاقات مختلفة المناظر، والوقت! ليس له الوقت... مخي مائع في تناهي ذلك النهار والشمس تنخفض والساعة بالعكس ترتفع. أنظر إلى ذلك الخط وإلى تلك الكلمات الجرباء الجوفاء البلهاء: ضحكت قمر وهي تشاهد البطاقة التي أمسكتها. ثم أرمي بها عرض الحائط فتزيد هي في الضحك وتغالي فيه قائلة: أحب أن ألحس قضيبك.. دعه في البندقية.. ظللت ساكناً لم أقل شيئاً. إن قلت إن بعض الشيء لا يجب على المرء القيام به ولا فعله. كلمات كالعادة! كانت تقول أكثر منها كلما اختلت بي. ظلت هي تعانقني وتدلّك فحلي وتتملى استطلته وأنا متمسك بين الغثيان والشهوة (الصورة الشهباء) وفجأة لم أعد أرى شيء سوى وجهها المغسول بالنسيان (نسيان سن المراهقة ونسيان عمر الطفولة إذ لم تتمكن من اللعب بالعرانس وقد أصبحت هي بنفسها عروسة الوالد الذي لم يبقر بكارتها إلا عندما أتاها الطمث الأول) وهي تحاول محو العلامات التي يكون



الزوج قد تركها على جسمها أو البصمات التي يكون البعل قد تركها على وجهها الصبياني، لم تحتفل بعيد ميلادها السادس عشر بعد.. وهي تحاول محو العلامات والبصمات والآثار التي اختلطت في ذهنها حيث البحر وميناء عنابة (مسقط رأسها) يتصاعد إليها لا يحمل أي رقم وقد انبسطت عليه صفحة الليل المدلهمة وتعكس الأشياء بطريقة (معكوسة) وقد راح فرجها الصغير المغسول والمرط يسيل سيلانه الأنثوي وهي تحس بالقشعريرة تدب حثيثاً تحت جلد المساء المتساقط من خلال الكوة البلورية وقد ازدحمت في رأسي أشياء وصور غريبة: أمعاء معدنية بين خضرة وزرقة دبقة، فاترة، سلسلة.. ثم أسترجع وعيي ويتفجر في قلبي صيف مالح يهدأ من خلاله تعب النهار ولوعة الحنين إلى الأب الغائب وقرح الآلام المنغرزة في لوعة عبدالله وقلقه الوجداني... يتفجر في قلبي ذلك الصيف المالح يمحي تعب النهار وآفات الطقس وبأتي بمذاق النحاس وماء المتعة ومرارة المبادئ الفولاذية التي أرمي بها وأنا أعانق قمرأ...: وهي: أحب أن أزيل ادرانك. ان أقوم عضوك ان أحسه وأشفظ رائحة المني شفتاً... أحب رائحة منيك أنت... حليبك أنت، وأنا: أنا متعب هذا اليوم.. أبي بعث ببطاقته كالعادة.. هي: أنت دائماً متعب.. لم أجد رداً مناسباً، فاستغلت الفرصة، وأسقطتني على الأرضية المفروشة بالزرابي المبتوثة. امتطنتني كالفارسة. راحت تخب فوقي وكأنها تريد أكلي

أكلاً فكان الدوار والدوران والصورة: (كانت شهباء اللون أو بنية نوعاً ما، ورقها من النوع القديم المحبب قد تجعد تحت تأثير المس واللمس).

وعند الكبير، احتفظت بكل البطاقات بل وزرت كل الأماكن التي كانت ممثلة عليها والتقطت منها صوراً عديدة ولكنني عند إقامتي الصيفية في المنزل العائلي كنت لا أصبر على النظر إليها مكدسة أكداساً: أختار الواحدة وأفرز الأخرى على منوال الصدفة فأقضي هكذا الساعات الطوال أتفحصها وكأنها (هذه البطاقات الأجنبية الآتية من كل أطراف العلم الخارجي) أصبحت عندي بمثابة نقاط الجودة والعلامات بالنسبة لتركيب الماضي المتفكك والاستدلال بيناته ودلالاته وإثارته وألغازه المتوقعة جلها حول بعض الشخصيات الأساسية: الأب، الضرة (قمر)، الأخ البكر (عبدالله)، العمة (فاطمة)، بيد أن الشخصيات الأخرى كانت كلها تحوم وتدوم كالأشباح حول هذه المراكز الأساسية والمداور المحورية والمحاور القطبية للأشياء التي لا تخفي أهميتها علي وإن كانت عبارة عن سلسلة من الجزئيات والتفاصيل التي تكاد تكون قد محتها الذاكرة وعوضتها بأخرى مغلوطة حتى ولو كان ذلك ناتجاً عن مجرد انتشار استيهاماتي داخل عصبية ذهني في حركتها المتكررة، فتتصغر، تنحرف، تتضخم، تتضاعف حسب ايقاس مهوس، يمزق الراس بما يشبه العديد من الومضات البراقة البارقة، الزرقاء المسترزقة، البيضاء الباهتة بل حتى

أنها (الاستيهامات والذكريات والاختراعات الذهنية) تختفي  
 بين الفينة والفينة، في طوفان من النقاط الصغيرة أو  
 الأقراص الصغيرة الحمراء والخضراء (أزهار الحديقة  
 وأوراق التوتة) مخترقة رأسي ومستطيلة كي تشكل تشابكاتها  
 شبكة من الخيوط الوهمية بجميع الألوان الممكن تنويعها  
 وحصرتها، مرتعدة على ملتوى عيناى وملتوية إلى ما لا  
 نهاية وقد عقدت العزم على أن أنخر كل هذه المادة الخام  
 وأفقع هذا الدم الممتورم والاستمرار في الانغواص داخل  
 هذه المنطقة المكزونة من الوعي بخلفياته الرهيبة وكأنني  
 أفعل ذلك لا فقط لفهم الحقيقة والتوغل فيها بل وكذلك  
 لأبرهن لنفسي أنني لست جباناً ولا حقوداً (البحث عن  
 الأب المفقود بغض النظر عن الأخ المتمرد الذي كان  
 يقضي ليليه في...) وهكذا كل يوم عندما يشرع النعاس  
 في خلط أفكارى ومزجها في كبة مؤلمة (مثلها مثل كبة أمي  
 الصوفية وهي تحيك لي رداء شتوياً أو...) لا طاقة  
 لفكها، مملوءة هذه الكبة بالحدس الرهيب والتخوف من  
 شبح الماضي وأحداث الحاضر (العمة فاطمة ماتت منذ  
 أكثر من عشرين سنة وأنا لا زلت أستمع خطاها ونحنحاتها  
 وتوبيخاتها ومشيتها المتعرجة الثقيلة بغرابتها وتخيلاتها  
 ووسواسها وردود الفعل الجهنمية التي تعصر أمعائى  
 وأعصابى وخلياتى العصبية)، فأستفيق وسط الليل أصبح  
 وأرجف وأخاف خوف الأطفال وفزعهم عندما يرمى بي  
 الكابوس في الشطر الآخر من العالم الدهليزي، العنكبوتي،

المتخفي تحت طيات من الأوهام والأحلام، فانهض وأشغل المصباح وأتقياً وأعرق وأتألم وأتعب وأستكمل شظايا الليل مؤرقاً متذكراً تلك الفاجعة والحادثة الذي ذهبت ضحيتها العمدة فاطمة وقد مزق جسمها الترامواي ولم أبلغ بعد السنة الثامنة من عمري.. لذا جاءت محاولتي لتسليط الأضواء على أعماق قنواتي المعدنية الخاصة أو كل نوع آخر من الإضاءة فاشلة، لا تساعدني أبداً على تخفيف هذا الشعور المجنز (لماذا تعودت أن أقضي فصل الصيف في المنزل الكبير ساهراً الليالي الطويلة، منصرفاً في الكتابة وتحميض الأفلام السلبية، جالساً إلى مكتبي في مواجهة النافذة الكبيرة المطلّة على البستان حيث أوراق التوتة وأغصانها تخذش زجاج المصراع المغلوق... وأسمع وأنا منهمك في العمل وأتحسس حركات الوريقات وزقزقات العصافير المتناثمة.. أسمع أقدام عمتي فاطمة المعوجة المتناقلة ولا أستغرب ذلك والعجوز قد لقيت حتفها منذ عشرين سنة؟) المرعد، المبرق الذي يرسم أمواجاً ومنحنيات في الهواء كاشطاً عينيّ رغم ألوانها الباهتة الغامضة ربما بسبب تعدد المنابع والأماكن التي تصلني منها وشوشة الأموات، فيلمع البرق في رأسي وينكسر الضوء الصباحي إلى آلاف الجزئيات الكروية الدائرية، منطلقة ومعججة في الهواء وعبره، طابعة الوجوه بطابع شاحب باهت (ضوء المصباح البوهيمي المتضارب مع ضوء النهار الطالع) أو منطفئ (العتمة المتنامية داخل الحجرة في

انتظار سقوط الليل بصفة نهائية وعودة العصفير إلى قعر شجرة التوت إلى أعلى السطح المقابل فتصطف مشكاة مشكاة)، وكل هذا التراكم للأمواج الممغنطة المكهربة التي تنكسر، تتقاصص، تتداوب، تتداخل، تتجزأ عبر اتجاهات متعددة، حاملة أضواء مرئية وأضواء سوداء، جسمياتها تكاد تتناطح في رأسي وتهشمه. وأنا على تلك الدرجة من الحساسية حذراً، واعياً على طقطقة وتململ الأشكال المشخصة، وأنا جالس في مواجهة النافذة الشرقية، بتوزيع الضوء المتواجد داخل التوتة (وهو متواجد فيها مهما كانت الساعة، ليلاً أم نهاراً، وإنما حسب درجات مختلفة الحدة، المار عبر موشورات وانحرافات وانعراجات الأغصان والجذور والعقد النباتية والأوراق والوريقات والطحالب المتنامية على ضفاف الفروع والتفرعات) والذي يخلف لطخات لطخات دويرية، مكورة منقطعة لاستشعاع مفرقة بتلك الأشياء نفسها في ألف نغم لوني، ما عدا نغمة العصفير المختلفة درجتها حسب حدة الضوء، محولة الجو إلى نوع من السيولة منثنية الأثاث والأحجام داخل المكتب نفسه: نوع من السيولة تكاد تكون غامضة، مجردة، معتمة، محشوة بنوع من اللاشيء من اللاحس رغم (ليلاً) صيحة أحد العصفير أو الأفراخ على أقل تقدير تنبثق من العدم برهة ثم تموت (هل تحلم العصفير؟) وأنا ملتصق بكل هذا الطوفان من الضوء عندما يهدر الفجر مدراراً ويغدق أشرطته الحلبية المتكاثفة إلى حد أن تصبح طبقات وأقراصاً من

المادة (جو. شمس. سحب) فإني أحس إحساساً ضعيفاً بضرب من الانتحاء الذي يبقيني متيقظاً لأنني لا أريد أن أترك نفسي تمصها الرموز والأشباح والوشوشة والهواجس. خاصة وأنا بعيد كل البعد عن التطير والخرافات (ولعلني أجد في ذلك الفزع الطفلي نوعاً من اللذة منقطع النظير، يتمادى طعمه في فمي أياماً وليالي بعد كل كابوس وعندما أقيم في الضيعة حيث المنزل الكبير، فتخف عني استيهاماتي فأسمع أقدام العمة فاطمة المعرجة المتناقلة في الطابق السفلي) والرموز المتقطعة الواضحة التي تتربص بي لتغزو جسمي وتبهر وعيي وتبعث في نفسي القلق والهلع، لذلك وأنا واع بالخطر، فإني أنهض بسرعة من مجلسي (فراشي، مكتبي، مخبر التحميض الخ...؟) وأنزل إلى تحت فأدخل حجرة أبي وأتحسس جسمه وهو مستلقٍ على فراشه، متناعساً في عمق نوع من الغيبوبة الخفيفة، فيستفيق ويفتح عينيه متسائلاً عما حدث دون أن يتحرك له ساكن فأتركه لتوه وأخرج وأنا أنادي أمي فتخرج من المطبخ ويداها تقطران بماء الغسيل، فأبقى أتشخص فيهما وفي القطرات التي تنزلق الواحدة تلو الأخرى على بلاط الدار ويأتيني صوت أمي من بعيد: مالك؟ أنا يا رشيد... في المطبخ... هل تحتاج شيئاً.. أعود أدراجي: (لا شيء أماه.. لا شيء.. أردت أن أطمئن عن حالتك هذا الصباح.. فقط فقط) أتقهقر إلى الورا، أتسلق الأدراج الخشبية، القديمة فتأرز تحت أقدامي وتثّر وتموء كالكقط الضائعة.

أغوص من جديد في سيولة الحركة المبهرة المتغامزة برتقالياً وأزرق كي أسترجع ذكرياتي وانطباعاتي الغامضة المتخمرة داخل النعاس، تحت خميرة الكلمات المكسورة (التي لفظتها العمة فاطمة وهي تتلقف آخر أنفاسها تحت حافلة الترامواي التي أصابتها (أولادي!) الممحوه المشطوب عليها (كلمات العشيقات أو جملها المكتوبة على ورق رفيع النوعية بنفسجي اللون ولا أتذكر حتى مجرد ألقابهن) المبعثرة (خرافات صديقي كمال وشطحات أخي عبدالله) التي يبقى معناها مجازاً بالنسبة لكل من حاول أن يطحن كل ما يدخل من أحداث وحوادث وإحساس وأحساس وبكاء وخمول في تكوين المركب البشري وأن يفهم معانيه ومعانيه ومآلاته الفلسفية؛ أغوص من جديد في سيولة، تذكروني (على الخصوص، بطريقة تناقضية) اصيف الجفاف التي كنت أقضيها في القرية حيث يعبق الجو بالروائح المعطرة والطيبة المنبثقة من المشمش المجفف المنشور على القرميد مرة والمسطح مباشرة على أرضية المنازل القروية مرة أخرى، والقيض يحرق كل الكائنات باستثناء الحشرات الصغيرة المتناثرة التي تشرب ذلك المناخ المخترق تنتعش منه وبه والتي (القرية) كثيراً ما أتشوق إليها عندما تمنعني أشغالي في بعض السنوات من الالتجاء إليها في فصل الحر، فأشعر حيث ما كنت بأن الأجواء الأخرى تفوح برائحة عطنة مثل رائحة الصوف المبللة، رائحة محيطات ونواحي المسالخ العالمية (شيكافو

12 - 11 - 1929 حسان) رائحة المصارين المغسولة  
بالأمونياتك، وذخه، مرسله من مادة سميكة رطبة لزجة  
غضارية تترك آثارها على البشرة فيتقزز كل من سحته تلك  
المادة الزيتية:

«شيكاقو»

12 - 11 - 1929

«حسان»

أتذكر طفولتي فتدفق الذكريات في ذهني المراهق المعتوه  
تدفقاً وأنا مازلت أدور باحثاً عن الحبيبة فيما كان المداح  
يخرق الزمن فينتصب أمام عيني... كان يبهرنا ويمتعا  
بقصصه وخرافاتة فلا نشبع منها، كان هو أعمى (وقد توفي  
الآن الشيخ الضرير...) وكان وجهه ذو العظام الناتئة  
يتدحرج بدون تمهيد من فوق رأسه إلى أسفل ذقنه،  
فيضاعف هذا الانطباع من هزالة القصاص. كان محشوراً  
صيفاً شتاءً في برنس رث النسيج وفاتر اللون فيظهر لنا  
نموذجاً عن الفقر والتكشف خاصة وأنه كان ينتعل حذاء  
عسكرياً قديماً يفتقر إلى بريمات لشده، ولعله تحصل عليها  
أثناء حرب السبع سنوات وكانت آنذاك في أوجها. كان  
دائماً متربعاً مغنياً بصوت رائع مبجح تتسرب إليه من حين  
إلى آخر رقاقات أزيوية خارقة، فلا تزعجه الرياح الرملية  
التي تجفف المناخير ولا زطيط الحشرات العاجزة ولا  
الحرارة المجلفة ولا أي شيء آخر. وقد راح الشيخ



الأعمى يعايش الملائكة فلا يشعر بكبت الفقر والحرمان  
قط. أما الجمهور فكان يصغي مشدوها، مسمراً في مكانه  
مبهوراً. أما الكبار فيبالغون في تظاهرهم بالارهاق والتعب  
ويشهبون أوجهاً صائمة، رمضانة، وقد أوشك العيد على  
أن يحل ولعلمهم يتصرفون هذا التصرف حتى نشفق عليهم  
نحن الصغار ويعطف الله عليهم برحمته وسلوانه. كانت  
أوجههم مكفهرة، لكن ما أن يتلفظ المداح ببيت غزلي أو  
شبعي أو إباحي حتى تراهم يترنمون ويترنحون من فرط ما  
يستمعون إليه. . (اسمعوا يا مؤمنين) لا يرفع من صوته قط  
لكنه لا يكف عن تحسس ماعزه الرابض بجانبه. ثم يعود  
إلى غنائه وعزفته وعزفه، وكأن نعومة شعر الحيوان تطمئننه  
على أحواله وعلى أحوال العالم: (آه يا بلّارج يا طويل  
القائمة، سبع سنين ما صليت وكجيت انصلي انسيت  
السورة...) الممكن بمكان. تلك الحرب التي خضناها  
صارخين، مذهولين، مسعوري القلوب والتي راحت تدق  
دقات جنونية، خضناها خائفين، فزعين، متجرشين،  
متوزعين على أرض الأصقاع الطيبة، الغزيرة الخصبة وكأننا  
اكشفنا هذه الأصقاع المسلوقة من خلال الرصاص والبارود  
والقذائف المدفعية وسوائل النابالم والطائرات الجبارة التي  
بدت وكأنها جراد فخم وأزار عارم يرسم ظله بشكل صليبي  
فوق التربة السمراء (المبقة المرصعة دائرات شهباء أو  
خضراء أو صلصلية) فيما المداح يستمر في نشوته وغبطته،  
فلا يفارقه الحذر وهو يخاف من مكر الأطفال القادرين

على سرق ماعزه الحلوب، كما أنه يخشى نكهة الكافرين والسياح ورافضي صوم رمضان، وقد توزعوا وسط الجمهور المتجمهر، حسب نظام استراتيجي محكم. متأهبين للفرار عند أي خطر طارئ (خاصة وهم يخافون من شراسة العساكر الأجانب وتعصب اخوان الصفاء) يمررون الزجاجاة الالهلمية خلسة، شاربين رحيق الفردوس مباشرة، واضعين أفواههم تحت عنق القنينة، إناء لا يمكنه ارواؤه البتة، مستترين ببرانسهم العريضة. (نتركه لكم رمضانكم هذا الذي به تتبجحون، يا كرام).

كنت وأنا أتجول عبر شوارع المدينة وساحاتها أطحن شجونني تحت عظام ضلوعي وما كدت أتخلص منه حتى لسعتني السويداء القاتمة من جديد، عند سماعي أشعار المداح الغزلية. كان الرجل يتمتع بعطف ماعزه أما أنا فلا عطف أتمتع به ولا ما يحزنني لقد خدعتني الحبيبة وقد جاءت قسنطينة لقضاء العطلة في دار عمها حيث بها التحقت. قسنطينة إنها مدينة عجيبة وإنني أعرفها كل المعرفة. لقد سبق وعشت فيها حتى السابعة عشرة من عمري، أتنقل بين الثانوية الفرنسية الإسلامية ومعهد ابن باديس حيث تعرفت على صديقي السكير وقد راح الآن يشئت رثييه في احدى الحانات المكتظة الغاصة بالرواد بعد أن اختلس مني بضع أوراق نقدية. حيث تزرع أزهار العرونقي في زجاجات البيرة وقناني الكحول، فتنمو وتكبر وتضغط على البلور حتى يتكسر رقاقت بأوراقها اليانعة

الأجمة المتهيجة تشرب أشعة الشمس تشرباً خاصة إذا ما حل الربيع فيحذر منها السكارى محمليين فيها، غير مصدقين ما تراه أعينهم رافضين أن تلعب لهم زهورهم المحبوبة لعبتها وتشوش عقولهم، فيشعرون بوخز الخدعة تنغص ما تبقى لهم من ليل... لا شك في أنها خدعتني حبيبتي وقد وعدتني بمقابلتي وتركتني آتية وسط هذه المدينة، زاعمة أنها تتمتع بحرية التحرك المطلقة فنذهب حيثما شاءت وأينما أرادت وان عمها إنما هو من ذوي الأفكار العصرية المتحررة. فطلبت مني الالتحاق بها، فألحت بحجة أن الوضع هناك سيكون أهون وقد أصبح من المستحيل الخروج من دار أبيها وقد حلت العطلة الصيفية وأغلقت الثانوية أبوابها فلم تعد تقدر هي على دفع الرشوة للحارسة العجوز واشتراء ضميرها فتتغافل عن جحافل المحرومين الذين سقطوا كلهم في حبال حبها وتآكلت الصبابة قلوبهم فمزقتها. كنت أمر مراراً أمام نوافذ دار عمها بدون ما جدوى، بل ولعلها، إذا ما شققت طريقي نحوها، إنها تصيح صارخة تطلب المساعدة، مستغيثة وذلك ليس مضرّة بي وإساءة لي بل لمجرد اغراء عمها وأبعاد الظنون عن ذهنه. وإني لم أحط علماً بهذه الحقائق إلا بعد أيام أي بعد استلامي منها كتاباً حررته هي على جناح السرعة مذعورة مرعوبة مصرحة فيه أنه قد داخل عمها بعض الشكوك في أمرها وذلك من جراء تصرفاتي الصيانية على حد زعمها. فإذا بي أمل فأكره هذه المواقف

المسرحية التافهة وإذا الغيرة والحقد والعزلة تتوغل في أعماقي فأخذ جسمي يجف ويتيبس إلى حد أن تقيحت رثائي فغضبت ليس فقط لخيانة سامية بل أيضاً لأنني عجزت عن لملمة ذكرياتي التي توزعت كلها في أرجاء المدينة الشاسعة. ما حل بها؟ هل تلك الذكريات تجمدت؟ هل ذاكرتي تحجرت؟ لست أدري لكنني تخيلت قبل مجيئي أنني لمجرد ما أصل قسنطينة سأسترجع ذكرياتي الغابرة وانطباعاتي القديمة التي طالما حملتها في طيات أحلامي ظناً مني أن الماضي سيتدفق فيلقفني ويجعلني في حالة السرف، في نشوة الترف والطرب. ولكن... لا شيء من كل هذا يحصل وقد سبق لي أن فكرت قبل امتطاء القطار أن رغبتني في العودة إلى قسنطينة لم تكن منوطة بحبي لسامية لكن رغبة مني في استرجاعي ذلك الجو الذي عشت فيه وأنا مراقب خاصة وأنني كثيراً ما أجلت زيارتي لهذه المدينة التي خلفت أثاراً وخيمة في ذاكرتي، وكأنني أتوقع هذه الأشياء التي أشعر بها الآن وهذه الخيبة التي قضت على آخر آمالي. عندما فهمت أن خيالي لعب لي دوراً خبيثاً مرة أخرى وهز عقلي بشطحاته الجنوبية المألوفة وهذيانه المفرط الميال إلى تضخيم كل الأمور، كنت قد عزمت على الاتصال بأصدقائي القدامى فور وصولي إلى هناك: فلا يسعفني الحظ وقد التقيت بزيميلي في معهد ابن باديس (سابقاً) ذلك السكير المتعربد ذي المظهر المخيف، الغارق في صمته الأبدي ذي القد الممشوق فيكاد رأسه

ينطح السماء فيتباهى أمامي بربطة عنق رائعة براقه مرقشة  
بأزهار زرقاء، يمشي ويتطاوس متبخرأ... وقد كنت على  
يقين أن الربطة لم تكن ملكه بل أنه استلفها من أحد  
أصدقائه فأسلفه إياها.

لقد تغيرت أسماء الشوارع فعلاً، وما كان هذا ليضايقني  
فما كنت أعرف يوم كنت في المدينة مقيماً أي اسم منها.  
وكان من عادتي أن أتجاهل أسماء الأنهج والأزقة، بل  
كنت أمشي واتجه عبرها بعينة مغازاتها وعماراتها وواجهاتها  
وحداتها. وما كانت تشكل هذه التغييرات بالنسبة إليّ أي  
عائق حقاً، بل فرحت بقراءتي الأسماء الجديدة، ومنها  
اسم صديقي الملقب بالعرف المولود فيها والمدفون بعيداً  
عنها، وكذلك هناك بالقرب من البحر دون كفن ولا  
شرشف، دفن بلباسه الذي كان يرتديه لما اغتاله أصدقائه  
أنفسهم (وكان صاحبي المتسكع يقاطعني كلما تحدثت عن  
العرف وعن ظروف ميته قائلاً: دعنا يا رجل، أرخف  
علينا... هذه قصة قديمة نسيناها... ثم دع حدأ  
لاستطراداتك هذه المملة التي لا بداية ولا نهاية لها). لكن  
المفيد في الأمر أنني لم أعثر البتة على أي أثر من آثار  
الماضي. لا شيء قط. لا صور ولا ألوان، لا روائح ولا  
أماكن، ولا أشداف ولا أشباح. كانت عملية البحث عن  
أوهامي هذه عقيمة للغاية ومؤلمة جداً، فلم أعد أسخط من  
هذالة ذاكرتي وضعفها بعد ما وصلت قسنطينة، وقد عودتني  
ذاكرتي على حدتها وحيويتها وغزارتها، إلى حد أنني كنت

عادة من شدة ما كنت أميل إلى تضخيم الأحداث والظواهر وتحريفها وتشويهها.. أما الآن فلا إمكانية لي في استرجاع ذاكرتي التي عشتها في المدينة تلك المهزوزة المتشامخة على رعتها وشغفتها وكأنها تحرس الطريق المؤدية إلى سطيف. وإذا برفيقي السكير يرجع فجأة سالماً مسالماً بعد أن قضى سهرته في الشرب آخذاً بالتهكم على مشاعري قائلاً (لقد أصابتك ضربة (القمر) والشمس: كما تريد. وما هذا كله إلا لأنك عشقت فتاة... يا للكارثة...) لكن يحاول في آخر الأمر مساعدتي على استرجاع ذكرياتي، فأخذ يقص علي الوقائع التي عشناها سوية مقدماً لي بعض زملائنا بالمعهد، وآخرين في المدرسة الفرنسية الإسلامية حيث كان قيمها العام كرسكي الأصل (كان قد لقبه التلاميذ بالثانية عشرة الأربع، وأما هو فكان يقول: الثانية عشرة وربيع... نسي زميلي ذلك العهد البطولي... لقد أضع الشعور لتوه من فرط ادمانه على المقارعة. مسكين هو - لقد اختلطت عليه التواقيت والأمور) لقد نسيت حتى مظهر هذا المدير ولقبه هذا الغريب. أما رفاقي الآخرون فلم أميز منهم أحداً.

لقد تضخمت أجسادهم وارتخت مسامهم واعتلت النظارات الذهبية أعينهم وتكرشت بطونهم وكثرت ذريتهم وارتفعت مناصبهم المهنية والاجتماعية وابتضت شواربهم الكثة... فكيف أتمكن يا ترى من اكتشاف زملائي في عهد المدرسة وقد كانوا مهرجين متمردين وأصبحوا اليوم

شخصيات وقورة، ذات جاه ومال ومسؤوليات سياسية وإدارية وعسكرية عالية ومرموقة؟ فلا هم يتذكرونني ولا أنا أتذكرهم فلا بد إذن من أنني تغيرت أنا أيضاً ولم أعر للأمر انتباهاً. أما عن المدينة فلا شيء: العدم، ثم العدم... خاصة وأنها انقلبت رأساً على عقب بشوارعها الجديدة وفي هجرة هائلة مؤلمة مخيفة، فخاف الأغنياء على أنفسهم وأموالهم وانسحبوا متجهين نحو الأحياء العليا وقد كان يسكنها الأوروبيون إبان الاستقلال.

ظل الليل يزداد عمقاً ومتعة وبدأ الشفق بعيداً وقريباً في آن واحد بعد إن اتكأت الشمس طويلاً على الجدار المقابل ثم انتشرت إرباً إرباً داخل التوتة وتلخص التكوين الكوني كله فيما كنت أظنه مأوى فراخ، وبعدها، وبعدها فقط، ينقص الماضي مثل ذلك الغصن الذي نخره الدود وبدأ يتفلج بعد أن كان يخدش في الأيام القليلة الماضية زجاج مصرع النافذة الأيمن. ظل الليل يزداد عمقاً... طائر يأتي مرفرفاً زهواناً باسطاً جناحيه وكأنه يخشى سقوط السماء (أي الحبيبات الليلية التي تتكون منها المادة الجوية بعد غياب الشمس) وعنقه استمسك بالأفق وريشه عبارة عن عريسة تشوه خضرة المحيط والزقزقة كلام سابح في متاهة. ظل الليل يزداد متعة وبدأ الشفق قريباً ومختبئاً والقمر قد طلع بعد فصيلاً، لامعاً، طليقاً، مفلطحاً، ممتداً إلى لا نهاية وضوء النهار لم ينجل بعد. كنت لا أزال ألاحق الأشباح المتصلة، المتقاطعة، المتداخلة. قرعت الباب ودخلت دونما استشارة مني. سمعتها تتكلم... من خلفي متكأة



على الباب وكلماتها تصل إلي مطاطية الطابع، متباطئة النبوة «تأخرت كثيراً...» كان علي أن اخترع ذريعة مقبولة، تعلقة لطيفة... من أين جاءت؟ كانت لا تزال جاثمة قريبة مني لصغر الغرفة، ملتصقة بالباب أحس أنها مدت ذراعيها بطريقة متعامدة... تتمسك وتستصلب. كانت تطفح روائح أنثوية يحيط بها ضباب الليل المتسرب من الجدران وقد برز مستطيل النافذة حليبي الزوايا في الواجهة الأمامية ونث الأطراف على الواجهة الخلفية حيث تتضخم التوتة بانقضاض الشمس وتضخم العتمة. ورحت أتشم جسدها وهي جاسمة لا تتحرك بل كانت عيناها تثقبان حرير قميصي الصيفي فيتظاهر لي أن حبكتها ونسيجها قد انحل وتفكك وانفسخ تحت أشعة نظرتها الملتهبة «لقد تأخرت قليلاً...» كان لا بد أن...» أكاد لا أحس وجودها من فرط العتمة التي فرضت الآن سلطانها على الغرفة بينما كنت أتشخص أغصان التوتة وكل أحاسيسي مركزة على مراقبة عودة الطيور والأفراخ. عندما التفت إليها قالت بانزعاج: لم أكن أتوقع أن تكون جباناً لهذا الحد... أريد التعرف على أهلك قبل أن يموت... لماذا أنت خائف... أريد فقط أن أعرف عليه... أرى منظره... لم أكن أتوقع أن تكون ج... امتلأت غيظاً... هذه العلائق المبتورة، لماذا؟ من شوهني بها؟ من ابتلاني بها؟ جاءت من المدينة بسيارتها دون أن تستأذني فتحدثني في الموضوع. لم أجد شيئاً أقوله - لماذا لم تستقل الطائرة...؟ لم ترد علي. سؤال أبله... معها

الحق. منذ أشهر وهي تحاول زيارة الضيعة والمنزل والقرية وأنا أرفض... اختارت أن تباغتني، تحرق حرومات أحشائي، مستنقعات أموري الخاصة... قالت - قبل أن يموت... أرجوك... هذا رجل عملاق... قبل أن يموت... قهقهت. تفجرت، تشنجت (هل خفت حقاً؟ هل جبنتم؟) قلت - لم يبق سوى التذمر والنفور والوثوب والتوتر والانقضاض والتشقق والانتقاع والتمرث والمرس والتصعد والتلوع والسخط والغضب الغاضب الغضاب الغضببضب الأغضب، الغضب الذي يلتهم الأخضر واليابس، النث والجاف، الندي والمتقرف... ها هي ذا قد انفلتت الآن داخل قبري العميق، تسربت إلى خلفية الخلفيات، إلى نخاعي، كذبي، أساطيري، خرافاتي، ادعاءاتي، ولوعي وشغفي بالكذب، انفلتت من خرم الابرة وقد أغلقت أمامها كل الأبواب والنوافذ والشقائق والحفرات والثغرات.. تركت زوجها وتعلقت بي. لم أترك زوجتي وتعلقت بها. قالت - لن أتركك. قلت أنت ككل النساء تطغى عليهن عقدة الأمومة... لا بد لهن من حضانة ما: الأزواج، الأطفال، العشاق، الأقارب، الأحباب وحتى الأصدقاء! أحسست بي أتخلل كجدران الكهوف المطحلبة الرطبة الندية أو كلبّة الخبز المتنقعة تحت ماء المطر. قالت (هناك حملة ضد تبذير الخبز لأن استيراد الحبوب يكلف الدولة الكثير...) سكت لم يعد للكلام معنى... فهتمت أنها جاءت لتتأكد من نحنحة العمّة فاطمة

وتحلل من منظورها هي، منظورها العلماني، النفساني، قصة الزوجة اليهودية... قلت لها في السابق إنني أصبت بزكام مزمن لازمني ابتداء من يوم جنازتها (ربو بلغة الأطباء) إلى أن فهمت العلاقة القائمة بين هذه المصيبة التي انهكتني وموت العمه فاطمة تحت عربة الترامواي، أي يوم اتضح لي أن ربوي هذا كان مرضاً جسدياً نفسياً... صرت حساساً. لم أبلغ الثامنة... مصاباً بالرشح والزكام والربو. كان جسمها متمسراً على الباب وشفاتها مرصوصتين على فمها... عبارة عن شبح باستثناء الرائحة العابقة الطيبة. تركت زوجاً وابنة وتعلقت بي. لم أذكر أمامها ولو مرة واحدة اسم القرية حيث الضيعة. دبرت أمورها. قلت: ربوي؟ مجرد حساسية قد شفيت منها بالأدوية والحقن والأبر... أدوية اخترعها باستور بنفسه... أي نعم! كنت أعرف الفاظها عند التهكم بها... قلت لها بغبغة شبه علمانية... اتركينا... عقدة الأمومة... لقد تجاوزت سن الرضاعة... لكن بقيت في تلك العادة الممتعة... أعني امتصاص ثدي النساء، أما ابهامي فلا... من زمان سيدتي... أنظر. أنطنط، أتعلم أن إجابته عيوبي وعقدي وعصابي وأعصابي لكن المفيد - ماذا جاء بك إلى هنا؟ من أعطاك العنوان؟ من؟ كان جلدي يتقصص. ينزل الرعش من قصفي سالكاً صلبتي، هابطاً نحو ربلتي. اتهممتني بالفراغ.. قلت صحيح، أنا أجوف، فارغ... جلبتها قدرتي على قهر الكلمات وتمليصها من معانيها القاموسية

والنحوية. ثم اتهمتنني باللصوصية... قلت صحيح كذلك... كذلك... كذلك صحيح... وأما بعد؟ قالت: تريد خلق علم الأثریات اللغوية الجديدة - ممكن... هل من مانع... تتدعبل فوق جرح الكلمات وجغرافية النحويات. حلفت ان لا أقول شيئاً... تزيد في بغبتها نوعاً من التخنث (اهزوزات معوية متلاحقة تذكرني بمأساة أخي الأكبر... لم يتجنب أية زلة بل بالعكس). لكنها عندما نطقت بهذه الكلمة «التخنث» أحسست بالدمع يطفي انعكاسياً من مقلتي. رفعت رأسي في الظلام وأشرت نحو النافذة «هذه هي التوتة».

وعندما يمطر الصباح وأستيقظ وقد يأكل الوهن أطرافي وأتذكر أنها نامت لأول مرة بجنبي على سرير العزوبة في المنزل الكبير. يتبادر إلى ذهني فكرة أساسية: المفيد أنها انخرطت في الحزب. السياسة أولاً... التطاحن الطبقي قبل التطاحن النفساني. ثم أبحر في سيولتها: (كانت ماريا من أم جزائرية وأب فرنسي تركت زوجها...).

سلاسة الجو وهي نائمة. وكأنني أسيل بين أعضائها بين لحمها وبشرتها كالماء الذي يسري تحت الجلد وهي تشعر من خلال نومها بأن جسدها تحوحب واجتزع وتحوجز. ومنذ لقائنا الأول فهمت أن العالم يريبها وأن الحياة تبهرها. لا تفهمها. لا ولكنها تصر على تفكيكها فتتألم مثلها مثل الزنبور الذي فقد محوره الأساسي وبهرته بنية الخلايا حيث تعود أن يعرف أربه، يتردد بين الانتجاع

والخمول، فتذكر أصياف القحط والجفاف الذي حدثتها  
هنا بأسهاب ومبالغة (الولوع بالكذب فضيلة) لكن (ماريا)  
بمقظة في الحقيقة، شاهرة زباناتها كدرع واق. هي كذلك  
مقسومة إلى شطرين. الأم جزائرية والأب فرنسي، شيء  
لفظيح بالنسبة لأغلب مواطنينا. كانت تقول ذلك ضاحكة،  
شاهقة. لكنني كنت أفهم من خلال حركات عينها أنها  
تعاني من هذا الخليط (أو الانشقاق) كأنها قد ضررتها  
الحشرات والرخويات - وكل الحيوانات المقززة رغم  
صغرها وعدم الاحتصال حتى على عمود فقري حاصرتها  
وهي ما الت تتشعبط على حبال الطفولة وتمشي على  
حوافي الغيبوبة. فيغرز الأطفال الآخرون فيها أنواعاً من  
الأحاسيس والامارات والارتسامات والايماءات والحركات  
والكلمات والعمليات الإرهابية لأنها مختلطة الدم والدين  
والأصل والنسل... وأخطر من ذلك، لأنها تملك أما  
تمكنت من مجابهة المجتمع الضيق وتزوجت بفرنسي لذا  
نشأت وكان عقلها مجهز بلطخة ضوئية ترسلها مسلاً  
مخيفة في طيات نفسها، فتفيض على وتيرة تشنجية،  
سرمدية، أفقية وعمودية معاً، نائرة، غاضبة، صاخبة،  
رافضة، متمردة، غاصبة، قاهرة، جبارة... جميلة. رائحة  
الجمال، ساحرة، شقية، مثيرة. تعرفت عليها وأنا أسبخ  
قطن الأيام وأجازف نفسي وأطوف حول النساء وأمارس  
السياسة وأكتب الكتب وأحمض الأفلام وألتقط الصور  
وأحاول جمع وتجميع ما شتته الأب من أشياء الحياة

الزخمة ومن أمور الأموات المهوجسة. كانت في حاجة إلى تقنية صخبها وضجرتها فحدثتها عن الحزب... رفضت لأول وهلة، متذرة أن المناضلين في مثل هذه الأحزاب إنما يدخلونها لوقاية ذاتهم، أي لأغراض نفسية لا علاقة لها بالصراع السياسي... كانت على حق. دخلت الحزب. انخرطت. أمهلتها وحاولت أن أبرهن لها عن عدم التناقض بين وقاية الفرد ذهنياً ووقاية المجتمع سياسياً. دخلت الحزب. انخرطت فيه. زاد تعلقي بها... تركت زوجها. لم أترك زوجتي. قالت أنت بحاجة إلى أمهات عديدات، أمك لا تكفيك. أفهم أنك لا تقدر على تطبيق زوجتك... أبوك، يا أخي. أبوك! كم طلق وتزوج... أنت ذكر. وأنا أنثى... هنا يقبع المشكل. المرأة يا حبيبي لا ترضيها الحلول الوسطى أما الرجل فلا يعيش إلا بها، بل يتعش منها... جبان أنت ككل الرجال. علي أن أزور زوجتك. قبلت. طلبت مني أن أسمح لها بمشاهدتي وأنا أمارس عملية الكتابة. قلت أبداً. تلوعت... أعادت الكرة... تلوعت (لا تعرف الدموع ولم أرها تذرف ولو دمعة واحدة وعلاقتنا مستمرة منذ خمس سنوات). قبلت، فقالت بعد اليوم الأول من هذه التجربة: عندما أراك تكتب، تتصاعد إلى منخري رائحة المستنقعات المعشوشبة (مثلها مثل تلك المستنقعات التي جففها الزنج بعد أن قرر متفقد مياه دجلة سنة 899 وبادر إلى إنشاء ثلاثين حاجزاً حتى يضبط مقدار اندفاع النهرين، أي دجلة والفرات

وتفرعاتها التي لا يمكن احصاؤها، بمستنقعاتها التي لا تحصى وحيث كان العبيد السود المستجلبون من السودان وزانبار وبلاد النوبة، يكدون ليلاً ونهاراً، يردمون أطراف النهرين، يبسطونها ولم ينضب مصب النهرين بعد، فمات الكثير من العبيد، منهم من جرفتهم المياه ومنهم من أصيب بحمى الملاريا (ألف ليلة وليلة) ومنهم من توفي تحت سطوة... (المحاطة بسياج من القصب، أذكر أنا بدوري أيام الكتاب حيث كنا نخرج مع المؤدب للبحث عن عشبة خاصة تعطي الصمغ كثافته ولزاقته، ثم نستخرج منها مداداً رائعاً يجعل القلم لا ينقطع عن الكتابة، ينزلق انزلاقاً على خشب اللوحة القرآنية يحثث عليها بصريف مستعجل، متداوم الوتيرة، لا يكمل ولا يمل، يتزحلق ويفتح أبواب الغيب والسموات والأرض (نون والقلم وما يسطرون. نعم يا سيدي... نون... نون... عاود يا حمار. عم اسيدي. نون - نون - نون والقلم - القلم - القلم وما - يسطرون - يسطرون -) ورغم أنني كنت أكره الكتاب ورائحة المؤدب الكريهة ونكهة الزملاء الصائمين جوعاً؛ وأكره بالأخص ذلك الشارع الذي يببت فيه كتاب سيدي عقبة، فمنه تتضوع رائحة الثياب المغسولة والمرقاز المشوي على نار الفحم وهو حسب أمي ينجز من لحم ومصران القطط، (قد أكل منه إلى حد التخمة لكي أتمص روح القطط فلا أموت أبداً، وعمتي فاطمة لا تكف عن التكرار بأن القطط محبوبة من قبل النبي محمد، وأن لها سبع

أرواح) وفي الشارع هذا حمام يدور فوق سطحه حمار معصب العينين، يدور دورانياً أبدياً حول البئر. وكان الحمار غير (أو لعله جمل؟) مكترث للأمر على ما يبدو، ولما كانت الأحمره (أو الجمال) لا دين لها ولا ملة، تعود تلاميذ الكتاب أن يرحموا بالحجارة وكنت أشاركهم عملتهم الشنعاء هذه وأشارك في هذه اللعبة المقيطة، لا إرادة مني في تعذيب الحيوان المسكين وإنما لاجتذاب اعجاب أصدقائي وجلهم من الفقراء، فلا يضربون على حصار مقاطعتهم وأنا ابن رجل غني ثري، وأحدس عن غريزة بأن الأولاد يكرهون الأغنياء ولا أفهم سبب ذلك فأعمل جاهداً على ارضائهم وارضاء ذلك المؤدب الفقير، القدر، المسلول. (عم اسيدي... ) إذ كان يشك مني تديني ونزاهة شعوري الديني وذلك لأنه كان - والمدينة كلها - يعلم الكثير عن خلاعة أخي الأكبر عبدالله وعن وجود يهودية من بين عشيقات الوالد... وأهم ما يهم الصبيان في الكتاب وهمهم المشترك هو النعاس. كانوا يتفننون في سبيل هذا الهدف الاسمي. فالقصة تتمثل في الرقاد بدون أن يتوقف الجسم في الحركة السرمدية (أماماً وخلفاً، يمنة ويسرة) المعتاد عليها في مثل هذه المدارس القرآنية. ولكن بمجرد أن نتوقف عن التلاوة... (باسم الله الرحمان الرحيم عم يتساءلون...) تتحرك عصا المؤدب الطويلة ذات الرأس النفاث وتخرق الهواء خرقاً وتضرب الأجسام ضرباً مبرحاً... يفتح قلم القصب أبواب الغيب والسماوات



والأرض من خلال الخريشة والعريسة التي تحزها الحروف  
هي مادة الخشب، وكأنها (الحروف، الكلمات،  
السورات...) تسيل من الصمغ نفسه أو من ذبابة القلم،  
فتشبن الأشياء والأمور والحالات والوقائع والحوادث  
والطوارئ والتواريخ والأسماء والأرقام والشوادن  
والمصائب والحادثات والطارئات والأخبار والأزرار، كأنها  
تتراءى من خلال الحروف الشفافة، فندونها داخل مدونة  
ذهبية تفيض فيضاناً. فندخل بين طياتها ونغوص في أساطير  
سيدنا نوح وخرافة (أرام ذات العماد لم يوجد مثلها في  
البلاد... عم ايسيدي... لم يوجد مثلها في البلاد...)  
ونعترف التاريخ اغترافاً. فنمزج بين الواقع والخيال، بين  
الأسطوري والتاريخي بين الخرافي والواقعي، بين الأزمنة  
والأمكنة... فأكتب إذن وهي في قفائي تنظر إلى اليد وقد  
أصبحت عبارة عن كماشة آلية تسيل سيلاناً وتتحرك على  
وتيرة لا تنضب ولا تتوقف يربطها ذلك السلك الناقل بما  
يدور في الذهن من أمور وأشياء تتخمر وتتعتن وتتمرث  
أيضاً.

... والسيلان لا حد له، يبدع المجاري بنفسه ويحفر  
القنوات بذاته ويضبط هذا المنسوب الهائل، الجارف إلى  
حد أنها (ماريا) أصبحت قشة تتلاطمها الزوايع. فيأخذها  
الدوران من فرط بشاعة ما أقص عليها من الحكايات القذرة  
التي اكتظت بها حياتي، يفلت منها الخيط وأشعر، في  
بعض الأيام، أنها على أهبة الرجوع إلى زوجها وقد تعند

وتعنت وقرر نهائياً أنها سوف تعود إليه بعد أن تستهلك إلى حد الميوعة والغثيان هذه الشطحة العاطفية أو الفلته الجنسية أو العشقة الصيبانية. تكاد، إذن تفقد وعيها لا تفهم شيئاً مرة وتستبقيني في استقطاب الأحداث مرة أخرى، ولكن كثيراً ما رأيتها تحمق بعينيها الرائعتين وتتفحص مسامي وكأن الفضاء أمامها قد انهدر أو تقلب إلى متاهة ضخمة مكتظة بالرموز (المجون والعريضة والنفاق والبهتان) والاشارات والعلامات والتخمات والشواخص بتعرجاتها وطياتها وشريحاتها وكأنها تنفلت وتتراكض من خلال شبكة دقيقة تشكلها الخطوط المتقاطعة والكسور المتصلة والفلق المتتابعة والسهام المتبرجة والرسوم المتكسرة وكلها أخذت طريقها الخاصة وكأنها مستغنية عن الأخرى، مستقلة تمام الاستقلال (ما هو الخيط الرابط بين ممارسة العشق مع قمر وأنا لا زلت صيباً وعلاقتي بماريا مثلاً؟) رغم وجودها داخل بوتقة عامة من الرموز الاجتماعية تعكس حق الانعكاس تفجر البنيات التقليدية المتواجدة داخل الكيان العام إلى أن يصل بها الأمر - أخيراً - إلى أن تضع على هذا المجتمع المعنوي والإحساسي اسماً: الأزمة. وكثيراً ما كنت أخاف من نطقها بهذه الكلمة، وأحاول التخلص منها لأنها تدخل في ذهني شظايا من القصة العائلية العامة ومن تاريخي العائلي الحاضر، أي ذلك التاريخ الذي أقرأه بمنظوري أنا، دون أفراد العائلة الآخرين الذين كثيراً ما يحاولون تلطيف المآسي التي عشناها سوياً بل وتذويبها

نهائياً مطالبين مني بتركها تتفسخ، بمرور الزمن عليها وتراكم التفاهات والنزهات من فوقها، فأنساها هكذا ويعيش كل واحد منا (. . . اخواني، أبناء عمومتي، أعمامي الخ) عيشاً رغيداً، وأتساءل آنذاك وأدور أرقام الهاتف على أثقابها فأهتف إلى شمس الدين أحد أبناء عمي المقربين إلي، فأقول له: من تسبب في مقتل العمّة فاطمة؟ . . . كانت (العمّة فاطمة) تخاف من السلحفاة. أتذكرها بنابها الفريد اليتيم المجنزر، تخرجه وتضعه على شفتها السفلى فتتوقف قلوبنا عن النبض وتكاد تميمع داخل قفصها العظمي، كلما قمنا بعملية تلويث الدار أو الحديقة أو استعملنا تصرفات لا تدرج في قانون اللياقة الخاص بها. كانت كثيراً ما تتصدى لنا من أجل أختي سالمة ننتزع لها بالقوة فاكهة أو فاكية وهي سالمة - المفضلة عندها (وكذلك فؤاد) تحظوها بامتيازات كبيرة لاحق لنا فيها ولا بها، وتعاملها بحنان رهيب، تغير عليها وهي أصغر أطفال أمي سنّاً، كانت لا تزال جنيناً ينمو في أحشاء أمي عندما سافر أبي إلى مدينة عنابة ورجع بعروس فائقة الجمال، لم يأتها الطمث بعد: قمر. تغير عليها رغم وجهها المخيف وسنها الطوفاني، لكنها لا تشفق علينا كلما باغتتنا فتأخذ في ضربنا وقرصنا وخذشنا، مرددة: «احوجي! احوجي! حبتو تتعنبو قبل ما تتزبو» فيأخذنا الضحك بنوبته العصبية عند استماع هذه العبارات الفاحشة في فم عجوز عانس، لا تعرف من أمور الجنس شيئاً ولم تخرج ولو مرة واحدة من

المنزل منذ أتى بها أبي من القرية لتساعد في الأشغال المنزلية وقد تجاوزت الخمسين آنذاك فراحت تركض طيلة نهارها، تدلك كل ما يعترض طريقها من أشياء وأشخاص (الأطفال) بفرشاة حديدية... لا تخاف الله ولا العباد باستثناء السلحفاة... وسالمة. عندها تقول ماريا إنها لا تفهم كيفية الربط بين الخطوط العريضة لما أرويه عليها والجزئيات والتفاصيل التي اتفنن في تكديسها. ماريا: لترك هذا الموضوع الشائك! لم تتحرك ولم يحرك لها ساكن ومكثت متمسرة على مصرع باب الحجرة الصغيرة حيث أسكن عندما أعود إلى الضيعة. لم تتحرك ورغم الغمة القاطنة، حدثت أنها كانت ترتدي فستانها الحريري الخوخي اللون. تحركت أغصان التوتة بعنف لأن الريح الشمالية بدأت تهب فجأة. زقزق فرخ صغير. رفعت رأسي نحو زاوية السطح المقابلة فوجدتها مفروشة بأرياش العصافير التي أخذت مكانها العادي، كالمشكاة المصطفة تصفيفاً رائعاً.

ماريا، لماذا أتيت؟ من ذلك على المكان؟ شمس الدين، بالطبع يا عيني... لا أعرف سواه... لا من أفراد عائلتك ولا من أصدقائك... أتخجل من هذه العلاقة...؟ امرأة متزوجة... جئت لمطاردة الهواجس والأشباح... جئت لأستمع إلى نحنحة العمه فاطمة ووطأة أقدامها المتعرجة المتثاقلة... عقدة الأمومة، إن شئت! كنت أظن أن التوتة أضخم بكثير مما... الولوع بالكذب... ما عlish.

بذهاب الوهم والهواس كان النور ينزل علينا بارداً جليدياً، رغم ما في الوضع من حالة صيفية وتفتت وفوضى كانا يتفاقمان بتكاثر الصور المكدسة في كل أنحاء وكل أرجاء الغرفة المتوسطة الشكل والحجم. لزمن الهدوء التام وماريا كعادتها تدخن السيجارة الواحدة تلو الأخرى وتعتذر كل مرة. كانت مستلقية على فراشي وأنا جالس بالقرب من رأسها. تأخذ بيدي وتدعكها بلطف (ماذا ستقول أمك؟ أعلم أنها تعاطف وزوجتك... أنا آسفة... لم أقدر على الصبر أكثر... شغفي كبير بالتعرف إلى هذا المكان بما فيه من أنس وجن وجدران وأشجار (تضحك) وأشباح (تستهزئ). تدعك يدي وكأنها تجس نبض شرياني الأوسط، فلا تبقي على بشرتي آثار بعض العطور الرقيقة الشذا فقط، وإنما، كذلك، تخلف عليها برودة عذبة، كنت بعد يوم كامل من الكتابة والتحميض في حاجة إليها، رغم نبرات الاستهزاء الممزوجة بشيء من العذوبة، البارزة في كلام ماريا. قالت دعني أهتم بك وبهواجسك... أجد فيها بعض المتعة... قلت متعة الأطفال وهم يستمعون إلى خرافة رأس الغول، إلى قصة الجاحظ: الذبابة والقاضي (هزلة الذال ووقار الضاد) تلك؟ قالت الحساسية الزائدة لا تحل الأمور. كان صوتها يتبدل، يتلامع، يأتي ويروح مثل البرق الخافت. أولجتها فجأة بدون أن أزيل سروالها عنها. ظلت رابضة بدون حراك. جاءتها المتعة من أبعد النقاط وأعمقها. عرفت ذلك بما تدفق من فرجها من ماء خائر. وعندها سمعت نحنحة العمة فاطمة، فارتيمت على الحائط.

أتمسك بالحائط. أقترب وأبتعد. تهوي عليّ. تتخالط الأعضاء. «كوابيس صبيانية... كنت تحبها كثيراً... دام احتضارها طويلاً وجسمها مقسوماً إلى شطرين تحت عربة الترامواي وهي لم تزل حية، تتخبط وتعول. طبيعي... مشهد رهيب... دماء وأمعاء ودمع وخرخشة الموت في حلقها بلا نهاية. كوابيس الطفولة...» وتهوي عليّ وتلثمني، تختلط الأعضاء ونروح ونجىء وارتعد خوفاً وترتعش برداً (النافذة مفتوحة والتوتة فعلت فعلتها وزجت بأغصانها وكأنها تريد وقايتها من برودة الليل الهضابية). وترتعد وأرتعش منخطفاً، منهوشاً، مرضوضاً، معضوضاً. أذناي تتصوع بنحنحة العمة فاطمة، بوقع أقدامها المتعرجة، المتباطئة على بلاط الأرضية الزليجي، يقرع أقدام العم جلول الخشبية على بلاط الزقاق الفاصل بين مخزنه ومخزن أبي. أنطح الحبال حيث الأفلام السلية ممسوكة، متوازية، متتابعة، براقه، لزقة، يتزايد لمعانها وسط العتمة الحالكة ما عدا شفافية بعض الأغصان التي زج بها الريح داخل

الغرفة، واقعة هكذا رخوة نثة على أوراق المتبعثرة فوق المكتب حيث البطاقات البريدية القديمة البالية والصور المحمضة الجديدة البراقة الملونة. أنقص وأراها كذلك تفعل تنقص بدورها. أين جراتها؟ جاءت من بعيد وقطعت قرابة ألف كيلومتر من العاصمة إلى هذه الدار الرائية المسكونة، رغم الحر والقيظ والصيف في عز أوجه. أفخلت ضاحكة بصوت خافت لأنها تعلم أن أمي متناومة في غرفتها وأبي محتضر على فراشه وضرة أمي اليهودية متماوتة تعاني من سرطان الحلق وقد فقدت صوتها منذ سنوات بعد عملية بتر الأعضاء الصوتية بأكملها. تبسم بلطف لكن الارتجاج انقبع داخل أحشائها والارتباك سطا عليها. داخلها الشك. نقر الخوف نخاعها الشوكي. لم تعد تفهقه مثلما فعلت عندما قرأت لها رسالة العم اسماعيل فيما يتصل بدفن الزوجة اليهودية. قالت: أهاجيس موظف متقاعد وأهوس... أرى عينيها وقد تضخم بؤبؤهما المزورق وقد جمدت كل مسامها ما عدا العينان. تأخذ بيدي برفق. تطرحني على الفراش ومن جديد تمتطي وركي... تسوقني، تخضني كالمشكاة، تعصرنني اعتصاراً وتعصراً وتعصاراً وكأنها تريد بعملياتها هذه وحركتها تقليص الخوف المكتوم في جسدي وفي جسدها. سرت العدوى. سقتني ريقها وامتلاً فمي من ظلمها فتضرست أسناني وما يحيط بها من لثة هشة وطرية مثلما كان يوم كنا على أغصان التوتة نأكل أوراقها فتضرس لثة أفواهنا فيما

العمة فاطمة تزمجر وتهدد وتغتاظ اغتياظاً دونما جدوى، فتظهر مبعدة الوجه والجسم من خلال الزاوية التي نرشق من خلالها النظرة، زاوية شمس الغروب الراكدة التي رعت ذلك الكون ثواني ودقائق وساعات وأياماً وأشهر وسنين وقرونًا... امتلاً فمي من ريقها وهي تمخضني وتقبلني منذ لحظات وتندغ بشرتي ندغاً. أحس برطوبة غامضة، ذات ملمس جلدي تملأ تجاوفي وأنا أتبرحث كالملدوغ تحت دغدغة أضافرها الطالعة الهابطة حسب خط عمودي الفقري... تفعل ذلك وتغمض عينيها وتحكي كلاماً.. كان صوتها مسموعاً في كل الأنحاء. عضضت شفتاي أحسست ملوحة الفم وسخونته. أرادت أن تقول شيئاً مفهوماً. وهيئات! كان صمتي ساخطاً يتصاعد حول عمود مطاطي يعلو ويسير ويعود ويدور معاً. دحقت. استقرت عليه. حاصرها زمن التجربة الثقيل. فهمت أن للهوس منطقته. سرت العدوى فيها. لم ترت: عريضة الوركين، مدورة العينين، مخوصرة. حاصرتها من جهتيها. لم ترت. كان جسدها مسجوداً، لَزَّت بعيداً تلك النحنحة الرهيبة. أرتوي من ظلمها قدر ما أستطيع بلهفة وذعر. كان صوتها الهادئ يملأ الانحناءات الهندسية التي سطرتهما العتمة. يصل صوتها إلي مجسماً هائلاً يحمل الأحرف واضحة وكأنها هيكل يتجلى بضاً، أصفر، مريحاً، مخففاً من اللوعة. فتحت قوسين وملأتها سكوتاً. (...). ولم تضع فيها أي نبرة ولا أية عبرة. لم تحاول تعليقات ذهنية. نهضت بغتة من



الفراش تبحث عن علبة السجائر وعن الولاة... في حاجة إلى دخان التبغ. تابعت التواء مؤخرتها العارية. تذكرت أنني لم أر قط مؤخرة امرأة كهذه.. رائعة. كدت أن انبثق من جديد في ميوعة العتمة ولولة دخان سيجارتها تتصاعد نحو العلا. سارت الغرابة فيها. توغل خوفي في أحشائها. ثم عادت إلى مكانها وكأن تدخين التبغ أدخل السكينة فيها من جديد. حثت جديدة، مستقلة، متعنتة. لمست فرجها فتراخت تدريجياً. وضعت سيجارتها على المنفضة. أخذت طفرات الدخان تلتوي مستديرة متلوية. ابتلت مقلتاها. كانتا مبلولتين كذلك. ركت مرفقها الأيمن على خاصرتي. لم توضح لي.. حاول أن تفهم! صمت عن الكلام وأصابعي تتلعثم بين طيات فرجها. أعادت سؤالها الكرة. كان سؤالها قديماً مستهلكاً، آنذاك فهمت أن لا مفر من التوتة وأغصانها. بدأت تتقلص بدويان الليل الحالِك. قبضت دون تردد أو موارد على عضوي. سحلته مني حتى مغبتها. توكأت عليه. بدأت تبحث عن حركة مناسبة. فاجأني عنفها الذي لم يبرح جسمها رغم الذعر والعدوى. شعرت بأجزائها تتمفصل منسجمة، تتحرك دون خشية أو خلل، تفرقت طاقتها الجنسية. مدت يديها إلى نقطة الالتحام. ابتعدت نحنحة العمة فاطمة. طلع الفجر. هفتت أغاني التوتة، كل شيء كان في مكانه. تبدل العالم. صار أخف، أهون، ريشياً. حضورها الجسدي والجنسي والنفسي فقع الضباب المتكاثف. انفظحت أنوثتها. انشرت

في هواء الغرفة وفضائها. تلمست جسدها طرفاً، طرفاً - فرسخاً فرسخاً. دعكت نهديها. كانت الحلمة الوردية تشق الأرض. عرفت مرة أخرى أنني أحبها ومتعلق بها كما لم أفعل ذلك أبداً مع أية أنثى أخرى. كانت الحلمة الوردية تتبرزخ. لها رائحة الملح والسكر في آن واحد. بدأت أعضاؤها تهتز في المحيط دون قيود. أخذت بسبابتي وأدخلتها في فرجها ثم أخرجتها ومصتها بتباطؤ. صارت هي التي تسير العملية. طلع النهار. تمخضت التوتة مئات العصافير. تصاعدت الزقزقة. كان الزمن يجري ثخيناً دؤوباً يحمل تراكمات الماضي، ذكريات الطفولة، مقتطفات من انفجارات جنسية هنا وهناك. يقش سطح الجسد. انزلق الضوء الصباحي على بشرتها السمحاء. بطيئاً متكسراً، لزجاً، متردداً، مبقعاً (تداخل أوراق التوتة وانعكاسها على جدران الغرفة) منقطاً، مرقشاً. صار الضوء يقترب من جسدينا لامعاً، جديداً، نظيفاً. مسح الغرفة المستطيلة من الحائط إلى الحائط. بدأت تغلي. زخم ماؤها. كوتها اللوعة والمتعة والرغبة. وضعت قضيبتي. اندثر الحليب الخاثر بين يديها. لحسته - قالت: أحبك.

كانت ماريا تستمع إلى السيلان المدفق وأنا أقص عليها ملحمة الماضي. كانت واجمة، ساكنة لا حركة فيها. كفت حتى عن التدخين. تبدد شبح العمة فاطمة وكذلك شبح العربة الكهربائية. أتذكر أن لونها أخضر. قلت لا بد أن أرد على رسالة عمي. سوف تدفن المرأة اليهودية في مقبرة

المسلمين... سوف تأتي بقاضٍ ونرتشيه. لنا كل الشهادات التي نريد. عليه أن يطمئن سأكتب له هذا وأقوم بكل الاجراءات الإدارية اللازمة. رغم أنني وعقيدتي، ما الفرق؟ كل المقابر متساوية. كلها تربة ودود وجذور وصمت. كفت حتى عن التدخين. عمك موظف متقاعد متعود على ضبط الأمور والأرقام (تعبت من النسخ. كتب مرة إلي، يشكو من الكوابيس الإدارية وتكرار نفس الكلمات والأعداد على الدفاتر...). كتب عمي (كرهت تكرار الأعداد على دفتر المحاسبة في المصلحة: تعبت من النسخ والنسخ. والتحليل التركيبي لا زال يبهرني. ولا زال المطر شحيحاً. للمرة المائة نفس المقولات تدور في ذهني. الحكومة لا تحب الاحصائيات الصريحة.. رأسي يؤلمني. مثل زارزأة على شفرة موسى. عناصر الواقع المصبون. أدركها بالارتداد إلى الوراء ولا أوعر من الإحصاء.. الاحصائيات لا ترحم... وهذا اختصاصي... ما العمل يا بن أخي؟ التواءات ووشم. أذى! أتذكر وشم عمك؟ المرحومة!) كان يتقن الكتابة ويحفظ القصائد والقرآن. كان متمكناً من أسلوبه.. لكن هوسه: الاحصائيات. والآن: ها هو ذا يرحمني بهوس آخر. مصير جثة الضرة اليهودية ومشكل دفنها، يكتب (: حرام أن تدفن هذه المسكينة في مقبرة اليهود وهي كما تعلم مهملة منذ الاستقلال. لقد تفقدتها خصيصاً. رايبة، خريبة... في إمكانك أن تتلافى الأمر والفضيحة...

أعمل معروفاً بالنسبة لابن المسكينة أخيك فريد ولابتها: أختك جليلة... ) وأنا أيضاً تعبت من النسخ والتحميض والهذيان. كانت ماريا تستمع إلى السيلان المتدفق، أشهر رسالة العم أو ما يبقى منها من القطع بعد أن مزقتها ثم ألصقت أطرافها فندمت على ما فعلت. ثم أسكت برهة. انطباعات تلتهمني: مساحات جليدية (بطاقة بريدية لصحراء غوبية).

### «غوبية»

1932 - 12 - 19

### «حسان»

أريج الخميرة المحمضة. انعطافات عائمة. نعيق حروف (الكتاب) بكماء تتساقط في جمجمتي ثلجاً رخوياً. تنمل يتموج. حزوز. خطوط. شقوق. قبات. هياكل هندسية. آفاق شقولية البنية (مدن؟) بقايا جمل مصبوغة زعفراناً. بقايا - أحلام مفتتة. ابلاعات غثيانية. تجشؤات لعابية. تصلبات قلبية. تعقدات بنفسجية. انقاعات خميرية. تركيزات ملتفة. تراكبات متراكمة. تحزرات مخروطة (تصفيفة الجدة؟) لكن: حول رأسي تنعقد خيوط دبقة يكونها ذلك المخاط الذي يستخدمه الحلزون لسد الحفر التي يعيش فيها بأناة وتؤدة، صيفاً شتاءً. وفي دماغي: أصوات غريبة، مثل فتران تجرش (والنحنة الرهيبة؟)... يتهالك الليل من جديد. فكرت أن المطر الذي انحسر في النهار سيتساقط

لها المساء. إنه أمر مألوف في الصيف الهضابي، ولكنه لم يسقط منذ وصولي مرة وقد مرت على إقامتي أسابيع هديدة.

... كانت ماريا تستمع إلى السيلان المتدفق وأنا أقص عليها ملحمة الماضي. كانت واجمة، ساكنة، كفت حتى عن التدخين وكانت سيجارتها قد احترقت فلم يبق منها إلا مصفاتها الصفراء. لم أترك لها في سردي ولو شطاطاً واحداً فريداً من نوعه تغتنمه فرصة للرجوع إلى هوسي بالنسبة إلى نحنحة العمة فاطمة ومشيتها المتثاقلة بعض الشيء وقرع أقدام العم جلول الخشبية، فالقيت جانباً كل عنجھية وكل تمرد وكل تهجم، وكأنها باصغائها هذا كانت تود مساعدتي على تنسيق الأحداث من جديد وربط أجزاءها بعضها ببعض تقول: بسيطة مشكلة العشيقة اليهودية... دعني أدبر نفسي... ندبر رأسي... عندي معارف ومداخلات عند أحد القضاة... تسعى لربط الأحداث بسلك الذاكرة الرھيف والخصب في آن واحد: (نهرع من خلال شجر الصبار وشجر القطلب وقد صعقتها الشمس بشعاعها الطاحن، فنلهث لملاحقة الأشباح والأساطير. نجد القرى متفرقة ومهشمة. ركام من التراب والحجارة. نساءل عن الأموات وعن المستقبل ونشحن أذهاننا بالتوافق الرياضية وقوانين السلاسل الحتمية والصدف المنسوجة بقطيفة السببية، نشك في قضيتنا وفي أنفسنا وحتى في مشكاك العصافير (عصافير التوتة وأفراخها التي لا تمل ولا

تتوقف عن الحركة) وكأنها تتجسس علينا وقد فتحت بين  
الفجوة والفجوة كتابات موسيقية. تفجر المصير وقد أصبح  
يغامر فيه بتصفية الحسابات وعنجهية بعض قادة المناطق.  
نمل، نضجر، نمشي. لهم دينهم ولنا ديننا والعدو واحد.  
نسأم ونقلق ثم سرعان ما نبرز من عدم الشجر والزيتون  
والطين والثلج ونطلق الرصاص. تقهقه رشاشاتنا. ثم يعم  
الصمت. يموت العدو باهتاً. ننهرع ثانية. نهرع ثالثة.  
نبرول مرة أخرى. كذلك نضرب في الصميم ونزحف زحفاً  
لا نهاية له ولا مدى له ولا أفق ثم تعاد الكرة. نمشي  
ونمشي وتنسلق الطرق الجبلية الرجاجة فيسترجف الجو كأنه  
شبكة من حبال تفتقر إلى بعض الوضوح. مريم (مرياً؟)  
تصغي. تصغي ولا تقاطعني. نتسلق الصعاد على وتيرة  
حشرات المغافير المتبعثرة المتوزعة بيننا وبين الظل حيث  
ينام هؤلاء الذين يريدون إبادتنا، وهم منهمكون في قيلولة  
حامضة لزقة تلتصق بهم الكوابيس المعشوشبة ومن حين إلى  
آخر يعبر جفوننا نوم خفيف فنسقط في فح المنامات  
المتشوكة مثل حبات التين الهندية، وإذا استيقظنا وجدنا  
أنفسنا وسط المجلزر نتخبط في دماء الرفقاء. ننتقل فجأة  
ونلهث في ظل المقابر حيث ندفن من سقط منا وبين أيدينا  
ونطلق الرصاص ونرش بالعدو رشاً ونترك جروحنا الحية  
المتفتحة تغطيها الندبات العميقة ولا يبقى لنا إلا شق ضيق  
نملأه احتضاراً ونحشوه نزعاً ونعمره كرباً وكرزاً، فتنحول  
آنذاك كل الثلثات الدقيقة إلى هاويات لا قعر لها جنونية

المنطق والمنطلق تبرق داخل أذهاننا بوميض مستميت، لا هدنة فيه ولا هواده. وهكذا نرحف ونجري ونهرع وأمواتنا يتعمدون الزمن والفضاء بفضل زهرة الخشخاش والجير الحي فيزيل كل الروائح وكل الآثار وقد هاج الصيف غليانه. وتتعاقب الأيام وتختلط علينا الليالي، لا نعرف كيف نفرق بين الشفق والشبق وبين الغسق والشبق إلى حد أننا صرنا نتجاهل الدروب اليسيرة التي امتطأها أسلافنا في غابر الأزمنة وهم يحاربون الغزاة ويخسرون الحرب تلو الحرب فيصطدمون بواقع الخيبة والهزيمة ويضعون ظهورهم على جدران الشبهات والحلول الوسطى والخيانات فيتجرأ الأجنبي ويتصندد وهو لا يهدف إلا إلى إبادة السلالة وسحق الأصيل والأصل، فكان علينا أن نفتح أسلاكاً جديدة ونتحايل مع الواقع ومع الخرائط الجغرافية ولم يتركوا - الأسلاف - شيئاً يساعدنا على تحقيق إرادتهم وأمنيتهم فلا ثمة ارائة ولا مسير. أيصينا اعتلال الذاكرة؟ بلى. الانتفاضات والعمليات مرقوشة وموشومة على عضلاتنا. غير كافية؟ أين مصيرنا؟ نأخذ البوصلة في الفيافي وننسى رائحة البحر. فلا نوتي سبقنا ولا قارىء نجوم. نقاتل جنباً إلى جنب. هم يقاتلون من أجل الدين. ونحن من أجل القضية. لا فرق بيننا قط. يأتي علي بو طالب - أهد الرفاق - لتصليح الآلات. آلات الارسال والاستقبال ثم يبتلعه الليل ونسمع بعد أيام قلائل المذيع يعترف بأنه وضع قبلة أخرى في أحد المقاهي في العاصمة

أو ملاحيتها. نتعاقق. نهتف باسمه. اضرب خمسة بو علي.  
حمش النار يابو علي... لكن من حين إلى آخر تنشب  
الحزازات والغيريات. نتركها فنقول: الجهاد واجب والتاريخ  
سوف يحاسبنا فيما بعد. وبين وقفة ووقفة نقرأ بعض  
الكتب النظرية أو بعض الدواوين الشعرية أو بعض  
المجلات السياسية ويحقد علينا بعض الإخوان ويبقى  
الفلاح الامي يحذرنا. نقول العلم لا يكفي، يقولون إنه  
يكفي. أتحسبونه خرفة؟ لا. رمز فقط! يقولون: قلنا أنه  
يكفي. يذربون أمواسهم وسكاكينهم ببطء ويسترقون النظرة.  
نحن منكم. صمت. سكوت. العلم لا يكفي... رمز!  
لأنه مجرد رمز للعبور إلى مناطق أخرى. يتهموننا بالجنون  
والإلحاد والخيانة. نقول: بنس الاسم الفسوق بعد  
الإيمان. لا يفهمون. كيف الكفارة؟ ثم نهرع من جديد  
ويلحم البارود بين شراييننا نسيج الأخوة. نقول لعله اعتلال  
الذاكرة؟ نرتبك، يدخلنا الشك ويخال إلى بعض رفاقنا أن  
الظل يلعب لهم أدواراً غريبة. يقول الواحد إنه فقد ظله  
والزوال أظن ذيله وتسري العدوى. يقول آخر إنَّ ظله قد  
تجلد وتثلج من فرط الصقيع. ويجن آخر فيدعي أن ظله  
تمزق ويتركنا نبحت عن خيط لترقيعه، قلنا له إن الظل ليس  
جوارب. يزيد في تعنده، في تعنته. نتركه عند الفلاحين  
المسبلين ونهرع نطارد العدو والخونة. في أول الأمر كنا  
نخشى الكلاب والايمة والقياد. ذبحنا الكلاب وأكلنا  
لحمها. ذبحنا الائمة في قعر مساجدهم وألقينا جثثهم في



الجب. ذبحنا القياد وبعثنا بأنوفهم إلى عائلاتهم. استقر الوضع. الثورة مشكاة وكبة من خيوط الدم الثخنة. وإذا نجا من بين أيدينا خائن، نبعث بالإشارة إلى بو علي طالب ورفاقه. ينفذون فيه الحكم بالإعدام في أية مدينة من المدن، كبرى كانت أم صغرى. وبعد المعارك والمجازر، نختفي وراء شجيرات العرعار نترقب زوال الروائح الكريهة ونغفو في غيبوبة زمنية وخمول آني، ريثما تبرى أرجلنا المهشمة بتخاريمها الشرسة العفنة تحرق البشرة وتملاً أخمص القدمين صداً وقيحا أو ماءً مشبوهاً فيه).

وتبقى ماريا صامدة صاغية، ناصية، تسمع، لا تنبس بينت شفة ويخال إلي وأنا أتكلم أنها تشاهد شريطاً مصوراً يدور في رأسها حيث رفعت خيالة كاملة بشاشتها البيضاء وموسيقاها الحجرية. نسيت تلك العادة الكريهة - بقطع النظر عن الادمان على شرب السجائر - التي كانت تحدو بها إلى البحث دوماً عن شيء ما داخل حقيبتها اليدوية (علبة السجائر الملعونة، الولاعة، علبة الفطاط، الدبايس، المساسيك، الأقراص ضد الصداع وضد الحمل)، وتبقى هكذا تنتظر وتتنظر إلي وأنا أسرد لها وقائع السنوات السبع، تلك الفترة من حياتي، لا أريد فيها لا مغالاة ولا مزايدات ولا فخفخة: صور مشكوك فيها ومناظر عامة (هل تعودت على تجميع الصور والتقاط المناظر وتحميمها بنفسي أثناء تلك الحرب الضروس؟) ... أظن في بعض الأحيان أنه مجرد هذيان. لا أصدق وهي لا تعارض البتة وقد اعتادت

على مقاطعتي عدة مرات فتطرح الأسئلة الوعرة، المكتظة بالحيلة وسوء النية والازدراء. لكن هذه المرة، سرت العدوى... توغل فيها مناخ الدار العام الرهيب... ولعلها سمعت هي بدورها نحنحة العمّة فاطمة وكركرة أقدامها المتعرجة البطيئة المتباطئة. هي كذلك.

كان أبي شيخاً فانياً يترقب الموت بهدوء وسكينة رائعين، لا يعرف للندم وجهاً ولا لوخز الضمير معنى، كان شيخاً هرمًا فانياً، لكنما يبدو الندم عليه من صوته الضئيل الذي لم يحطمه الريب ومن يديه اللتين لم تشكا ثانية في حقيقة تلك الأشياء التي تحدثت عنها معظم الكتب المنزلة. كان على هذه الحال لما دخلت عليه ماريا، وقد ظنها زوجتي لشدة ما تقلص بصره، فالتزمت بهذا الالتباس فلا أتعب الشيخ بالشرح والتفسير والتفصيل والاستدلال. فهمت لتوه أنه من سلالة أولئك الذين يأتون من العالم الذي لا يستطيع فيه البشر أن يناموا أو يتذكروا. هكذا فسرت ارسال البطاقات البريدية التي شخصت بيان جولاته وتنقلاته عبر العالم.

«صحراء غوبية»

12 - 12 - 1932

«حسان»

وجدته ماريا متكئاً على وسادة فراشه، مستلقياً على فراش غرفته يوهي وجهه بلشام أسود مرقع، وهو يقرأ

بواسطة عدسة مكبرة نسخة قديمة من تاريخ الفراعنة. سلم عليها مغالياً في ابداء ضروب الصداقة وهو يثن ويشكو من التهاب عصبي مزمن يصدع صدغه (فشل الأطباء في معالجته وفكرت أنا أن الأمر لعله متعلق برواسب السفلس الذي مني به في أحد مواخير هانوي ولكنني لم أصرح بذلك لأحد من الأطباء أو أفراد العائلة أو الأصدقاء)؛ لأنه تخيل أول الأمر أنها زوجتي، ثم إنها إحدى النساء اللاتي عرفها في زمان مضى ولا يستطيع الآن تذكره. لكن الزائرة أدركت اللعبة (وهو لا يفتأ يقلبها ويشخص فيها من خلال مكبرته، خلسة وببراعة كبرى، على أن كل هذه التصرفات لم تخف علينا) وأحست ماريا أنها باتت مشبوه فيها وما كان ذلك تزمناً ولا كراهية، وإنما نتيجة نفاق الشيخ الذي فهم كل شيء للوهلة الأولى وتعمد التجاهل لا لشيء سوى مقطها وإهانتها لأنه رغم مرضه الخطير وقرب انتهاء أجله، احتفظ بعنجهيته الأسطورية وكبريائه اللامحدود ولم يغير الوهن والاحتضار من طبعه هذا شيئاً. وامتلاتا عينا ماريا دموعاً وخجلت من تفاهة إرادتها الصبيانية في التعرف عليه منذ أن تعرفت بها وقصصت عليها حكاية الأب المستحيل الذي علق على الجدار المقابل لفراشه وفي مكانة مرموقة، صورة شمسية تمثله وهو شاب في عنفوان شبابه وأوج سلطته. ويرجع عهد تلك الصورة المعدنية المؤكسدة التي يرى فيها حسان الجزائري بشعره الكث الأسود وطوقه المضحك المغلق بزّر نحاسي وهيئته الوقورة المرعبة كأنه

على ما وصفته به العمه فاطمة عندما كان يطول غيابه، فتجمع الأطفال حولها تصف لهم قسما ت وجه أبيهم وهندامه وقامته ووقاره وجماله وغطرسته وعبقريته... والحق أن حسان الجزائري (أي أبي) كان خائفاً ذلك الصباح الشفاف من شهر جويلية 1983، خائفاً من ردود فعل هذه المرأة الشابة وهي تنظر إلى الصورة تارة وإليه طوراً، لأنه كان يظن أنها قادرة بعينيها الرائعتين الكبيرتين بشكل غير عادي، على محو الرسوم والألوان التي تكون صورته وهو يتعربد في مواخير هانوي وسايقون.

### «سايقون»

12 - 12 - 1946

### «حسان»

حيث أهدته إحدى المومسات مرض السفلس وقد تبقى له منه شيء - حسبما أظن - رغم المعالجة السريعة لهذه العلة وقد اكتشفت مبكراً من قبل طبيبه الخاص. وأغرب ما في الأمر أن ماريا هي التي انتزعت منه هذا الخوف وهذه الفكرة الدالة على الوهن الذهني الذي أصاب الشيخ بقطع النظر عن انتشار جسمه وأعضائه وأغلب الخدمات العضوية. كان لا يسمع له صوت. وعندما توقفت ماريا عن النظر إلى الصورة الجدارية تشخص فيها محاولاً التعرف إلى موقفها منه، أو بالأحرى، مترقباً منها أن تهنته على جماله السابق وفتوته وفحولته. وفجأة تدخل أمي إلى

الغرفة فيتفاعل النعاس . ونخرج بصحبتها هي (أمي التي ما سمحت قط بتصويرها لأنها) حسبما رددت العمه فاطمة طيلة سنوات وإلى يوم الحادث الذي ماتت ضحيته تحت عربة الترامواي الكهربائية) كانت ترفض ولا تريد أن تبقى وتظل إلى ما لا نهاية أضحوكة أولادها وأقاربها وصديقاتها وخادماتها. لكنها كانت كلما جاء المصور وهو قصير القامة، هزيل الجسم، متقدم في السن، يحمل آتة المفككة المتقاطعة أجزاؤها في سلة لكثرة اهتمامه بها وتنظيفها وتشحيمها وفحص دواليبها، حتى إذا ما وصل إلى الدار ودخل البستان، ركبها في أقل من لحظة، من لمحة بصر... أما عن نتائج عمله وعن الصور، فقد كانت - في أغلب الأحيان - رديئة، مهتزة، مضيبة، ولا غرو فقد أكل الدهر عليها وعلى الآلة وشرب وكذلك على صاحبها الشيخ المتعنت المتشبت بالتقنيات القديمة، العتيقة، إلا أن هذا لم يمنع المصور الهرم من اتقان طرق المماثلة والتميع، واختلاس أثمان باهظة، مرتفعة، من أمي المسكينة، فيغشها ويحتال عليها من حيث لا تدري. خاصة وأن الأطفال كلهم يمارسون - بمساعدة العمه فاطمة - مساومات رهيبه إذا ما... تغتنم أمي أيام الأعياد والاحتفالات الدينية لإحاطة المصور علماً بأنها في حاجة إلى خدماته، فيأتي هذا الماكر برفقة صبي هزيل رافعاً فوق رأسه لوحة كبيرة رسمت عليها رسوم اسطوانية تمثل الفردوس بغاباته ورياضه وجناته الفاتنة وأنهاره الجارية وحورياته المتعرية وقد خط

اسم الله بخط كوفي جميل، مزخرف، متعربس، كما أن اللوحة كانت تحمل شمساً قديمة متسريلة تبدو وكأنها تسيل سيلاناً من فرط ما كان القماش قديماً رثاً؛ وما أن يصل حتى يتهافت الأطفال عليه تهافتاً، فيضمهم جماعات متوازية ويجعل اللوحة من خلفهم قائمة في مواجهة جدار - المس - امرد تزحف عليه بعض الغظايات تعب الشمس عباً، ويأخذ في التقاط الصور الواحدة تلو الأخرى... كان داهية إذ اعتاد على تأبط صندوق محشو ملابس لما أحيط به علماً بولوع الأولاد بالتقنع والتنكر في أزياء غريبة الأشكال، مختلفة العهود، فيصبح هذا الطفل مملوكاً من ممالك الباب العالي في عهد الحكم العثماني: يبدو مشهراً شارباً كثيفاً مقوساً وخنجرأ مهلولاً من الورق وعلماً أخضر زخرف عليه اسم الله، والآخر يتقمص بزي أحد المظليين المفهد القماش، بارزاً في منظر مخيف وشكل سفاك، مغال فيه؛ وذلك يتنكر في لباس «شارلو» حاملاً عكازه المشهور وقبعته العريضة؛ وهذا الآخر يختار مظهر المهرج وقد بدا مشطب الوجه بشطبات حمراء رسمها عليه هذا المصور الشيطان مستعيناً بأصبع من حمرة الشفاه يستعيه من العمه فاطمة التي تصبح هكذا شريكته في هذه العملية، ولا يعيل صبره، يسهر على مداعبة من هم أصغر سناً وملاطفتهم وما أن يكفوا عن التحرك حتى يضغط على الزر، فتتن الآلة القديمة أنيناً حزيناً وقد قيل عنها إنها يعود عهداً إلى القرون الوسطى، أي قبل أن يخترع نيسيفور آلة التصوير

الأولى، بما لا يقاس. وإذا بأخوتي وأبناء عمي وكل أطفال العائلة بما فيهم أنا وسالمة وعبدالله وشمس الدين وهيرهم، يجمدون ويفقدون نهائياً نوبات الضحك المسترسلة وروح الفكاهة المتسارية في أعينهم الصببانية، العفيفة، لا لشيء الا لأنهم فهموا في هذه اللحظة بالضبط أنهم سيقون هكذا مسمرين، مطبوعين على هذا الورق البراق وإلى الأبد. مثلهم مثل الجماد وجلمود الصخر، بلباسهم المضحك ووضعيتهم الهزيلة المثيرة وسط هذا الديكور الفردوسي الرث بغاباته وحورياته المتعرية العاريات السمينات الممدودات على أقدامهم متوسلات، وإذا بهم، وهم على هذه الحالة (الأطفال) يشعرون بالقلق يغمرهم إذ تسرب إلى صدورهم حصرة مضطربة وقد فهموا فطرياً أنهم منذ الآن فصاعداً سيكون هناك صنو لهم أو شبح أو مرادف طبع على قطعة من الورق المقوى البراق يتبادله أقرباؤهم وأصدقاؤهم ويمررونه من يد إلى يد، قائلين فيما بينهم مقهقهين: يا له من بهلوان. وهذه الملابس المطرزة البراقة الفضفاضة من أين له ذلك يا ترى؟ أنه لمجنون حقاً فليبق على هذه الحال... ثم يعيدون الكرة ثانية مستهزئين مازحين لكونهم لاحظوا تفصيلاً ما كانوا قد انتبهوا إليه من ذي قبل فيعلقون عليه وإذا بالصورة تمر من جديد من يد وسخة إلى يد دبقة... إنهم يعيشون حقاً في كابوس من الحسرة والضيم. وها هم أقبائني (وقد أصبحت كهلاً) يتحلقون من حولي (في المنام مثلاً) حلقات حلقات

فأحس ما بهم، فيطلبون مني أن أكتب على ظهر الصورة اسمهم ولقبهم والعلاقة العائلية التي تربطني بهم... أحدهم يقول أواه. أشحال قبيح أنت. فيغرق في الضحك المتصنع ضحكة الخيثة والقهر. فلا تفوتني نواياهم. أحس ما فيهم من عزلة وعذاب وشعور بالتفاهة واللامعقول... على أنهم لم يتورعوا من الدخول في اللعبة وذلك قبل وصول المصور فتخالهم على وشك الانفجار من فرط ما فيهم من فرح وتقبل الألعاب والحلوى. إنهم يعلمون ما أنا عليه من نفور وتقزز أمام أية صورة تمثلي. فلا أطيق أن تلتقط لي صورة أطمس فيها حقيقتي وأعزي نفسي وأغش أصدقائي. ذلك أن الصورة لن تتغير قط بعكس الإنسان الذي لا ينفك في تغير دائم متواصل تكبر قامته وتقصير ويتضخم جسمه أو يهزل، يسود شعره أو يبيض... كيف يمكن لإنسان مواجهة صورة جميلة وأنيقة التقطت له فيما مضى من الأيام الغابرة (وهو أبي مثلاً) الآن على مر الأيام والأعوام تغير، فقد شاخ ونحل وقد طبع الحزن بصماته النهائية على محياه بعد دخوله المستشفى أو بعد أن أصبح طريح الفراش في منزل كبير، فارغ وجامد، فيما الحياة تواصل دورانها في الخارج بتدفقها وحيويتها الصاخبة؟ كيف يمكن تحمل هذا الوضع المذهل ونحن مستترون وراء هذه الجدران الشامخة؟ لقد مر المصور الماكر وها هم رفاقي في هياج ومواج، مما زاد على ارتباكهم ارتباكاً، فحكم عليّ بأن أكتب لهم كلمات تذكارية يملونها علي، فاهنتهم



على صورهم هذه الملعونة: أنت جميل حقاً. رائعة هذه الصورة. أنت تصواري... ولكم كانت تروق لهم هذه العبارة: تصواري... يحبونها. يشغفون بها. فاذهب باحثاً هن اسم أحد الممثلين المعروفين كي يقتنعوا من أقوالي هذه، عن ممثل يشبههم بعض الشيء. ولا تخالجنني الا أسماء ممثلين هزليين قبيحي الوجه، ثقيلي الروح، حُول الأعين. فيتميع مزاجهم ويتظاهرون بالشك: لا أنت محتال يا رشيد... لا... لا أعوذ بالله، إنك تجاملنا. إن ذلك ضرب من باب المدح والمداهنة. فأجيبهم: «بلى.. بلى، حقيقة أنت تشبه شيككو... فولة وانقسمت على اثنين،... كأنك صنوه... صدقني يا أخي...» (كانت الصور صفراء على قفاها، ذات الوجه البني، مطبوعة على ورق قديم اختفى من الأسواق منذ عشرات السنين) من غرفة الأب. وأثناء غيابات الوالد المتكررة، كانت أمي تختفي في قعر حجرتها، تحاور سلحفاتها وتفوض العمه فاطمة كي تلبس الأولاد أجمل ثياب وتمشط شعرهم أجمل تسريح وتضع مسحوق البودرة على وجوههم وتعطي كل واحد منهم ملعقة من زيت الزيتون الخام حتى تستنير وجوههم ووجناتهم على الأخضر وتوصيهم مرات عديدة بالمكوث جامدين خلال ما يقرب الثانية أو الثانيةين أمام آلة التصوير عندما يدخل الشيخ الماكر رأسه داخل الكيس الأسود ثم يضغط على الزر يفسقه فقسمة عجيبة، ذلك الذي يقدر أن ينقش وجوههم وأجسامهم على لوحة معدنية إلى ما لا نهاية، إلى ما بعد التاريخ...

نخرج بصحبتها ونتركه يتناوم وأحدق أنا في ماريما،

متجاهلاً تساؤلات أمي الایمائیة: من هذه السیة؟ من هی؟  
أعدت تأتي بالنساء إلى هذا المنزل فی غیاب زوجتك؟ هذا  
عیب. عار هذا. أما ماریا فلا تقول شیئاً وتبتسم أمی  
مداعبة تقول فی تجاه العشیقة: مرحباً بك فی دارنا. وجه  
الخیر... الاسم الکریم؟... کیف سماك ربی؟...

لن نتحدث ماريا عن انطباعاتها بعد مقابلة الوالد وكأنها قد أوقفت غاراتها الهجومية ولازمت الهدوء والسكون. ترى لم هذه الوضعية؟ لم تعد تلح عليّ في السؤال فيما يخص أبي وكأنها تبتغي مني أن نتحدث عن الزوجة اليهودية التي تسكن في إحدى غرف المنزل الضخم الذي أفرغه هروب الأولاد شيئاً فشيئاً إذا كبروا. وبعد أيام من الصمت المدقع بيني وبين ماريا، وأنا بين الخريشة ليلًا وتحميض الأفلام مساء وإطالة النوم صباحاً، راحت هي تراقبني بشيء من الرصانة والاحتشام فلا أراها وأنا جالس إلى مكتبي وهي مستلقاة على فراشي فأخذ أتشمم رائحتها العنبرية المختلطة ببرودة علية ورطوبة نثة تنبثقان من التوتة، فيعقب هذا المزيج العطري أجواء الغرفة في جميع أنحاءها، فإذا بي في مثل تلك اللحظات وكأنني أبعث من جديد وفجأة يعاودني صفاء غريب في الذهن أقرب ما يكون إلى حالة الوجد والذهول فينتيه عقلي في مسيرة وهمية ملؤها الحيلة والحذر مثلي في ذلك مثل البهلوان الذي يسير على

حبله الممدود في الهواء وقد انهارت شجاعته كل الانهيار  
إذا هو لم يعد يحدس بحسه حساسية الحياة وقد انقرضت  
فيه غريزة العيش كل انقراض. كنت وأنا أتسرع في نقش  
الحروف والكلمات والجمل واستطرد الاستطرادات الواحدة  
تلو الأخرى كنت أشعر بأنني أنقلب ايما انقلاب فيذوب  
شخصي الاجتماعي والنفسي ليفسح في المجال أمام أنا  
آخر، أناي الشخصي. فما أكاد أرى إحدى بنات الوردان  
ناصبة قرني استشعارها على شكل قاطع مقطوع، لما كان  
في من عدوان تجاه عيني العشيقة الثائرين ذعراً، حتى أهرع  
لإغاثتها وأخلصها من شر تلك الدويبة الشنعاء، حتى إذا  
رأيت ماريا وقد فاضت على ملامحها علائم الاعتراف  
بالجميل أخذت في جرس عضلاتي في غموض وابهام رغبة  
مني في تحسين إخضاعها وحملها على الهيام بي وتدليلي  
تدليلاً دائماً. عندئذ كان يحدث بيننا شبه فضاء معشوشب.  
(أهو ستار التوتة الكثيف؟) متراص، كثيف في هشاشته  
ومهدد على الدوام بانهيار زلزالي كنا لا نني معاً نهرب  
جسامته ونخشاه، ونحن قابعان بصورة غير معقولة في  
صميم قلب تلك الحجرة أمام التوتة وقد هدأت بمفعول  
ارتداد أمواجها فبلغت منتهى رتابتها الذاتية الشاذة (كل ذلك  
يذكرني أيام كنا في المدينة ننظر فنرى رشاش الماء يلطخ  
الميناء والرصيف في أبهة وبذخ يغمرهما غمراً وقد أخذتهما  
غشية ثقيلة فتخدرا منذ مغادرة الصيادين لهما ريثما يجيء  
إليهما عملتهما من جديد). كل ذلك وكلانا يحملق في

صحابه كالملاكين يتهيآن لا للملاكمة وإنما للتعاوض تعاضاً  
تسيل معه دماؤهما .

إلا أن هذا الأمر كان أمراً معتاداً لدينا والحق يقال  
تأصل فينا تأصلاً بالغاً سرعان ما كنا ننسى معه أننا في  
حالة سلم قررناها بصورة رسمية منذ لحظات معدودة. وكنا  
عندئذ نخر معاً فتكون الزفرات تسري على جسمينا  
المحمومين البالغين من نفاذ الصبر فإذا هي شراسة ونهم  
وكنا لا نأبه معهما للون بشرتها وقد سرت عليها حبوب  
صغيرة ضاربة إلى البنفسجي كانت تتنبأ سلفاً بشدة  
الملامسات الأليمة القادمة. وكنا نخشى تجدد الالتحامات  
الجسدية بيننا إذ لم تكن القضية ان يتناول كل واحد منا  
جسم الآخر بل كان من المفروض عوضاً عن ذلك أن  
ينهش كلانا صاحبه نهشاً يبلغ من الشدة والصرامة حدّاً ينشأ  
معه الكابوس لاسيما عندما كانت الأنثى تتصدى منبثقة من  
نسغها الشخصي الذات فتريني وقد أفرجت عما بين ساقها  
لحمة متورمة مخربة تمتد حتى تصل بحدود ذلك الاحمرار  
الطاغي على هذا الركام المدلهم في مسحة من وقار: ذلك  
الركام الذي كان يقطع النور المتدفق على الفخذين قطعاً  
حاداً فيدع لحمتي تعمه كالعمياء في البداية ثم تتدارك الأمر  
فتأخذ في التحسس تحسناً منهجياً منظماً إلى أن تصادف  
الثقبه. بيد أننا كنا نقضي في تلك العمليات وقتاً طويلاً،  
وكان لعاب فرجها يسيل على ساقى - خائراً لزجاً يجري  
من تلك اللحمه المتورمة الفظيعة التي كنت مع ذلك

أستطيب الغوص فيها والانغماس بها إلا أن كل ذلك لم يكن ليشفي غليلنا. وفعلاً فقد كان من المفروض أن تغير لحمتي المسترخية على لحمة ماريا المسترخية فتكتسحها اكتساحاً. وإذ ذاك كانت هي تبارك عملية الذهاب والاياب السافرة فتزيد في إفراج ما بين فخذيها وقد استعدت استعداد المرأة الوثيقة من نيل أعظم جزء من الكتلة لالتهام المجموعة الشاسعة بأكملها وذلك لا لكي تلتذ بها فحسب وإنما لكي تركزها كذلك على ركيزة لحمها العريض فتسندها إلى قاعدته اسناداً، لحمها المضيف المتفتح على جميع ضروب الأمومة والانجاب! كانت تتصيح وتتأوه التذاذاً فتتقلب الأمور عند ذلك إلى وليمة جنسية ملؤها اللزاجة والتلذق؛ ترى أية آلة للضرب والصدم تكون قادرة على الاتيان على آخرها؟ لم تكن العشيقة شاعرة بألمها النرجسي المولع بذاته بل كانت نفسها متفجرة متفرقة وسط مضيق ولهاها الذاتي فتطفق فجأة تريد امتصاص كل شيء من خلال فرجها وقد ارتخى ولان من جرّاء اللذة والسيلان ثم عاد فتصلب بسرعة لكي يتمكن من الانضمام إلى اللحمة المقابلة أحسن مما فعل وكانت تلك اللحمة إلى الاندهاش أقرب منها إلى التلبد وسط تلك الفجوة الضيقة ضيقاً معيباً وذلك رغم ما كانت عليه من خصوبة لا حد لها بإمكانياتها الكاملة على الدوام غير المتوقعة على الدوام. وكانت العشيقة عند انتهاء الالتذاذ تستغل فرصة الفترة الفاصلة بين الشعور بالكمال والشعور بالمرارة فتشكرني وتعبدني وتهش في وجهي

وتحتفي بي وكنت أشعر أحياناً وأنا أطرح الأسئلة عليها، نفس الأسئلة من جديد بأنني كنت أفسد بذلك كامل القضية غير أنها كانت تعرف كيف تردني إلى الجادة فتؤنّبني برفق وصبر. لقد وهبت موهبة أساسية هي القدرة على أن تجعل مني إنساناً عاطفياً منشرح الصدر ولذلك فقد كنت لا أصر كثيراً على موقفي لا خشية الإخلال بذلك التوازن المهلhel القائم بيننا بل لأنني كنت دوماً متخوفاً من أن أصبح في حرج ومن أن أجد نفسي مرة أخرى في بلبلة وارتيابك وجهاً لوجه أمام الواقع. وكنت شاعراً شعور الحدس والتخمين أنه لو دفعني التذبذب والانذعار إلى محاولة الاطلاع على ذلك الواقع اطلاعاً كاملاً لبان لي أنه واقع مرعب مخيف مهما كانت الحال وكنت ممنوناً أحب في صاحبتني صمودها لهجماتي المفتعلة ولذلك فقد كنت إذا سألتني استئناف سرد القصة التي وقعت فيها بالأمس وسط جملة من الجمل استجيب لرغبتها بدون أن أدعها تلح علي كثيراً في السؤال وقد سعدت نفسي بالانفلات من الفخ وبتحقيق معجزة نفي نفسي لنفسي وآية فرار نفسي أمام نفسي (وكانت تقول: ما أحقق هذا الخوف من التمزق!)

كنت أمقت رأفتها تلك عليّ وكانت لا تحسن أخفاءها لأنني لما كنت أرغب في تجنب عقد العزم واتخاذ القرارات كنت أترك هذه الحالة تسبح في ذلك الضباب الذي كان خاصية من خصائص علاقتنا الأساسية. لقد كنت أحلم بسجنها لا لكي أحافظ عليها فتكون لي وحدي

وأحميمها من رعاية أولئك الذكور المتسكعين في تلك المدينة المهجورة من النساء، يجوبون الأزقة باحثين عن فريسة نادرة الوجود صعبة المنال ولا من تصرفات زوجها التي تسيطر عليها الغيرة لأنني لم أكن فيما يخصني قادراً على الغيرة وأنا في تلك الحالة من الخمول ومنتهى التذبذب التي تلت - أو سبقت بكثير - عملية القبض فالحجز التي قام بها أعضاء الأسرة الذين يرفضون كل فضيحة تشوه سمعتنا بين الناس تغني عن الزيادة في وصفها. لا لم يكن ذلك هدفي ولا غايتي بالمرّة، بل كنت أحلم بحبسها لكي أجعلها تلمس واقع تلك القرية التي كانت تتوهم أنها قادرة على العيش فيها وقد تكون غرتها - بل وهيجتها - تلك النظرات المكفهرة المحمومة التي كان جميع الرجال يصوبونها في بطاء على ريلتي ساقها المغمدتين في جوارب النيلون (فيضيف نيلونها إلى الشهوة الخام اشاراً جنسياً من أسمع طراز)، وتسيل على رديها الضخمين وعلى نهديها العجيبين في افتراقهما افتراقاً واضحاً جلياً تحت أقمصتها الخبازية اللون أو الصفراء أو السوداء التي كانت تفضل ارتداها، وليس مرد ذلك إلى أنه كان لها أفكار ثابتة وآراء واضحة فيما يتعلق بنواميس التجميل النسائي في منطقة «بلاد البرابرة» بل لأنها (وان أقسمت مغلظ الايمان انها بريئة) كانت تريد بكل تأكيد بعث الرعب والبلبله وإيقاظ شهوة الجماهير الجنسية، تلك الجماهير الناعسة المتسكعة خلال أزقة المدينة الريفية.



فكانت تشق طريقها وسط تلك الجماهير برباطة جأش عسكرية أثرت في نفسي لما رأيتها للمرة الأولى تأثيراً رهيباً. بيد أنه كان ينبغي أن أتسلح بسلاح الشجاعة وقوة العزيمة لأحبها وأفرض عليها قوانين العائلة تلك التي كانت لا تزال هي تعتبرها ضرباً من ضروب الغرابة على الأرض يتقاسمها المحتضرون من جهة والاطلال المنتصبة بها كالأوتاد من الشرق إلى الغرب من جهة أخرى والمخربشة على أرضها - إن صح هذا التعبير - أشكال بناءات خربة تكاد تكون مجردة.

إنه الغيظ الذي لا يطاق. إذ كانت ماريا تصل إلى ذروة الغضب والإثارة عندما كانت تحاول أن تفهم لماذا كنت أجعل الآثار العائلية قائمة دائماً على ضرب من الغموض وكانت تقول وتكرر مراراً وتكراراً (يا للغرابة!) تنطق بتلك اللفظة كما لو نطقت باسم ثمرة من الثمار فتنخفض شفتها السفلى الممتلئة المخضلة بالرضاب انخفاضاً ملوه الشره والنهم. شفتها المتلاثة حيوية وسط مجموع وجهها الهادئ بل القريب من الوداعة والاطمئنان. وكنت عليماً بأن رغبتني في حجزها رغبة قوية عارمة لكن لا أطمع في تحقيقها ولم أكن أبتغي أن تتضارب أعمالني مع المبادئ التي صنعتها في غضون الكوابيس التي كانت النساء يلعبن دائماً فيها أدواراً جد هامة، كذلك الحلم الشنيع الذي رأيت فيه أرنباً مسلوخاً كانوا يصبون عليه بملء حفاتهم قاصعاً من الدم وعمتي فاطمة بجانبه تحتضر من جراء حيض جنوني فاض

عليها. فما هو بمتوقف ولا هو بمنته والعمه فاطمة واقفة  
تقهقه بفمها الادرد ولم أكن في أثناء هذا الكابوس لأربط  
صلة بين الدم المصبوب على ذلك الحيوان المسلوخ وبين  
دم قمر الطمهي ولم أدرك أن كل هذا الدم كان صادراً عن  
العجوز المسكينة وقد أفرغت منه وملاً فمها بصرخات  
الأنين والحشجة إلا عندما استفتت. كان لزاماً علي أن  
أقي مازيا لأنها كانت هي الأخرى ضحية وهي في ذلك  
وسائر نساء البلاد اللواتي يحاولن تغيير التقاليد القديمة  
المتواجدة فيها سواسية. لم يكن بوسعي تصور إمكانية  
حبسها في هذه الغرفة الصغيرة الحقيرة التي كانت تملأها  
حبوب الفتالين منذ أن قرأت في المجلات أن هذه المادة  
وإن لم تكن قادرة على قتل الجرذان فإنها تصيبها بداء  
الدوخة والدوار ولعل ذلك يجبرها على العدول عن شن  
غاراتها الليلية في أرجاء الغرفة وعن صراعاتها الغرامية التي  
كانت نتيجتها الحتمية جولان الأثنى الحامل جولان  
الطاووس الذي يتبختر زهواً وكان هذا المنظر يبعث في  
نفسي الاشمئزاز والنفور إذ كنت عاجزاً عن تحمل رائحة  
الانثيات الحاملات ورائحة النساء الحبليات: (التضخم  
السكني!).

لا لقد كنت عاجزاً عن سوء معاملتها والإساءة إليها.  
ولذا كنت أفضل الخضوع لقانونها فأهيء بذلك لنفسي  
الشعور بفشلي الذاتي ولم أكن قادراً على تحمل مسؤولية  
ذلك الفشل كاملاً بل كنت أتحمّل تلك المسؤولية جزءاً،

جزءاً، حسب الأحداث وبمقتضي الظروف والأوضاع التي كان يضعني فيها جسمي ذلك الأثر الشنيع الذي حملوني إياه عن عهد الطفولة العفيفة إلى عهد الرجولة الصعبة فأنزلت في هذه الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها والواقعة على ضيعة الأب الذي حملناه مرة أخرى من المستشفى إلى الدار الكبيرة بعد أن انتابه المرض من جديد، فكانت الانتكاسة القاضية. وكان الانسان الوحيد الذي تجرأ على زيارتي هو ماريا وذلك على رغم من أنني كنت أخجل منها بعض الشيء وعلى الرغم من أن فساتينها الباهظة الثمن الزاهية الألوان المفرطة الشبق كانت تهددني بمقاطعة سائر أعضاء العائلة (المحتضران وأمي) لي وكنت أحبب فيهم ذلك التصلب الفكري وذلك الرضا عن الذات المدمر لضمائرهم وقد نالت منها الحياة بعد ما نالت! (وكانت تقول: دع عنك اجترار كل هذه الأشياء... وحدثني عن أمك وأبيك وزوجاته وعشيقاته والعمة فاطمة، فذلك أفضل...). ولم أكن استجيب لطلباتها الملحة إلا عندما كانت تصل إلى حدود الصبر والاحتمال، أي لما كنت أشعر في غموض وإبهام أنني لو أصريت على حدود الصبر والسكوت لتعرضت إلى خطر إضاعة فرصة ذكر قصة منزل أبي بدون ما عودة: قصة المنزل وقصة طقوس القبيلة وخرافاتهما. وعند ذلك كنت أسارع إلى ارضاء رغبة ماريا فابسط عليها ذكرياتي بسطاً كنت أشعر من خلاله شيئاً فشيئاً بالواقع الذي ليس هو بالعجيب الخارق للعادة بل هو واقع

غير لائق ولا مناسب. ذلك أن رفضي الحديث لا يمكن تمديده وراء حدود معقولة وهي تلك الحدود التي تتمثل في درجة ضراوة العشيقة بل وحتى في سخريتها المحزنة. وكان نور الغروب المتسرب من النافذة قد رسم على جانب وجهها هدأة مؤقتة كأنما قدمت من أعماق العصور الغابرة. وكان الظل الذي يظلل خدها قد مسح جزءاً من وجهها مسحاً فبدت لي كأنها امرأة أجنبية لا عهد لي بها وذلك لأنني لم أعد قادراً على تصور خدها الثاني ولا جانب جسمها الآخر. ترى هل كان في ذلك استهلال لا عمأة، فأخر مغشياً علي؟ لا بل أن ذلك كان بداية فترة من الحذر الذهني أمام هذه المرأة ذات الوجهين: وجه غمره الضياء فعاد إليه ضرب من المتانة والصلابة ومن واقعية لا عهد لي بها، بينما ظل الآخر في حالة من الغموض والابهام صادرين عن عتمة التوتة وتفرع أغصانها، فشعرت أنا الآخر في ألم وعناء بشيء من ازدواج الشخصية على غرار ما تشعر به تلك المرأة وقد انتصبت أمامي مولية إياي جنبها جالسة إما على الكرسي أو على السرير. ولكن أين لي أن أجد ما يلزم من شجاعة فأنهض وأمشي حتى أصل إلى المرأة القائمة فوق المغسلة وأنظر إلى نفسي مرتين من زاويتين مختلفتين فأقدر أثر النور في وجهي وقد بلغ ذروة ضيائه خارج البيت فالتهب التهابه أخيرة تبشر بحلول فترة من البرودة؟ وإن لي ألا أثير انتباه ماريا واستفز ارتباكها لو رأنتي مركزاً أمام المرأة أحرق في جانبي وجهي الواحد

للو الآخر وقد بدا لي احدهما أغلظ من الآخر وذلك من جراء عدم تناظر وراثي لم يكن يظهر لي الا عند النظر إلى للمسي في المرأة. لو رأيتي العشيقة على تلك الهيئة لظنت أن نوبة جنونية قد انتابتي أو أن ما أفعله إنما هو حركة من هركات المتطرفين المتطيرين المؤمنين بالشعوذة أو حتى مناورة مني أحتال بها للإساءة إليها أو لقتلها.

لقد وقع الضوء المتصاعد من حوض التوتة والمتجه نحو نافذتها المضاءة على أحد جانبي وجهي فأصبحت أشبه ماريا، مما جعلني في الحين أشعر بأهمية تساكننا كاملة، وهو تساكن ليس بالغرامي ولا بالاجتماعي بل هو من قبيل التعايش البيولوجي. فماريا أصبحت تشبهنني. فقد صرت مزدوجاً، وهي أيضاً. وقد أثر في نفسي ذلك ايما تأثير لأنني ما انفككت إلى ذلك الحين أعتقد كل الاعتقاد بأنه ليس هناك ما من شأنه أن يثير احدنا مثل الآخر. ورغم ما كان قد خامرني من واخز الرغبة في القيام إلى المرأة للثبت من صحة هذا التشابه الذي أحسست به فجأة بيني وبينها لم أتحرك من مكاني بل مكثت أراقبها وهي تدخن السيجارة بعد الأخرى أحس مسبقاً بذلك الطعم التافه الذي سيكون لقم ماريا عندما سأقبلها وأتكهن بأن الأمر سينتهي بها إلى القيام والاتجاه إلى الصنبور - لتلقي خيوط الماء العمودية الغزيرة الشخة في حفرة كفها وقد انقبضت وتكورت وهي في ذلك تمطط من شفيتها المطبقتين إلا فرجة صغيرة مجعولة لاحتساء الماء وادخاله في فيها. ولكن ماريا لم

تتحرك هي الأخرى من مكانها بل كانت وكأنها تنتظر حدوث شيء ما ثم كررت فجأة بصوتها الرتيب الأبح: زدني من الحديث عن العمه فاطمة. هل أجعلها مهمومة؟ لا. فقد أصبح ذلك شيئاً لا يهمني ولا يسليني. فهل أنافق وأتظاهر؟ لو فعلت لانكمشت هذه المخلوقة على نفسها وانقبضت ولمات كل شيء فيها سوى عينيها المفتوحتين على مصراعيهما والمصوبتين علي بلا شفقة ولا رحمة وعلى الافتراءات التي قد أفترها. ولكني لما لم أفه بينت شفة فلم يكن لها أي سطوة علي وعلى افتراءاتي (وهذا ما كانت تسميه هذياني) لقد كنت أريدها خفاقة. وكانت تقع في الفخ الذي نصبته لها. تريدني فريسة من نوع خاص لا أية فريسة أياً ما كانت. تريدني حياً ولا تحلم الا بانتزاع ذكرياتي مني؛ لا لاستعمالها لغاية ما بل لافنائي وإذابتي من خلال ثرثرتي القاحلة التي لا ينضب لها معين وإفراغ جنوني الملموس ولو حدث لها ما تحب لما بقي من ذاتي إلا رواسب مبهمه الآثار ملؤها اللعاب والدخان، تتواصل بعد إضلالي وبعد استلاب كلامي المجرش المعنى، المتشقق العلامات.

لقد استسلمت في النهاية تلك المخلوقة وكان كل عمل نقوم به معاً وكل فضاء نستعمله مشتركين يمثل فغرة مصارعة تنذر منذ بدايتها بحلول التمزيق الثقيلة الجامحة. وإذ ذاك كنا ننداخل من جديد ولشد ما كانت تشتهي ذلك وترغب فيه. ولكن: الخوف من تلك القطعة الشنعاء من اللحم

المجدور المتدلي وسط الفرج على صورة مادة منهارة  
يذكرني ابتلالها الخاص بصورة ملك الجعلان وقد تمدد في  
استدارة وسط سائله حتى استنفاذ كل إمكانية في التصالح  
مع البيئة المعادية. ولكن: رائعة ليونة الخشب الأبيض  
تلك! (خشب قطعة الأثاث الوحيد الموجود في الغرفة  
والتي كانت تبعث على الحلم والخيال: المكتب) وذلك  
رغم الرؤيا التي سدت طريق أسفل بطنها و، مرتع حبي  
العاري، المدمل ولكنه مليء على كل حال بتلك الحكمة  
الحصباء الضرورية جداً لمن يريد أن يتعلم كيف يموت. لا  
ينبغي نكران الراحة. ثم جاء الخصام. ثم جاء دور الماء.  
وكان السقف ذو الفتحات مستمراً رغم نزول الليل في  
تصفية النور وسكبه علينا كما لو كان الخشب مادة ناقلة  
للنور بعد الاحتفاظ به في صلبه، تفوح منه رائحة الدهن  
المنهوك بمفعول الحرارة المتصاعدة المتدفقة أمواجاً محرقة  
ليس من السماء بل من السقوف والسطوح الأخرى المبيضة  
بالكلس والمرسلة على غرفتنا الصغيرة المائلة السقف  
اشعاعاً أشد إضاءة وأشد فتكاً بغض النظر عن عنفوان  
التوتة المتهيج. يا له من امتزاج! لقد كان في فطنة العشيقة  
شيء من الهم. ولشد ما كان الغيظ يحتد بي كلما سبقتني  
فاستجابت إلى إشارة مني أو كلمة أو رغبة قبل أن أبدي  
من ذلك شيئاً، لقد كنت كمن أصيب بالغشي، فكانت  
البثرات تتخلل جفني فيأخذ كل شيء من البغض القلوي لا  
يمكن لأي شيء عدا جو البوالات العمومية أن يعبر عن

شدته المتصلبة القاسية في أبهتها وبهجتها الرسمية وكأنها سيلان شديد يتدفق منه ماء ثقيل حاد في نفس الوقت. لقد كانت العاصفة على وشك الاندلاع بيننا، فماريا لم تكن تريد مفارقتي إذ كانت على علم بأنها قد ترتكب إذ ذاك غلطة خطيرة من شأنها أن تكون وخيمة العواقب (أهي المساومة؟) لاسيما أن سبب الافتراق المحتمل إنما هو سبب واه لا قيمة له البتة. ولكم تفننت في الأغراب والتناقض إلى أقصى حدود التناقض. فماذا لو فقدتها بدون ما رجعة؟ لقد كانت لا تبدي حراكاً ولا ترد فعلاً. إنها حالة انتظار. الخدوش المجردة المتولدة عن ذلك الجو السحري المنبعث من الغرفة لا زالت تتراكم دونما انقطاع. فلم يبق على حالته الا الأشكال وهي أشكال نقية ولكنها لا تنتسب إلى أسلوب معين لأنها من حين إلى آخر تبدو فظة غليظة ذات طبقات كمالو كانت مغشاة بالريش وبفلوس الأسماك. وكذلك: بقبقة الماء أسرع من ذي قبل: ذلك هو هطول الأمطار الصيفية. وبقيت وفي نفسي رغبة ايلامها بأن أحبسها في حجاب أبيض تتبرج داخله كالأخطبوط المتعدد الأصابع. آه لو حققت هذا الحلم الذي يخزني في ذلك العرين الذي كانت ماريا حرة فيه دائماً في أعمالها وحركتها. ولكن الأفضل لها أن تستمع إلي وأنا أتكلم بدون أن تتجراً حتى على مقاطعتي من حين إلى آخر وشيئاً فشيئاً تتصور قصتي بيني وبين تلك الشقوق الملعونة التي كانت تبعث في نفسي الخوف بمجرد ما كنت أتميز ذلك



الفارق بين القول والواقع الذي لا يملأ فراغه ولا ينقص أبداً. ورغم ذلك فقد كانت هي الملكة على أية حال، الملكة التي لا تنغص، لا تنكد ولا ينتابها أي شيء من القلق والانزعاج فتتناول جميع الأمور متسلحة بالصبر الطويل. وعندما كنت أخرج من أوهامي المذعورة كنت أعود فأعدها فتبقى رغم كل شيء متضامنة معي. وكان في ذلك أيضاً نهاية الشعوذة السحرية.

كانت ماريّا تضحك كلما سمعتني أطلق اللعنات والسببات باللغات الأجنبية التي لم أكن أعرف منها الا أغلظ كلماتها، ولما كانت تفهم لعناتي وكل الكلمات فقد كانت تحاول على سبيل اللعب واللهو أن تتكهن معناها من خلال التصوتات الحلقيه الشديدة ثم اللطيفة العذبة الناتجة عن استعمال الحروف المشأشأة الملينة التي تزخر بها لغتي الخاصة التي كانت ماريّا تنعتها بالمقدسة مع أنها لم تكن تبدو لي إلا خليطاً من اللغات المتداولة واللغات المبتدعة. وفي كل مرة حاولت فيها ماريّا تعلم لغتي الشخصية هذه وهي عبارة عن الشيفرة المبتذلة جرحت عبثاً فمها وحلقها وأغرقت في الضحك. وكان ذلك يكفيني إذ كنت أشعر فجأة بالحاجة إلى التصريح بصوت عال بحقائق بديهية. وكان النهج أسفل غرفتها ضيقاً ينتهي إلى أرصفة الحديقة وبالأمس أكلنا بعض «الأريبان» المشوى في مطعم شعبي بالقرية وقد عرض علينا فيه أن ندخن الحشيش. فأجبت بغتة، لا. فنظرت إلى ماريّا نظرة فيها شيء من الاندهاش

والتعجب ولما رجعنا إلى الغرفة غسلت قميصي (باللافتو). كانت تضحك والسيارات تجري على حجارة طرقات البلدة محدثة صوتاً كاصطكاك الأسنان عند المخنوق، وكانت النافذة مفتوحة. وتواصل بريق السطحات وقد ذهب عنها الشمس بعد أن صقلته طوال النهار، حتى أصبحت تبرق في شبه الظلمة. وكانت حزم العشب الأصهب البارزة من خلال السقوف بين القراميد ترسم في تلك الدعة والطمأنينة شيئاً كان خدشاً عابراً. فكنت أشرع في الكلام مناجياً نفسي فيما كانت العشيقة هي الأخرى مفتونة. فتنها صوتي الرهيب المتعب المليء منذ ذلك الوقت بالرغبة في اليوم الذي سأحاول الاستسلام إليه بعد هنيهة. وأما أنا فقد كنت محصوراً بين الهذيان اللفظي والصمت القائم فأخشى أن تسيل كلماتي فتعكس في سيلانها تيار ضميري المخدد بمادته الخاطفة ذاتها والذي كان قد عصره تسلسل الأحداث في زمن كان في، نهاية المطاف، زمناً وهمياً خداعاً (أما ماريا فكانت تكرر أن الكلام - علاوة على الكتابة والتقاط الصور - إنما هو شيء أساسي). كانت جالسة على السرير تواجه التوتة، متربعة متصدرة وقد اندست رجلاها تحت فخذها الغليظين وكانت تبدو لي في جلستها تلك كأنها أحد العميان يبحث عارياً عن قوته أمام إحدى محطات الحافلات العمومية. كانت في شخوصها هذا المذهل، رائعة منغرسه في أحشاء الواقع وتربة الأسيام وتكشفت التوتة...

لم تكن ماريا ممن يتقنون الانصات إلى الغير ولكنها كانت تعرف كيف تحتفظ باستقامتها الأصلية فلم يكن ليردها عن ذلك شيء حتى ولو كان ذلك الشيء يوحى باهتمامها في الظاهر بقصتي الأخطبوطية التي لم تكن ترى خطرها إذ كانت تحسبني مدعاة للشفقة والرثاء وإنساناً صياحاً زعاقاً في آن واحد. لقد كانت تبغني وهي مشدودة إلى الكلام الذي يخرج من شفتي أن تبقيني خارج العالم فتسبب في خرابي وتحملني على التمتمة والتتعة. ترى ما عساني فاعل أمام هذا الصمت بل وأمام هذه اللامبالاة التي كانت تعينها على تعزيز وحدتها الشخصية وعلى فصلها عن وحدتي أنا؟ لقد كان في الواقع يلذ لها الوقوع في صمت لا رادع له فتظل عبوساً فمطربة منفصلة عني تمام الانفصال وذلك بالرغم من ذلك الجمود المفجع الذي كانت تفرضه على ناظري وعلى جسمي وقد أصابه الازهاق بغتةً وداخله التغير والانقلاب فجأة. لقد انتهت الهدنة ولم يبق لي الا اختياران: إما أن أتمادى في التشبث بقصتي وخرافتي أو أن أسكت فأثير بذلك شجاراً بيني وبينها تكون عواقبه كالعادة غير واضحة المعالم تماماً. كانت مستمرة في عدم التحرك. يا له من جمود خرافي عجيب. ولكن طريفاً ثالثاً كان من الممكن أيضاً أن يفتح أمامي: طريق النوم الذي من خلاله كنت سأحاصر الضغائن. وأما هي فقد ردت على صلابتها الجامدة وعنقت فيه استسلامها ومطاوعتها فكانت ترد الفعل فتسيء رده إذا لم يكن في

القضية ما سيستحق الانقاذ. وعند ذاك كانت تطفق متوسلة إلي أول الأمر لتجعل الحلول السهلة إلى جانبها ثم لا تلبث أن تتنكد فتعود من جديد إلى العداء القامع المكدر فلم أكن أستطيع اخراجها منه... وينتهي الليل في خضم الكوابيس تصيبني فتبهرنني وأنا ألقى بني جنسي ورهطي وقد جاؤوا يخلصونني من برائن تلك الأنثى المنشطرة مرتين: مرة بفرجها ومرة بأصلها. (هل يجوز أن يكون أبوها غير مسلم؟ هي تلك التي كنت أجهد إذ ذاك في الانقطاع عن الحديث إليها مدة أيام (متعللاً بأني نسيت حوادث قصتي) فكان ذلك دأبنا حتى تكل ذراعاي - وكنت استعويض بهما عن النطق بالكلام المقطع - عن التحرك والادلاء بإشارات تعبر عن غضبي وعن عسر اثباتي لذاتي اثباتاً تاماً لدى الحبيبة المستاءة الحردة.

وكنت أستأنف الحديث من جديد فأسعى بثرثرتي لا إلى تكسير الملزمة التي كانت تضغط بها على عضلاتي بل إلى البحث في هياكل الكلمات قصد استخراج ذلك الدوار الضروري للنعاس النهائي، ذلك أنني كنت أشتبك في خضم أشد العلاقات اللفظية حدة وخبثاً إلى حد الإتحاد معها والضياع فيها، وقد وبخ أنفاسي كساد حالي وميله إلى الإنتقام وصار وجهي في وضع ميؤوس منه ولكن حالتي تلك كلها كنت لا أواظب عليها بل كنت قد سلمت إلى عالم حركته حركة غريبة وقد سلط علي بدون هوادة وسواس تمثل في صورة ذلك الرجل الذي تلقي من يدي

الملك منصف باي وشاح الافتخار وجواداً عربياً أصيلاً  
 أسماء: عبد الحميد، والذي كان ينازعني أحلامي وأوقات  
 استقالي ذات الوطأة الثقيلة حين يبلغ الشك حده المطلق  
 وحين لا يدري المرء كيف يتردد طويلاً بين الحق والباطل:  
 أبي. لقد كان علي أن أقحم نفسي كل يوم في ذاتي وبين  
 طيات الواقع العسير وقد اعتدت على جميع مصائب المدينة  
 المغامرة حيث أقيم عادة، تلك المدينة التي جز فيها جنوني  
 وتطفلح، تلك المدينة التي تنبثق من أحشائها عربات  
 الترامواي الزرقاء التي هشمت احدهما جسد العممة فاطمة  
 فلم تعد تدري (العربات) رأسها من ذنبها ولعل مرد ذلك  
 كالتواء البحر الغريب الذي كان يتلع حواجز الميناء مرتين  
 في اليوم الواحد: مرة عند بزوغ الشمس ومرة عند غروبها.  
 ترى هل كانت ماريا تدري أن قصتي، أكثر أجزاء قصتي  
 كانت وهمية ليس إلا؟ (لقد كانت تتصور بحسبها السادس  
 أن بين النزعة إلى الولوع بالخرافات والأوهام وبين الحياة  
 في المنزل الواقع في الضيعة الهضابية لم يكن في الحقيقة  
 في ما لمحت إليه من غرابة مضحكة أو مريبة (هوس  
 النخنة الفاطمية، من أين لها هذا يا ترى؟).

لقد كانت ماريا بجمودها وتصلبها تدخل في نفسي حنقاً  
 عظيماً إذ أن تيبس هيئتها وانقراض هيكلها يصبغان في  
 النهاية أمرين مدهشين غريبين عند انتهاء الليل وقبل طلوع  
 الفجر البارد القارس لاسيما وأنه يبشر بحرارة الصيف  
 وقيظه. لقد كانت ماريا في الواقع في فترة تعرفني إليها

والاقتراب منها وما يواجهه من تقرب وافتتان وتغزل، كانت مفتونة للوهلة الأولى ولعل ما افتتنها هيئتي تلك وتأثيراتي الایمائية أكثر منه التهويل والتضخيم فيما يتصل بأمر العائلة واسطوريتها وقد كنت أبالغ في وصفها بغية اصفائي عليها مزيداً من الحدة والوقع، لم تكن ترى في تأثيراتي التي كنت أطلق لها العنان وفي عيني الجاحظتين الا التظاهر بنوبة الجنون فاستغلها فرصة لتكثيف السيلان اللغوي وذبذبة كل المعايير والمقاييس التي اعتادت عليها لتسريخ الواقع ومخضه وانتقاعه...

... ثم كانت حكاية أختي سالمة. رفضت أن أقدم أختي لها وكانت قد تزوجت لعشر سنوات فأنجبت العديد من الأطفال ونسيت كل الماضي الذي كان يربط بعضنا ببعض وما يربط بيننا من علاقة حدسية بأكبرنا: عبدالله... رفضت أن أقدم لها سالمة (وكانت في إحدى الفترات المطرية التي لعبت أثناءها دوراً أساسياً، كانت اشبات الزعفران وأواني الملح والفلفل الاكحل تسيل والطناجر تبجع. ومراكن الزهور تتحرز، والأشجار تتلوع، والقط يفقد ظله، والسلحفاة تتحرز، واسطوانات لطيف تتموج، ونشاط حميد لا يتوقف والبستان يبلى تبيله، وعمتي فاطمة يتساقط فكها، وأسنان أبي المستعارة تورق في كأس مائها الليلي، والهراء يتخلل، والمطر يبشر، وأخي البكر لا يفارق مظلة المطرية، وأنا لا أترك الشجرة، كانت دوامة الأيام تدور بسرعة مدهشة. لقد فقدت الأشياء قشرتها وترك

الناس عوائدهم اليومية ولم يعد يتذكر أحد مذاق الشمس التي لم تعد تصدع صدوعها المألوف وابتضت البشرات ثم أصفرت ثم اكفهرت الوجوه وظهرت التجاعيد المبتسرة على جبين الأجنة وتهرأ قماش اخواتي في ورشة الخياطة وأنا على الشجرة أشرب ماء المطر وأتببلل رغم مظلة أخي الأكبر ورغم معطفه ورغم حرصه على صحتي، لقد ظن الناس أنه جاء الطوفان ثم انه الطاعون وقد ظهر على وجوههم دمل صديدية وكنت أنا أضحك وأكل من ورق التوت بأسنان تضرست من الحموضة وكل أفراد العائلة يعيشون تحت الحنابل والأغطية الصوفية وفؤاد لا يغادر الفراش بل يموج في جو من الغبطة والغيوبة وخبزه في جيب سرواله يفتته ولا يأكل غيره وعمتي فاطمة بحصار شديد الزرقة، فورم وجهه من تحالف الرطوبة والخبز وهي الوحيدة - تضج وتصفّر كقاطرة قديمة تتسلق جبلاً، تجري وراء حميد تكتسي نشارة الخشب وجذاذ الزجاج ورامم الحديد وطلبان المعادن وشظايا القصدير، تعاني كثيراً من مطاردة الطيور والمبلولة التي كانت تفرح نوافذ الدار وكأنها تستشفق صلابة العجوز، ثم تحيل معها وينتهي بها الأمر إلى الدخول وسط الفناء فتسلل هناك إلى الرف حيث تموت تحت الأسرة ووراء الأثاث وتحت الفرن حيث يخبز الطابون، فلا تعرف كيف تتصرف وحميد يرمم الدار ويشحم الدواليب ويطلّي بوابة الحديقة ويترك آثاراً لا شك فيها والطيور تفرح بلور الشبايبك وتكسرهما وتتساقط في

اغدره من الدم تاركة خطوطاً مخضبة لا ريب فيها،  
والعجوز تعاني من تكتيس الأوساخ التي يتركها حميد كما  
تعاني من جثث الطيور الميتة، وأمي لا تخرج من حجرتها  
بل تبقى مستلقية على سرير وحدتها وأبي يقول ويكرر كلما  
جاء في زيارة لنا، إن المطر سوف يتوقف يوماً لا محالة،  
وأنا فوق الشجرة استغل الفرصة مغتمة هذا الحظ النازل  
من السماء فاتفأ بدفء أخي، لقد اعتزلت به متجاهلة تمام  
الجهل وجود سيدنا نوح وقد أفهمني مطولاً أن كل هذه  
الأمر لا معنى لها وأنها مجرد خرافات مثل تلك التي  
تقصها عليه أمي إذا أقحم الخمر فيه نشوته، وتكحت حسه  
الرهيف وهو يتعاطى شرب الكحول مع الأزالم (العسكر):  
ومنها كلمة لاسكار) ولقد كان يحبهم ويعطف عليهم فينظر  
إلى صبوهم ويتمتم: نحن أيتام هذا العهد فأين الجذور...  
من أنتم يا أيتام... كلنا حاملون أسماء مستعارة! وكانوا  
هم يطأطون رؤوسهم استحياء وخجلاً، يفرطون في احترامه  
وتبجيله ويسمونونه بالفقيه لأنه تحصل على شهادة البكالوريا  
وسجل اسمه في كلية الطب وهم لا يعرفون حرفاً ولا  
يهجون كلمة وإن كانوا يحفظون أشعاراً وملحقات وخرافات  
جنونية؛ وهكذا يقبع أبي في الدار، ويترك مخزنه، مهملاً  
أعماله وأسفاره (غرناطة. 12 - 3 - 1934. حسان)  
ويروح يجول في البيت. إنه يبغض الكسل والخمول،  
فيقرقع بكل عظامه ويمسك بتلابيب الوحدة والعزلة وزوجته  
العناية لا تتركه فلا يدخل ولا يمسه أو يضاجعها، ظناً



منها أن هذا الصيف المهطال إنما هو إشارة وعلامة تحمل غضب الإله بين تلافيف السماء وفي طياته؛ وعمتي فاطمة لا تبالي بهذه الأمور الدينية، تعاتب الله على هديره وضجيجيه وتهدد الغيم بقبضة من يدها، وأمي في قعر الغرفة ترتق الثوب وتستغفر وتغذي السلحفاة بورق الخس وتقول إن الخلق أحسن الهرطقة والشذوذ وأفرط في اللغظ واللغو والكفر والزندقة وهي على سجاداتها لا تترك كذلك زوجها يقترب منها وتندر كل ما يقوم به بعواقب وخيمة وتخاف أن يغتصبها، أما لطيف فيشعل آلة الاسطوانات فتعم الموسيقى المنزل كله ويصبح المطر عبارة عن صدى المتواليات الموسيقية المعزوفة على القانون أو البيان، تصعد الموسيقى فتمحو كل الروائح من خشب نخر وطعام متدعص وبيض مذر وبزاق متفسخ وطيور جوة وجثث متحللة وجو متعطن ورطوبة فاسخة وغنغرينا نثنة ومجارٍ منقعة وأوانٍ قلحة وحشرات دسمة). لأنها ابتعدت كل البعد عن عالم طفولتنا.

وهكذا وأنا أكتب شعرت أن ماريا تتصفح بعض كتبي التي لا تفارقني قط ومنها كتاب ألف ليلة وليلة وديوان المتنبي. ثم فجأة فيما التوتة بدأت تتعتم سمعتها تقول: «لقد عرف كيف يوقف المطر بمجرد بسط يديه، وفتق اللغة العربية»، ففهمت أنها تتحدث عن المتنبي وتحاول في نفس الوقت إشغالي بأشكاليات عرضية فتخرجني من وجومي... كما أنها قالت وأنا أنظر إلى العصافير تتعارك وتتنافر: «ألم

يرد أن يكون آخر الأنبياء؟ بلى. لقد أخضع اللغة... كان  
الفرات آنذاك يندفع اندفاعاً خطيراً. وكانت أيضاً دجلة.  
وما أن يتلاقيا بالبصرة حتى يحدثان طوفانات لا ترحم  
أحدًا. من ذا الذي أرسل لتسخير النهرين يا ترى؟ زنوج  
من الحبشة وحرار وزنجبار ومدغشقر وموباسا وأماكن  
أخرى غيرها. ألف ليلة وليلة! ينبغي التحذر من الأساطير!  
أتريد الوجه الآخر من المرأة؟ انه لا يعدو أن يكون حكاية  
اعتيادية من حكايات الحكم. كانت الممالك تغلق على  
نفسها داخل تناقضاتها. هل لاحظت ذلك؟ القصور الملكية  
مبنية فوق الاهرامات دائماً. وبينها وبين المناطق المأهولة  
ليس سوى الفراغ. كذلك كانت بغداد، ودمشق. كل حلقة  
مركزة تمثل طبقة وما انفكت حدة التناقض عن الازدياد.  
وحدثت انفجارات وتمردات كما حدثت ثورات بالمعنى  
الحقيقي. ثورات منظمة، مهيكلة وناجعة. ولم تكن تطلب  
الصدقة من أحد. بل أخذت السلطة بحد السيف. أتريد  
أمثلة على ذلك؟ حدثت خمس منها ما بين القرن الأول من  
التقويم الاسلامي والقرن السادس منه. ثورة في كل قرن.  
هذا ما وقع بالذات؟ اسمع وسجل وأنت في صدد كتابة  
سيناريو لوضع فيلم مقتبس من ألف ليلة وليلة. لقد توقفت  
عند الدكتاتوريين والمستبدين والقراصنة. وينبغي أن تضع  
يدك على الحقيقة، الفيلم الذي تريد كتابته هنا هدية من  
السماء. حدثت خمسة تمردات مسلحة بين سنة 200 وسنة  
749، أولاً: تمرد السندباد غرب فارس ودام سنتين. ثانياً:

تمرد المقنع في خراسان ودام عشر سنوات. ثالثاً: تمرد «بابك» بالعراق ودام سبع سنوات. رابعاً: تمرد الزنج في بلاد ما بين النهرين ودام خمس عشرة سنة. خامساً: تمرد القرامطة في أرجاء الأمبراطورية الإسلامية ودام أربعمئة وخمسين سنة. ألفت ليلة وليلة وهي الغربال الذي يغطي الشمس. لو أن أمك علمت بالحقيقة لاستهلكت المئات من المناديل للبكاء. إنه لأمر رهيب. ونحن لا نعرف الا الروايات المهذبة، أما المخطوطات الأصلية فهي تحت الحجر استلبها الغربيون وأعاد آخر الملوك شراءها. هم لا هم الا هذا. التلصص على الآخرين لجلب اللذة. على فكرة كان ياما كان شقيقان مخدوعان من قبل زوجتيهما. تمنع جيداً بالحكاية. احدهما فارسي والآخر تترى. وكان الحكم بين أيدي العرب. لا مساس بالعقيدة في مثل هذه القضية. وعلى أية حال كانا مخدوعين معاً. أرادا الخروج للصيد. هل يورد سيناريو الفيلم هذا الجانب؟ وأية أهمية في الأمر. نحن أمام فيلم ضخم من اخراج جديد وطريف، لا تتداخل فيه المشاهد على الطريقة التقليدية. لنعد إلى الصيد. فلقد أبصر كل واحد منهما بزوجه في جسدها أداة سوداء جميلة شديدة الانتصاب. وما أسرع ما استوصلت شافة المذنبين، ثم جاءت شهريار، وعندما نامت مع شهرزاد المخدوع، روت لأختها دنيا زاد صولات اللذة والجماع. وقد وجب عليها أن تصمد 1001 ليلة. تأمل هذه الأرقام جيداً امرأتان أغلق عليهما بين رجلين. إنها

قصة اللذة والالتذاذ حقاً. من البداية إلى النهاية. وفي إمكانك أن تلاحظ بأنها قصة من نسج خيال البحارين. ينبغي عليك أن تقرأ ما بين الأسطر كما يقال. يجب التركيز على صورة الملك شهريار هذا الذي يكره النساء. البقية كلها عبارة عن الأحلام التي تراود الفقراء. وهي أشد ثراء من أحلام الأغنياء دائماً. عليك أن ترى الأمور في مثل هذه الأحوال الى فائض القيمة. الحديث عن الجنس في كل صفحة من صفحات ألف ليلة وليلة، والبسط الطائرة، وهارون الرشيد متنكر في زي متسول، ولا حديث عن بؤس الجماهير على الاطلاق، ستار. أرغب في النوم. البقية غداً. سوف تعلم كيف أن الشقيقين المخدوعين اغتصبا من قبل امرأة، وضعت جنياً في فرجها فخضعاً لأوامرها. وصار كلاهما في منظور هذه المرأة المسترجلة مجرد رقمين: 99 و100. وهما رقمان كان ينقصانها لاستكمال جدول مآثرها. التاريخ لا يقول إذا كان كل واحد منهما رأى الآخر وهو يسعى إلى شؤونه. النساء وحدهن هن اللاتي لا يعرفن الاحتشام. أوقفوا التصوير. أشياء كثيرة يمكن أن تقال حول هذا الموضوع. ثلاث وقائع أجملت في واحدة. ألف ليلة. والزنج والقرامطة. لقد تشابكت الأيام والليالي فيما بينهما. ففي سنة 899 بادر متفقد مياه دجلة والفرات إلى انشاء ثلاثين حاجزاً، تعين عليه أن يضبط مقدار اندفاعها. وسرعان ما استجلب العبيد السود وراحوا يردمون أطراف النهرين ويبسطونها.

ولم يغضب مصب النهرين بعدها. وكانت النتيجة ان 8169  
عبداً جرفتهم المياه وقتلتهم حمى المالاريا والمستنقعات  
والجوع والسياط. الفرات ليس نهراً كغيره من الأنهار  
الأخرى، وهو يروي بلاد ما بين النهرين. هذه البلاد التي  
كانت اهراءات للقمح أيام الأمبراطورية العريية. وعند مغيب  
الشمس يصير المشهد بالغ الروعة بالتقاء النهرين بينهما.  
وانتشرت قرى الصيادين هنا وهناك على أن الناس ظلوا  
يخشون الفيضانات على الرغم من وجود متفقد شؤون  
المياه. وكان «النيلومتر» مستعملاً في ذلك الوقت. وهو  
قياس عجيب لا مثيل له. ولهذا السبب بنيت بغداد بعيداً  
عن الكوفة والبصرة وبعيداً عن المياه الجارفة. قلت لك إن  
ألف ليلة وليلة ليست إلا وهماً من أوهام الملاحين الذين  
افتقدوا النسوة ما بين الصين والشام. فتفاقم شبقتهم ولعبت  
فيهم مخيلتهم شطحات ليس من بعدها شطحات أدت بهم  
إلى نسج تلك الخرافة العظيمة...» وكان السيناريو لبعض  
المشاهد كما يلي:

سيولة الواقع تجعله يلوب أمام الأنظار ويتلشم فيرسل من الرعب إشارات برتقالية وبنفسجية مثل كابوس انقسم على شطريه ليتمكن من تشرب الألوان والانطباعات المنبثقة منه. ويختمر هذا الواقع وكل ما يحويه من أشياء وحاجات، يختمر داخل النعاس وتحت الصور وقد تهشم بعضها وهز بعض آخر وشطب ما تبقى منها في ذاكرة الآلام والشراسة. وتتجزأ معاني هذا العالم المصنوع في أعين سكان القرية النائبة (حيث من المتوقع أن يصور هذا الفيلم المقتبس من ألف ليلة الذي أنا في صدد كتابته) دون أن يقوى أحد منهم على التخلص من شقائه أو حتى من نفسه، فيعجز الجميع عن استباق العناصر المتناقضة ويبدون كأنهم زنابير تكاد تنسحق تحت نخاريبها التي ولدت بها وضربت أصولها فيها ويحدث ذلك كله على الرغم من النزعة الجارفة في نفوس القرويين إلى حب التمعش والتأمل ولعل ذلك راجع إلى ذلك الاحتراق الرهيب عندما تتربع الشمس في كبد السماء وترحف على البلدة زحفاً وتغرقها

في قيظها الطاعي، ويختفي وجهها وراء الأشياء الصفيقة والحركات الضيقة وينداح آنذاك كل شيء في شكل لوحة تجريدية تقاطعها ألوان الحبر والصدأ ويلطخها الزعفران والحمرة الشديدة ويظل كل هذا المشهد منغلقاً على ذاته بشطحاته الخيالية ويندفع نحو الماضي، ولكن لا يكاد يبلغه أو يساويه حتى يتعثر ويتلعثم لأن الخوف أخذ بتلاييه ولأن التحدي لا يجدي نفعاً إذا ما انسحق تحت وقع الكلمات والخطب المتكررة. وتزداد القرية ذهولاً عندما يعمد العديد من الحشرات الجشعة إلى محاصرتها من كل صوب وهي بين نوم ويقظة أو تصنع بالنعاس أو تتطفل وتبغي السيطرة عليها وافراغ المنطقة كلها من ثرواتها الضئيلة فينتفل كل واحد منهم داخل هذا الديكور العجيب وقد انطبعت على ذاكرته وعلى بشرته أحاسيس أغرقته إلى حد الاشتباه في الأمكنة والحركات والعهود التي تمتزج بعضها ببعض: قائلاً في نفسه: «ها أنهم يحتكروننا فأصبحنا مجرد ديكور لهم. وماذا عن ألف ليلة وليلتهم هذه؟ إنها خديعة لا أكثر ولا أقل... يجب الاطلاع على الوجه المخفي من الأمور ومن الأشياء المختلفة...» والأفعال وردود الأفعال، كأن ذهنه المهشم قد جهز إلى الأبد بما يشبه المصابيح المستخدمة في ارسال الاشارات وشعر بنفس القوة التركيزية التي يتمتع بها عباد الشمس والهزات الأرضية العنيفة التي تصدر عن العواصف العاتية بعد مرور الأعاصير. وأحس كل قروي باحديادات ملتوية تتنامى في رأسه وتتطامن وقد امتلأت

شحنات كهربائية، سريعة متقطعة ومتواترة. وعاد التاريخ من جديد ينحسب في رثتيه واستبدت فيه الرغبة في الانفجار كغربة في تفجير شجرة الدر (تلك الملكة الفريدة التي عرفها الإسلام وقد حذ كاتب السيناريو توظيفها في الفيلم المقتبس من ألف ليلة وليلة، وان لم تتحدث عنها هذه القصة، على الاطلاق) عندما يشعر (المخرج) بالدافع الشديد إلى ممارسة الحب، فتطلب هي (مريم) إليه أن يصبر قليلاً متذرة بأن لها فزاعاً لا بد لها من أن تنتهي من صنعه. كان الوضع قد بلغ هذا الحد، في حين أن الأجانب اجتاحوا القرية المعزولة متنكرين في أزياء فرقة مكونة من أفراد ظلهم خفيف ومرحهم بليغ وحركاتهم عفوية جاؤوا لخدمة قضية السينما الكريمة. وأدرك المخرج أن عليه أن يعرف اقناعهم ويتحدث إليهم بوضوح مبتعداً عن التعر في كلامه. بل أدرك أيضاً أنه ينبغي عليه اطراح السحر وغيره من الخوارق والطلاسم لأنه لم يكن يجهل بأن السينما إنما هي مرآة لا ترحم في تمكنها من ابهار القبرات الموجودة هناك بصورها. ولم يعلم الناس بالضبط إذا ما كانوا موجودين حقاً أم هم مجرد صنائع جيء بها من قبل الأجانب كغيرها من الآلات وزجاجات الويسكي. وأخطر ما في الأمر كله يكمن في غياب الشمس نهائياً. لقد طارت هي الأخرى ولم يعد يسمع للعصافير صوت وتردد على القرية نوع من الصفير المرهق المختلط بالصرير والشوشة واحتكاكات الورق وظلت تلك الهمسات مبهمة



متباعدة كأنها تحمل في طواياها اصداء نهاية العالم . وطفق واضع السيناريو ينظر إلى الأجنب بسراويلهم القصيرة وهم عراة الصدور يذرعون ساحة الطيور ويهزون أكتافهم وينادي بعضهم بعضاً بأصوات جهيرة يتضاربون ويشيرون الصخب كيفما يشاؤون . وبدوا وكأنهم بديارهم ، يتصرفون في كل مجال على هواهم ويدفعون بحدود الجدران خارج محيطها المعتاد . وجاء السيناريو كما يأتي :

قصر شهريار: ليل - داخلي .

الملك جالساً يكتب أمام مكتب مائل (من طراز العصر) . . . إنه وحده . . . لقطه متوسطة على المكتب . . . لقطه كبيرة على الورقة المكتوبة بخط الملك . . . (صفحة قديمة من المخطوطات العربية) لقطه على الكرسي الذي يجلس عليه الملك . لقطه كبيرة على ثلاث من أرجل الكرسي الأربعة . مزخرفة زخرفة رائعة . ثم لقطه عامة لشهريار الذي يواصل الكتابة . فجأة يسمع صوت جلجلة قيد . ينحني ونكتشف الرجل الرابعة للكرسي لأول مرة وقد قيد إليها قرد صغير يستيقظ الآن ويفتح عينيه . . . لقطه متوسطة: يميل الملك ويداعب القرد . لقطه للقرد وهو يفرك عينيه . (شهريار: استيقظت أخيراً؟ . . . كل الناس نيام . . . حتى أنت تهجرني . . . ما سوى الملك شهريار يعاني من الأرق).

ينهض الملك وينحني على رجل الكرسي . ويمزيد من الحنان يفك وثاق القرد الذي سرعان ما يقفز إلى صدر

الملك ويلف ذراعيه حول عنقه. الملك يكلمه بصوت خفيض (شهريار: هامساً) تعال نذهب ونوقظ الملكة... لا يحق لها النوم لمجرد أنها أمضت النهار تحكي لنا حكاية القرد... على كل حال لقد نامت كثيراً... من الخلف نرى الملك مغادراً القاعة بظهره، بينما رأس القرد في مواجهة الكاميرا.

غرفة نوم شهرزاد... ليل - داخلي.

يفتح الملك الباب بنعومة، ويدخل وهو مازال يحمل القرد بين ذراعيه والقرد مازال ممسكاً بعنق الملك... قيد القرد (في لقطة كبيرة) من الذهب الخالص، يتدلى إلى مستوى ساق الملك الأيسر. ظليل رائع يسود الغرفة ذات السجاد والطنافس والأثاث، البديعة كلها: شمعدان صغير (موضوع أسفل السرير البغدادي المغطى بالموسلين) ينير المشهد إنارة خفيفة. في لقطة عامة مقربة، ومن خلال موسلين الناموسية، يتأمل الملك شهرزاد ودنيازاد، العاريتين تماماً، نائمتين بعمق، دنيازاد متكورة على شهرزاد التي تمددت على بطنها فيما الأولى تنام على ظهرها. لقطة مقابلة كبيرة على الملك الذي يحدق في شبق، في الجسدين المختلطين، يرفع الملك ذيل الناموسية خفية. وبخفة، ويدس القرد الصغير وهو يهمس له في أذنيه: (شهريار (هامساً): أيقظها... ولتحك لنا شهرزاد قصة القرد الذي يكتب الأشعار، ويخط الكلمات، ويعرف حتى (صه، لا ينبغي قولها) لعب الشطرنج). لقطة متوسطة على السرير البغدادي، وعلى جسدي المرأتين.

لقطة كبيرة على القرد الذي يبدأ بمداعبة وجه دنيازاد بمزيد من النعومة. لقطة كبيرة على القرد الذي يداعب مؤخرة شهرزاد، دون أن يوقظها. لقطة كبيرة من ناحية السرير، ومن خلال الموسلين، على الملك. ينظر مبهوراً، وبشيء من الشذوذ لعب القرد. ثم نرى القرد في لقطة متوسطة وهو يرضع من ثدي دنيازاد الأيسر فتستيقظ فرعة. وفي حركتها العنيفة توقظ شهرزاد... تجلس المرأتان. لقطة متوسطة على دنيازاد التي تستوعب ما يجري. تضم القرد إلى صدرها العاري وتعانقه بقوة. دنيازاد: ماذا تفعل هنا؟... ان ما فعلته عمل قبيح... قبيح... جداً... (تضحك).

لقطة متوسطة لشهرزاد التي تفيق ببطء من نعاسها مذهولة، وجهها ما زالت فيه علامات النوم والشهوة. تنظر قدامها فتري الملك يراقبها وفي عينيه بارقة. يغادر القرد حجر دنيازاد، ويتعلق برقبة شهرزاد التي تأخذ تداعبه برفق، وهي تمرر نظرة موارية على زوجها، مليئة بالتضمين. تأخذ شهرزاد القرد بين ذراعيها ثم تستلقي على ظهرها، وينط القرد الصغير. تشي احد ساقيها. لقطة متوسطة مقربة وراء الناموسية، تستعرض ساقي شهرزاد، فخذيها، فرجها... لقطة كبيرة على مستوى الحالب الحليق تماماً دون أن نرى الفرج ذاته. «فلاشباك» على النوتي الصغير في السفينة ينطنط القرد الحكيم. لقطة متوسطة على شهريار ممسكاً الناموسية بطريقة مسرحية ومخاطباً شهرزاد، فيما الأختان

تلهوان وتضحكان من دعابات القرد. (شهريار: أطلت النوم يا شهرزاد... والليل ظل منذ ما يقارب الساعات الست... أحكي لي ماذا حصل للوفد، بعدما اطلع الملك الأفريقي على القضيـم المخطوط...).

تنهض شهرزاد، تسند ظهرها على مجموعة من الوسائد ترصها الواحدة فوق الأخرى وتبدأ في الكلام بينما القرد يقفز من جزء من جسمها إلى جزء آخر. تبقى دنيا زاد ممدودة. تحاول أن تمسك بالقرد الذي يفر من بين ذراعيها ويقفز كالمجنون. (شهرزاد (صوت خارج الصورة): مولاي، كان الملك الأفريقي عميق الثقافة والمعرفة. تعلم القرآن في دمشق. وأجاد العربية والفارسية والتركية وحتى الآرامية والسريانية التي هي أصل لغتنا الجميلة).

طوال الحكاية كلها (خارج الصورة) تتابع اللقطات لتصور القرد على السرير حيث الأختين. من وقت إلى آخر لقطات على شهريار واقفاً أمام السرير ممسكاً بقائمه الأعلى، بيديه الاثنتين، وأيضاً: لقطة بانورامية حول الغرفة وبذخ الأشياء فيها، مع التركيز على التفاصيل. (شهرزاد (صوت خارج الصورة) أمر الملك الأفريقي وزيره بأن يجلب القرد. لكنه في الحقيقة كان يظن أن رجاله قد وقعوا ضحية حيلة من طاقم السفينة والتجار... لكنه كم كانت دهشته كبيرة عندما جلبوا له القرد، ممتطياً حصاناً رائعاً مرتدياً ملابس رسمية قيمة، بكياسة غير عادية... فأراد أن يضع القرد على المحك، وتثبت مما رواه له الأشراف

الذين أوفدهم إلى السفينة... لم يكن منزعجاً، لأنه في اللحظة التي دخل فيها القرد القاعة التي كان بها الملك، كانت اللاعبة متفوقة عليه تفوقاً ظاهراً وأوشكت أن تهزمه في مباراة الشطرنج، وتحبطه...).

قاعة بقصر الملك الأفريقي - نهاراً - داخلي.

يدخل القرد قاعة الملك، ممتطياً مهراً صغيراً مزيناً، يتبعه الاشراف الأفارقة وأفراد طاقم السفينة، والتجار العرب، كلهم يقفون خلف المهر. لقطة متوسطة على القرد مرتدياً الزي الرسمي. ثم نرى المهر يتوقف وقد وصل أمام الملك ته ماً. يترجل القرد على الأرض. (في لقطة متوسطة مقربة جداً) لقطة مقابلة للملك واقفاً يضحك ضحكاً مجنوناً، خلفه، لاعبة الشطرنج، تنظر إلى رقعة اللعب بهدوء، تتوالى عناوين هذه الحلقة بالأحرف الكوفية القديمة على قضيم قديم موسى بالخاتم الامبراطوري الذي يحمل اسم هارون الشريد (تحت إلى اليمين)... (نسمع موسيقى هي درامية وغامقة في أن واحد). لقطة مقربة على يد رجل ماسكاً ريشة من القصب... لقطة على المخطوطة المفروشة أمام اليد، مع بعض الظل، ويمكن أن نقرأ مايلي: صاحب الجلالة الامبراطورية، أمير المؤمنين، وخليفة الامبراطورية الإسلامية الشاسعة، وريث السلالة العباسية، التي أسسها جده العلم، أبو العباس السفاح، بعدما دمر سلالة الأمويين الزنادقة... وانه لفي هذا العام المبارك 132 من الهجرة قد حكم على الأخوات الثلاث: بدر البدور، ومرج الريمان

وفاطمة الزهراء لأعمال الشعوذة والدجل. ثم عفا عنهن كرم الضيافة، والطيبة المثالية وهذه الظروف المحققة عديدة وحاسمة، وأيضاً قرر صاحب الجلالة الامبراطورية بتسجيل هذه الحكاية الاستثنائية، على أن يدونها الكتاب الملحقون بالديوان الخاص، وأن تحفظ في ملفات المكتبة الأمبراطورية.

حرر في بغداد، عاصمتنا المباركة من الله، المؤسسة سنة 142 من الهجرة على يد سلفنا الموقر أبو جعفر المنصور... حرر في 13 جمادى الأولى من العام 180 من الهجرة.

اليد الممسكة بريشة القصب توقع في أسفل الصفحة: هارون الرشيد التوقيع يتم بطريقة سريعة وحاسمة، مترجماً بذلك السلطة والقرار لدى صاحبه. يبتعد ظل اليد عن المخطوطة التي تكبر وتكتسح الشاشة. لقطة ثابتة، قصيرة جداً.

منزل وزير شهريار... نهار - داخلي

غرفة نصف مظلمة، لقطة عامة: وزير شهريار والد شهرزاد ودنيازاد، نراه من ظهره، يتجه ليفتح خزانة صغيرة موجودة في زاوية الغرفة... هو رجل عجوز شعره أبيض وكثيف، طويل القامة، منحني الظهر قليلاً... إلى يمين الغرفة، مدفأة دائرية الشكل، يشتعل فيها النار وإلى اليسار سرير بغدادى. يلتفت الرجل نحو الكاميرا، ماسكاً في يده مخطوطة قديمة ومزخرفة، ويتحرك نحو اليمين (بانوراما)

لينضم إلى طيب المملكة... الطيب بدین، ممتلىء یرتدي ثوباً فضفاضاً ذا لون أحمر صارخ، عمامة خضراء كبيرة ذات خيوط ذهبية... وقد جلس متربعا في وسط الغرفة، يده مفتوحتان على ركبته. في وجه الوزير تجاعيد وهموم. يبدو عليه الأسى، يجلس (لقطة متوسطة) قبالة الطيب، فيظهر التناقض بين بدانة الطيب ونحول الوزير.

ما أن يجلس الوزير (لقطة عامة) حتى يطلع الطيب على مخطوطته، ثم يفرشها على الأرض ويفتحها. لقطة كبيرة على الأصابع النحيلة وهي تملس الصفحات القديمة في المخطوطة. (الطيب: المهم أن ينفع هذا في شيء... الوزير: طبعاً سينفع... هذي دلائل على وحشية شهريار... إنه مريض وينبغي أن تعالجه... ثمة خطر على حياة ابنتي الوحيدتين... الطيب (خائفاً) لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ هل سينبغي أن نسمه؟... لديه سلطة وسيطرة لدرجة أن... (يتردد) أن ابنتيك نفسيهما خاضعتين له... الوزير: خضوع بسبب الخوف... ليس أمامهما سوى الحيلة لضمان البقاء أطول مدة ممكنة).

لقطة كبيرة: يد الطيب اليسرى وهي تنقب في جيب لباسه الداخلي... لقطة متوسطة: يخرج قارورة ويضعها على المخطوطة، المفتوحة على الصفحة ذاتها. لقطة عامة: يتمهل وينتزع سداد القارورة، يفتحها، يسكب منها بضع قطرات على صفحات المخطوطة المفتوحة... فوراً تحترق وتتكمش بفعل السائل الكاوي. يرفع عينيه (الطيب: يمكن

أن يكون هنا حل... هذه الجرعة ستحرق أحشاء شهریار،  
كما اهترت بسببها الصفحات القديمة).

الحشود اقتربت الآن، بمسافة تجعلنا نسمع الكلمات  
التي تهتف بها، كما لو أنها تعزيمات على إيقاع الأجراس  
والأناشيد الدينية والتراتيل. (الحشود: نحن جياع...  
ونريد الخبز... نريد الخبز... نحن جياع...) كما لو  
أنها مسرحية تؤدي في مكان مصون، لا نرى أبداً الحشود:  
في أدائها... بل أن حضورها الأكيد يتكرر بالصرخات،  
بالغناء، بالترتيل، بالأهازيج، بأصوات المؤذنين، وكلها  
خارج الصورة.

مداخلات الحشود مؤسلبية، ايقاعها ودرجة حدتها هي  
التي تحدد التصاعد الدرامي للمشهد.

الرجلان أصابهما الهلع، يدير الطبيب رأسه صوب  
النافذة، دون أن يتحرك من مكانه. بينما ينهض الوزير  
ويتوجه ليرى ماذا يدور في الخارج. من خلال واجهة  
زجاجية ملونة بالبرتقالي والبنفسجي برسوم مؤسلبية (مكونة  
من قطع صغيرة كالوسيطي مثلاً) ثم «ترافع» دائري إلى  
الخلف، فنرى الرجلين: والد شهریار قرب النافذة بينما  
الطبيب يحاول النهوض بصعوبة نظراً لبدانته... الطبيب  
(ماذا يريدون إن كانوا جياعاً؟... ما عليهم سوى إلا أن  
يشتغلوا... لنخلص من هؤلاء القرامطة!.. ينبغي أن  
يغرقوهم في بحر دمائهم، كما فعل الموفق ضد الزنج، إبان  
حكم المعتمد... آه... كانت تلك أجمل أيام...)



(الطبيب لقطة متوسطة) يبعد عن النافذة. متراجعاً: دون شك تجنب نفسه نظرات الجماهير. الطبيب ظهره للكاميرا، يتحرك نحو باب في آخر الغرفة يطل على الزقاق... (ترافلنغ خلفي) يفتح الباب (لقطة عامة) وينظر إلى الخارج قبل أن يخرج. الوزير في المستني الأول من الكادر. يبدو عليه الهلع يفكر في طريقة للهروب. يقطع الغرفة (في لقطة عامة) ويتوجه نحو الخزانة، يفتحها ويضع فيها المخطوطة نصف المحترقة. يغلق الخزانة عدة مرات، ويخفي المفتاح في يشم صيني بديع موضوع فوق الخزانة ثم يتوجه بأسرع ما يمكن نحو الباب الذي تسلل منه الطبيب ويقفله. ثم يتوجه نحو الكاميرا. فيما تزداد حدة هتافات الجماهير.

يتناول الوزير برنصه الرحب المزركش المعلق على الحائط، ويتمم بين أسنانه وهو غاضب محتد... (الوزير: متمماً) أما هو فيلعب مع البيغاوات، ويربي قرداً مفسوداً، ويعذب ابنتي مضطراً إياهما، لن ترويا له... (لا يكمل جملته). يتناول معطفه على كتفيه، ويخرج مسرعاً من مخرج آخر على اليسار. (ترافلنغ خلفي) يمر أمام صناديق القمامة (لقطة متوسطة) فيما بدأت الضربات على باب الزقاق... لا يتوقف في مشيته، يواصل، يعبر أمام اصطبل، ثم فناء ويفتح باباً منخفضاً يطل على الاصطبل، حيث نلمح ثلاثين حصاناً بديعاً. يتوقف الترافلنغ الخلفي - لقطة متوسطة ثابتة على الباب (الجماهير) صوت خارج الصورة (افتحوا... أيها الأقدار الفاسدون... الشعب

جائع وأنتم تعيشون في التخمة (لحظة صمت. ثم صوت واحد يقول). هل أخلع الباب إذن؟؟. لحظة صمت تتبعها أصوات الخيالة التي تضرب المتظاهرين... أصوات أجسام تقع... صراخ... حشرجات... اصطكاك سيوف). نسمع ضربات فأس... لكن الوزير نجح في عبور الباب...

### قصر شهريار - نهار داخلي

الخادمة شوشانة تغلق باباً وتدخل إلى الغرفة. (لقطة متوسطة عريضة)... إنها خادمة عجوز، سوداء، طاعنة في العمر والتجاعيد، قاسية الملامح. مرتدية ثوباً أسود. على رأسها منديل يمسك شعرها. أسود اللون أيضاً. تمسك شوشانة بملعقتين صغيرتين طرفهما على هيئة ذيل الثعبان... ووعاء ذا أربع أرجل على هيئة أرجل الفيل. تتدلى مفاتيح القصر من حزامها، بشكل يدل على أنها سيدة القصر الحقيقية وأنها مديرة المكان الأولى... تعبر الغرفة من اليسار إلى اليمين (بانوراما) لدى مرورها قرب خادمة شابة بيضاء، تنظف أحد المقاعد، وتعطيها شوشانة الملعقتين (شوشانة بلهجة لا تقبل الجدل) خذيها إلى المطبخ... اخبري بلال أن يشتري ألف شمعة... الملك يستعمل الشمع حتى في عز النهار وفي وسط الحديقة... لا تنسى أن تنظفي قفص البيغاوات... ينبغي تنظيفه مرة كل ساعة... آه... كدت أنسى الموز ينبغي أن يرسلوا لنا قنطاراً... قرد صاحب الجلالة لا يفضل عليه طعاماً...

هو ليس كالصقر... ذلك تلزمه عشرة أرتال من اللحم  
النّيء... (بفخر) هذا بهيم حقيقي.

تنفذ الخادمة الأمر، تخرج وهي تحمل الملعقتين  
المرصعتين. مع تحرك شوشانة نكتشف القاعة الكبيرة  
وأثاثها المترف: المقاعد عالية، منحوتة من الخشب النفيس  
(مثلاً: ما هو معروض في المعرض الدائم للأثاث  
الإسلامي بمتحف نيويورك (نيويورك 12 - 4 - 1928  
حسان) الموائد: منخفضة، وعالية دائرية، ومربعة... كلها  
مرصعة، ثمة صندوق كبير أثري مشغول. تقترب شوشانة  
(ترافلنغ خلفي) من الصندوق، تضع فيه الوعاء البرونزي  
ذات الأرجل الأربع كأرجل الفيل. (مثال: المعرض الدائم  
للأثاث الشرقي بمتحف غيمته في باريس)... تقوم ببضع  
خطوات إلى اليسار فتصبح بجوار باب خلفي تفرع عليه.  
تنحني. «شوشانة: يا صاحب الجلالة...» - شهريار:  
(صوته خارج الصورة) «ماذا تريدن أيتها المشعوذة العجوز؟»  
(صوته ينبىء بتعكر مزاجه) شوشانة: «سيصل الوزراء  
قريباً»... - شهريار (صوته خارج الصورة) «الآن؟... آه  
لم يبلغوني...» شوشانة: «علمت بوصول الوزير الأول  
والد زوجتك إلى البهو الشرقي»... شهريار: (صوت  
خارج الصورة) (ينفجر ضاحكاً): «آه منه... أعرف سبب  
لهفته على مقابلي... لديه وسواسان. القرامطة...  
وابتاه...» (يضحك ضحكة عصبية مدوية).

تلتفت شوشانة هادئة بوجهها الذي لا ينم أبداً عن

شيء... وتتوجه نحو اليمين، حيث نرى الخادمة الصبية وقد عادت تنظف المقعد العالي إياه... (حركة ثلاثة أرباع بانورامية من الخلف في لقطة متوسطة) الخادمة بظهرها نراها الآن تنظف المائدة الموضوعة بجوار المقعد العالي... تعبر عنها شوشانة ثم تتراى لها فكرة مفاجئة، تتوقف وتلتفت نحو الخادمة الصبية. (شوشانة في المستوى الأول ثلاثة أرباع بظهرها) شوشانة: «هل عندك مفتاح السرداب السري تحت الأرض؟» - (الخادمة تلتفت إليها. لقطة متوسطة للإثنين) «نعم يا سيدتي»... (شوشانة بجفاف ويأمر) «هاته... واحذري... لا، فإن الملك سوف...» (لا تكمل جملتها).

تمد شوشانة يدها بدينامية... الخادمة الصبية في أول سن بلوغها، تخرج المفتاح من جيب في ظهر ثوبها... في سلوكها الخضوع لكننا نلمس إنها تخزن المآسي المريرة السوداء... تعطي المفتاح لشوشانة، التي نراها في لقطة متوسطة ضيقة وهي تعلق المفتاح الذهبي الكبير بحلقة المفاتيح التي تتدلى من حزامها، وتقول بلهجة سلطوية... (شوشانة: «هنا في القصر... أنا موضع ثقة الملك... وأنا أحتفظ بالمفاتيح... (صمت)... والأسرار» عودة إلى اللقطة السابقة. الخادمة في المستوى الأول من الكادر... الخادمة بصوت خفيض وجل «علماً بأن سيدة القصر يجب أن تكون الملكة شهرزاد»... تلتفت شوشانة وقد ضربها الدهول بسبب جرأة ووقاحة الخادمة الصبية... تجيب

بلهجة قاسية وبصوت صارم... (شوشانة: أنا التي أغسل فتحة استه بماء الورد بعدما يقضي حاجته... أنا وليست شهرزاد ولا أختها المتصنعة التي لا مبرر لبقائها هنا، سوى رغبتها في أن يفض الملك بكارتها... وهي لا تكف عن تحريضه على ذلك بنظرتها الشهوانية).

تكف عن الكلام في هذه اللحظة الذي ظهر فيها أحد مهرجي القصر... نعرفه من ملابسه ومن وجهه المطلي قليلاً بالمسحوق. يحمل قفص الببغاوات الكبير يضعه دون أن يتفوه بكلمة على المائدة التي كانت الصبية تلمعها... يخرج من الكادر بظهره. تتابعه المديرية الزنجية بنظراتها.

لقطة كبيرة للبيبغاوات في القفص، طائرات، مرحات، في كل اتجاه. شوشانة (في لقطة عامة) تسترجع وضعها الأول وتنظر ملياً للبيبغاوات. لأول مرة نرى لمسة حنان في وجهها، وتبقى حاملة، ترقب القفص، ثم لا تلبث أن تدير رأسها صوب اليمين.

لقطة متوسطة: شهريار يخرج من غرفته ويدخل القاعة.

لقطة عامة: الخادمة الصبية تخرج ساجدة وخرقة القماش في يدها.

لقطة متوسطة: الملك شهريار (بروفيل) عيناه متخمتان بالنعاس... مرتدياً جلباب نومه المصنوع من الحرير الخفيف، باللون البنفسجي... يضاعف علامات التعب الظاهرة على تقاطيع وجهه، ويرد الوجه أكثر شحوباً وصفرة. يرتدي على رأسه عمامة كبيرة تفيض بمبالغة على

محيطها فتلتهم نصف وجهه . . . عمامته بلون الزعفران . . .  
يمشي بخطوات بطيئة، ثقيلة، نحو المرأتين اللتين لحقتا  
به . . . تنهض الخادمة وتخفض رأسها عندما يحدق فيها  
الملك بشبق. (عمرها لا يتجاوز الإثنتي عشرة، ووجهها  
ملائكي، نقي الجمال). . . تصبح في الوسط ما بين شهريار  
وشوشانة. خلفها، نلمح قفص البيغاوات المغردة. شوشانة  
والملك شهريار وجهاً لوجه. (كلاهما بروفيل للكاميرا). . .  
يبدو أن الملك قد فهم أن المديرية قد وبخت الخادمة  
الصبية.

شوشانة (لقطة متوسطة) تشعر بأن لدى الملك ضعفاً  
تجاه الصبية ورغم معارضتها لذلك، تحتفظ بمظهرها  
الخارجي الهادئ وتهدئ دفاعها . . . شوشانة: «لقد تقدم  
بي العمر كفاية يا شهريار. فما عدت أطيق الكثير من  
الأشياء والنزوات الصبية . . . وظهري ينوء من حملك  
الثقيل . . . أرفض عليك أن تتخذ موقف الدفاع عن هذه  
الصبية . . . دعها وشأنها . . . لم تبلغ بعد . . .».

عودة إلى لقطة متوسطة للثلاثة. يحدق الملك في  
الخادمة الصبية. ثم يلتفت نحو شوشانة، يحيط كتفها بيده  
اليسرى، يميل نحوها بحنان، يمسك يدها اليمنى. ثم يبدأ  
المداهنة . . . شهريار «أنا تربيت على يدك . . . لم تكن لدى  
أمي في ذلك الوقت لتهتم بي . . . وأنت . . . أنت أيضاً  
علمتني كل الرذائل. (مفتون يلقي نظرة من فوق كتف  
شوشانة، على الصبية الخادمة). . . أليس كذلك

باشوشانة؟... الآن دعي هذه الصبية وشأنها... إنها تشبه  
الندى على وردة من اصفهان... يصعب عليها أن تخدم  
في قصر الملك شهريار الشاسع... اعطها فرصة  
للتأقلم... وأعدك بأن ألزم التعقل...» (يضحك).

يتقدم صوب الخادمة الصبية (في لقطة عامة) يداعب  
خدها بشهوة... فتحمر الصبية من الخجل ولا تعرف ماذا  
تفعل. في وجهها كل الحرج. (لقطة كبيرة على بيغاوة فزعة  
وهي داخل القفص) - (عودة إلى اللقطة العامة).

تلقت الصبية بحدة وتذهب نحو النافذة الكبيرة وراءها.

عودة إلى شهريار (لقطة خاطفة) ثم إلى شوشانة التي  
تغادر القاعة وهي بين الاستسلام والتواطؤ. (لقطة مقربة  
لوجه شهريار) يشيع شهريار شوشانة بنظراته، ثم يعود ينظر  
إلى الصبية. ثم يبدأ يداعب نهدتها... شهريار: «أنت  
جميلة فعلاً... هل تذكرين ذلك على الأقل؟... لا  
تخافي من شوشانة العجوز... صحيح هي سوداء البشرة  
لكن قلبها أبيض نقي كثلج خوراسان...» الصبية في حدة  
عصبية.. لا تتحرك، تستسلم خائفة، يكسوها الخجل.  
يكف شهريار عن جس الخادمة. يبتعد ويخرج من الكادر  
من اليمين... تبقى الكاميرا لحظة على وجه الخادمة الذي  
يفوح منه الألم والحزن في آن واحد، تند عنها زفرة انفراج  
خفيفة... ويستعيد وجهها حالته الطبيعية بالتدرج.. ثم  
تخرج بدورها من الكادر.

ريق. نهار - خارجي

لقطة عامة: وزير شهريار (والد شهرزاد) في وسط حقل بالقرب من أحد الحواجز يتقدم بجواره بصعوبة وهو يتكىء على كل وتد فيه تقريباً... يتلفت وراءه فيما نكتشف في عمق الكادر كنيسة بيزنطية، وفيما نستمع دائماً إلى رنين الأجراس وأصوات المظاهرة... يستعد الوزير لعبور الحاجز... في مقابله يبدو قصر شهريار في البعد، خارج المدينة (في لقطة عامة، مقربة بانورامية). من جديد لقطة عامة للوزير المنحني والمهموم يخبىء وراء جزء من الحائط الذي يحتل المسافة اليمنى للشاشة.

حائط قديم تنعكس عليه ظلال أوراق الشجر. بعد تردد. يدور الوزير العجوز حول حافة الحائط، ويمشي بمحاذاته متجهاً إلى اليمين. ما زلنا نسمع الأجراس من بعيد، كذلك المظاهرة، والهتافات الدينية والتراتيل القرآنية وصوت المؤذن الأجرس. المتقطع. (إلى يسار الكادر جذع شجرة في لقطة كبيرة).

قاعة الشرف بقصر شهريار... نهار - داخلي.

لقطة عامة عريضة: شوشانة والوزير العجوز بظهره. الرجل جالس والمديرة واقفة (الوزير: ماذا يفعل الملك؟) ينهض بعصبية. يتجه إلى النافذة كما لو أنه يريد أن يتأكد من أن المتظاهرين لم يبلغوا القصر الملكي بعد. ظهره للكاميرا... (شوشانة: آه... ها هو...). تلتفت نحو الوزير الذي نرى وجهه الآن مرهقاً منهوكتاً.

لقطة كبيرة على وجه شوشانة. إنها تشعر بالتفوق



والضعيفة إزاء الوزير. إضافة إلى كونها لا تحبه أصلاً ولا تحب ابنتيه. (الوزير: وأخيراً... ) يطل شهريار من وراء فاصل خشبي متوسط الارتفاع. (مثل البرافان) وقد وشي برسوم على طريقة كبار هذا الفن الياباني (مثلاً: رسم من هاكوساي). لقطة كبيرة أمريكية: الوزير يتجه نحو الملك. لكي يستقبله لدى دخوله القاعة. أي فور ظهوره من وراء الفاصل الذي يوجد في رواق يؤدي إلى أحد غرف القصر. (شهريار: ما بك؟... يبدو عليك أنك لا تملك زمام نفسك... أهأ! الببغاوات بخير... والقرد أيضاً... وابتناك شرحه... (ينفجر ضاحكاً مسروراً بنكته).

يتجه الملك بصحبة وزيره نحو طاولة عليها سجل التشريفات (ترافلنغ خلفي يمين - يسار) يجلس الملك على مقعد عال، له درجة... موضوع قرب الطاولة على اليسار بشكل جانبي. يجلس الوزير قبالة على كرسي صغير، غطي ظهره بمخمل لونه أحمر رماني. الوزير: «الأمر لا يتعلق بابنتي... ولا بالقرد ولا بالببغاوات...» - شهريار: «أعرف... اليوم موعد مجلس الوزراء...» - الوزير: «لن يحضر أي وزير يا مولاي... المظاهرة تعصف العاصمة...» - شهريار: «وإذا عصفت؟... أهذا ما يجعلكم تضطربون؟... يا للجن... اعطوا الأوامر للجند بالضرب... على كل حال، أظن أن كبار الضباط قد فعلوا اللازم... هم لا يهرزون لأدنى الأسباب...».

نسمع صوتاً كأنه خريشة... يرفع الرجلان سويماً بصرهما

نحو سلم خشبي في أقصى اليمين في قاعة الشرف. (لقطة أميركية مواجهة). نسمع أصوات أشياء تسقط وصوت الخربشة يتضاعف. القرد، الذي رأيناه في الحلقة السابقة، يتدحرج على السلم، مسقطاً في الوقت ذاته الأشياء التي تحمل الدرابيزين (مزهريات من برونز، صحنون من فضة... الخ) مدحرجاً إياها أمامه.

القرد خائف من الأشياء التي تتدحرج أمامه. يصل إلى أسفل السلم، ويعبر قاعة الشرف مسرعاً على قوائمه الأربع ويرمي بنفسه في أحضان الملك الذي يتلقفه ويضمّه إليه وينفجر ضاحكاً.

شهریار: «إهدأ لا تخف... كفت عن هذه السخافات يا مسعود... يا حبيب قلبي... يا روحي».

لقطة كبيرة: الوزير الأول مدهوش ومذهول من استهتار ولا مسؤولية الملك شهریار.

قصر الأخوات الثلاث: ليل داخلي.

لقطة عامة: الأخت الصغرى جالسة على الأرض، تحيط بها الكلبتان وقد امتزجت أجسادهما... القاعة خالية.

لقطة مقابلة: من وجهة نظرها: الأثاث، مظاهر الحفلة، ركن الماء... الخ.

لقطة متوسطة: الصغرى من ظهرها... تنهض تقود الكلبتين... مع متابعتها في طريقها نرى آثار ما جرى في تلك الليلة المشهودة... تدخل في رواق، والكاميرا تتبعها. تمر أمام لوح (بانوه) من الزجاج المزخرف والمرسوم من جانبه. تخرج إلى الحديقة.

حديقة الأخوات الثلاث. ليل داخلي.

ما أن تطأ قدمها الحديقة، حتى نرى إلى اليسار: علامة من الخشب، مزروعة في الأرض، الصليب، يرتبط طرفاه الخلفيان بطرفيه الأماميين بواسطة لوح صغير.

«فلاشباك»: الصغرى في لقطة مقربة وراء الزجاج.

عودة إلى الحديقة، حيث ترفرف مجموعة من المشاعل هنا وهناك، فتجعل بعض المناطق مظلمة، والأخرى منيرة.

لقطة كبيرة: الظل الكثيف للصليب.

«فلا شباك»: المرأة الموثقة إلى الصليب، جسدها عار تماماً ودام... (راجع الحلقة السابقة).

عودة إلى الحديقة: الصغرى مع الكلبتين وهما تنبحان بهرح. لقطة كبيرة: شفق احدهما، وعيناها اللطيفتان جداً.

ثم لا نلبث أن نرى: الأختين، هارون الرشيد وصاحبه، والعبيد السبعة، والأعور الثالث.

هم جميعاً جالسون على الأرض وعلى العشب في تلك الليلة الندية. الجو يسوده الإسترخاء.

كل واحد في وضع مختلف عن الآخر، لكن جو الاطمئنان يسيطر على الجميع فمثلاً، لا يشهر العبيد سيوفهم، بل نرى أياديهم خالية.

الموسيقى تميل إلى الشاعرية، فيما تظهر في الكادر، شجرة لوز مثمرة، وخلفها سماء صافية تغص بالنجوم.

الفجر يتسلل إلينا.

لقطة مشتركة: منحني في تلة، ونرى الصغرى تصعد، ممسكة دائماً بالكلبتين اللتين تهزان الذيل.

حركة بانورامية، تتوقف عند شجرة تين ممتلئة. نرى الصغرى مع الكلبتين (بعكس الليل) على خلفية تظهر فيها السماء أشد إضاءةً من ذي قبل، كما تبدو أوراق الشجرة سوداء. تعبر الصغرى وراء جذع شجرة التين الضخم. حفيف العشب والورق الذي يحركه الريح. «ترافلنغ» جانبي على البخيل المتلبد. الأعور الثالث، مسترخ على أربع، على العشب الناعم. (لقطة عامة) حركة بانورامية تتابع صغرى الأخوات وهي تتعد مع الكلبتين. لقطة مقربة على أوراق وجذوع الشجر. (التوتة؟).

لقطة بانورامية من تحت إلى فوق، نحو السماء تبرز كل شخصية.

جذع شجرة (حركة بانورامية من اليسار إلى اليمين) في أسفل التل. تقترب الوسطى من مهر صغير بديع، عليه كساء لونه أزرق على أسود لامع. يرقص المهر بين الشخصيات وهو يهز ذيله. (لقطة مقربة).

لقطة مقربة مع بانورامية خفيفة تجعل الأعور. الثالث وحده في الكادر سيتكلم. بينما المهر المجنون يدور حوله في حركات لا تنقطع.

هارون الرشيد وصاحبا، يشكلون ما يشبه الهرم الكويغرافي (لقطة متوسطة). الأختان أي الواحدة مستلقية على ظهرها، والثانية جالسة على العشب تلاعب أحصنة أختها التي وضعت رأسها على ركبتيها.

العبيد السبعة، بلا سلاح، يرقصون، يقفزون، يعزفون العود... طوال الوقت هم في حركة.

بينما تستعرض كل هذه الوجود، يروي الأعور الثالث حكايته (صوته خارج الصورة) بصوت عذب، ينسجم والجو العام السائد، الذي يجمع معاً: الشعر والرعبية والشبق. (الأعور الثالث): أنا سيداتي سادتي حكايتي تشبه حكايات الآخرين، غير أنني ما كنت في يوم ضحية ساحرة مشعوذة... ولأنني كنت أحب أن أكتشف العالم. أخذت لي السفر والترحال، رغم معارضة أبي، وهو تاجر موسر وفور من سمرقند... (سمرقند 12 - 7 - 1949 حسان). ذات يوم رأيتني في الصيف... واكتشفت هناك نفقاً محفوراً لي قلب الريف... نزلت فوجدت حديقة مخبوءة وراءها حديقة أخرى، وثالثة وهكذا دواليك... عددها... تسع وثلاثون بالضبط.

وعندما بلغت الحديقة التاسعة والثلاثين..

الآن: عودة إلى الأعور الثالث وما زال في وضعه، والمهر الصغير يدور حوله كالمجنون بلا انقطاع. (الأعور الثالث: رأيت مهراً صغيراً بديعاً، لونه أزرق على أسود، كسوته لامعة، لم أر مثله في حياتي. كان مربوطاً في الأرض مسورة بالخشب... دنوت منه لأحل وثاقه، لصفعني بعنف، بذيله على عيني اليسرى، فخبعها. ما كان يوسعني سوى أن ألم عيني التي سقطت على العشب، واكتفي بذلك. هرولت راكضاً... ذات يوم، تعرفت على

أعورين... عودة من لقطة عامة إلى الصورة السابقة، مع الأعور الرابع، والمهر الرائع الذي لا يكف عن الدوران حوله بصورة حصرية متكررة. ما أن ينتهي، نسمع خارج الصورة، على الشاشة البيضاء، صوت طفل وطفلة. (صوت طفلة: والكلبتين... لن ننس حكايتهما طبعاً... صوت طفل: لا.. لا.. تريشي... أنت الآن عديمة الصبر).

قصر شهريار - قاعة التعذيب... نهار - داخلي.

مجموعة من أعضاء المحكمة الدينية. كلهم يرتدون الأسود ويضعون على وجوههم أقنعة كبيرة برتقالية، يتفرجون على عملية التعذيب. يقوم بها الجلاد على رجل متوسط العمر قصير القامة. نحيل العود.

يدور المشهد التعذيبي فيما أعضاء المحكمة الشرعية يتلون آيات من القرآن، غير واضحة، لكن بصوت مرتفع، لتغطية صراخ الرجل المعذب...

لقطة متوسطة: اثنان منهما جالسان على الأرض. آخر يميل على مكتب (مساحته خمسون سنتماً). ورابع واقف يتكلم لعجوز جالس (تهتز يدها في رجفة بفعل السن).

في الخلف يمر إمام متمم حاسر الوجه، يتدلى كرشه أمامه.

نكتشف القاعة ونحن نتبعه. نسمع الصرخات مستمرة.

(الشخصيات والملابس والإضاءة، ينبغي أن تذكر بدقة، وفي آن واحد، بالمنمنمات العربية والفارسية حول الشهيد الحلاج، وبلوحات الكبار الهولنديين في القرنين السادس

عشر والسابع عشر حول محاكم التفتيش). طالب دين يعبر الكادر، يقترب من الإمام المعمم البدين، بهمس في أذنيه وهو يراقب مشهد التعذيب: (طالب الدين: سينتهي به الأمر إلى الاعتراف اه... رغم أنه عنيد).

نصل إلى حلقة أخرى تضم بعض الأشراف، والضباط والوزراء. بينهم نرى الملك شهريار، والوزير وأند شهريزاد. وقد جلس الجميع حول طاولة مرتفعة... نسمع صوت الجلاد خارج الصورة. (الجلاد: أأن تعترف؟ - المعذب: بلى - الجلاد: أخيراً... هذه بداية المحكمة...).

أحد الأشراف في زي ضابط، جالس عند حافة الطاولة. يبدو أنه هو الذي يتولى التحقيق. يلتفت نحو الجلاد... (الضابط: دعه...). لقطة كبيرة على وجه والد شهريزاد، وهو يتنفس الصعداء. (الوزير: أخيراً... يفتح الباب... يدخل رجل بيده أوراق، يتوجه نحو الآخرين. عودة إلى أعضاء المحكمة مرتدين الأقمعة الفضيضة... أحد الفقهاء يملي على أحد الكتبة، الجالس وراء مكتب صغير، في مقابلة... الإمام: (صوته مخنق بسبب القاغولة) فترك الجلاد الأسير، الذي كان معلقاً إلى كلابه، عندما صرح الأسير برغبته في الاعتراف... اعترافات كاملة... لقطة على الكاتب وهو يدون ويردد النص، مقطعاً، كما لو أنه يكلم نفسه، وهو يثابر على عمله بدقة متناهية... (الكاتب: إلى كل - لابة - عندما صرّح - برغبته في الاعتراف - ات - كاملة).

طالب الدين الذي كان قد دخل، يدنو من الشيخ الذي يملئ... لقطه على شهريار، الجالس عند وسط الطاولة، مترسلاً الأشراف والضباط والوزراء، ينظر إلى الأمام.

لقطة على الحائط المقابل للمكلسن، المورق، وقد تلتخ بالدم. كما ترى الجنازير والأدوات وأدوات التعذيب معلقة.

على مسافة أبعد نرى، جلاداً آخر (لم نره من قبل) يقف بجوار عجلة كبيرة. العجلة موضوعة أرضاً إلى جانب جانبها، لكن لضخامتها، تكاد تحجب نصف الجلاد... في يد الجلاد اليسرى فوطة... ثم نرجع من الجانب: الحائط حيث نرى الأسير المعذب... إنه عار تماماً. وجسده النحيل يشبه الحلاج كثيراً. أحد مساعدي الجلاد يعينه على المشي. يتقدم بصعوبة. عيناه زائغتان مليئتان بالدمع الذي يسيل بصمت يصل قبالة قضاة الشرع، ويقف أمامهم.

إلى اليسار توجد طاولة الملك وصحبه. يختلس المتهم نظرة إلى الملك وتتلاقى النظرتان لبرهة صغيرة.

أول المتكلمين هو الإمام العجوز، يخاطب المتهم (الإمام: إذن... إحك كيف هذه المظاهرة لتقلب السلطة الشرعية لملكنا؟ و - المتهم: نعم... أردت أن استولي على السلطة... هذا صحيح. الإمام: إذن... مسألة المجاعة كانت ذريعة؟ المتهم: (بدون اقتناع) نعم... نعم... لقطه للملك شهريار الذي ينظر إلى والد شهرزاد نظرة ساخرة. يتجنب الوزير نظرة الملك... ينهض شهريار



ويتوجه نحو وزيره (والد زوجته) ويهمس في أذنه...  
(شهریار: هذا المقل يخیفك؟... آه... أي جبان  
أنت... أما قلت لك إن القرامطة... يتوقف فجأة ويلتفت  
نحو أعضاء المحكمة الشرعية: ويصرخ: (شهریار:  
كفی... لقد طال الأمر... (يلتفت إلى الجلاد: إقطع  
رأسه!).

قصر شهريار - غرفة الملك... ليل - داخلي .

ننتقل مباشرة من جو محاكمة رئيس المتظاهرين، ذلك الجو الكريه الرهيب، إلى الجو المخملي المليح في غرفة الملك حيث شهرزاد جالسة على صوفة، قبالة الملك، الجالس هو الآخر على صوفة ثانية من لون مختلف، الزوجان متربعان... شهرزاد تتكلم، تكمل حكايتها (شهرزاد: مولاي، انتهى الأمر بالأخوات الثلاث إلى اطلاق سراح الجميع. لكن هارون الرشيد الخبيث، لم ينس الدار فما أن عاد إلى قصره مع طلوع النهار، حتى أرسل الجند الذين ساقوا الفتيات الثلاث، فمثلن في حضرة صاحب الجلالة الأمبراطورية. كان الملك يريد أن يعرف سر الكلبتين. فقالت الفتاة الكبرى آنذاك...).

قصر هارون الرشيد - قاعة العرش .

يستوي هارون الرشيد على عرشه، وقد بدا وجهه مرهقاً من سهرة البارحة. على يساره: جعفر البرمكي إلى يمينه مسرور. وخلفه أعضاء البلاط. أمامه الفتاة الثالثة. ما

زالت تمسك بالكلبتين. (الفتاة: خافضة الرأس،  
مولاي... هذه حكاية طويلة... يلزمني وقت مديد كي  
أحكيها... صوت (خارج الصورة)... نسمع الأطفال  
بتهامسون... (طفل: أوف) وأخيراً... هل تروي لنا  
سر... سر الكلبتين... هه) - طفلة: أنا بدأت أخاف...  
طفل: جبانة أنت جبانة...!

(عيني بترف يا حبة عيني... ثم: بلاش تبوسني في عيني دي البوسة... ثم: اللي انكتب على الجبين لازم تيشوفو العين...). وتدور اللازمات وتدور غارزة في الذهن رقاقاتنا وفلذاتها وكسراتها، وتغلي في الدماغ غلياناً وتفتت الشرايين تفتيتاً. أحاول التخلص منها ولكنها تعود لتوها بلا هوادة، تتكرر تدور وتدور، تتلوب، تجز الأعصاب وتحزز خزف الذاكرة وتجرحص الفم فيمتلىء من الماضي كأفواه بالتراب. أصبر مسامياً. قصاصات الأغاني املؤها شطوباً وتشطيباً إلى حد الابهام والألم... تختلط الأصوات بالأصوات والرنات (عيني بترف يا حبة عيني) وتنقلب هيروغليفية فريدة من نوعها ورموزات خرافية فتفتح مجالاً من التيه فسيح الأرجاء وعميق المنبع... (بلاش تبوسني في عيني) وأخي عبد الله يستمع إلى هذه الأغنية ويبكي في الطابق السفلي «لمقهى الجزائر» وقد منع عليه أبي أن يطأ أرضية قاعة الحفلات في الطابق العلوي... يسمع وتدمع عيناه لأن المغنية اليهودية التي تقلد كل الأغاني الشرقية

المحبوبة آنذاك كانت متعلقة به وتحبه سراً وكتماناً، خوفاً من ردود فعل صاحب المقهى ذلك الأب الذي أصبح رمزاً للغياب وهو في ترحال وتسفار، يرسل البطاقات البريدية الواحدة تلو الأخرى. دون أن يكتب عليها ولو كلمة واحدة تعبيرية، يصرح من خلالها عن عاطفة أو حنان أو رقة أو صبوة أو أي شيء من مثل هذه الأحاسيس، أو أية غريزة من أنواع الغرائز، ما عدا اسم المكان (القاهرة، اسطنبول، البندقية الخ...) ثم دليل الزمان (التاريخ) وأخيراً الإمضاء (حسان)؛ ذلك الأب الذي كان يرفض أن يحضر ابنه البكر تلك السهرات الغنائية التي كان يحتويها الطابق العلوي - خلال ليالي رمضان فقط - من «مقهى الجزائر»، ويبقى الشاب متلوعاً وحببته ترسل إليه بأغانيها (عيني بترف يا حبة عيني) إشارات وميضية ملؤها اللوعة والصبابة والسويداء. خاصة وان الحواجز الحائلة دونها ودون الابن الضال شاسعة لا تقاس (المستوى الاجتماعي، الدين، الأخلاق (وهي المغنية العاهر، وهو الطالب العبقري ابن فلان)؛ لا تغني إلا له، رغم حماس الجمهور المتراص داخل القاعة المبنية في الهواء الطلق، والتي تهب فيها نسمة الصيف الخفيفة وموجة الشبق الرجالي الثقيلة، فتعيد الكرة بعد الكرة ويختفي عبد الله وراء خلفيّة المقهى ويقارع الكحول من فم زجاجة صغيرة مربعة الشكل مسطحة الحجم كان يخفيها في جيب سرواله، وذلك في عز شهر رمضان وكأنه لا يستفز شيئاً ولا الدين والأئمة ولا المتعصين من

أهلها، لا هم له سوى الانتقام من ذلك الأب العاهر،  
الفاسق، المدمن على الزنا، المتهوجس لكل ما يتصل بأثني  
مهما كان سنّها وبالجنس هوساً وصل إلى حد الغيرة من  
ابنه فيمنعه من الاقتراب من تلك المغنية اليهودية الجميلة  
الشابة، رغم كل العشيقات اللواتي كن دائماً تحت تصرفه  
الخاص (من راقصات ومغنيات ومطلّقات وأرامل ومومسات  
أخرجهن من المواخير وزجّ بهنّ في بيوت أنيقة...) ورغم  
الحبيبات الأجنبية (خاصة منهنّ الأنسة روشي، مديرة  
عيادة المسلولين في المستشفى الرئيسي للمدينة والتي  
كرست حياتها لحبه ولشفاء الفقراء الذين تسلل فيهم السل  
منذ ولادتهم فما زالوا به مصابين وبه تفتت رثاتهم...)  
من كل أقطار العالم وأمصاره... عيني بترف يا حبة  
عيني... بلاش تبوسني في عيني... اللي انكتب على  
الجبين لازم تشوفو العين... أراك عصي الدمع...

الأفق الوردي يرسم خطأً دائرياً. انتقل من تأويل ألف  
ليلة وليلة إلى محاولة ربط الخيوط المتراسة للنسيج  
العائلي، بينما أبي في حالة احتضار يخرج منها حيناً ثم لا  
يلبث أن يسقط ثانية في نوع من الغيبوبة الخفية أو الغياب  
البعيد (هو الذي كان ينتقل من بلاد إلى أخرى ومن امرأة  
إلى أخرى. ما عدا مدة شهر رمضان حيث كان يستقر في  
المقهى ويضرب على أخي الأكبر الحصار فيحول دون  
اتصاله بتلك المغنية اليهودية التي سقط في غرامها...)  
تأول إلى تجويف (تجويف الواقع وحفره بازميل المنطق



وتطعن الجيفة، تريد توضيح وبلورة الكثير من خفياتي ومخفياتي حتى تصل إلى اللب، إلى تلك النواة الصلبة التي يتهافت وراءها اختصاصيو التحليل النفسي وبيحثون عنها دونما جدوى! كان الهوس يتغلب على ذهني إلى درجة اليقين فجأة. الاقتناع بغتة بأنني سوف لا أذهب بعيداً في هذا الفخ العائلي الذي كثيراً ما بهرني (وكأنه عبارة عن نوع من الانتحاء الذي يجذب الأعضاء النباتية إلى جهة ما بتأثير عوامل فيزيائية أو كيميائية) دون غيري من أفراد العشيرة وقد رحمت أسمع ضحكاتهم الهمجية يضخمها الصدى من خلال ضجيج جنوني، جوهره الطبوغرافي وعمود ارتكازه الفضائي - الزمني أشد رهبة مع سطور المخطط الصعب الذي كنت قد رسمته منذ عهد الرشد للانبثاق بطريقة مبرقة ملعلة من خلال هذه المادة المتراكمة من الوحل والدم والقيء والقيح والبراز والتسمين والسماذ، ومن كل المواد المتعفنة الأخرى، كل سطور المخطط هذا وهي تلتوي وتعج ملتويات وترجات تعطي الذاكرة رغبة شديدة، لا مناص منها، في تقيؤ فائض الاحساسات التي عشتها بطريقة مبهمة منذ الطفولة وهي تتكدس بعضها فوق بعض، بما يشبه تلك الخطوط السوداء الحمراء والزرقاء والحمراء من جديد وإذا كانت هذه المرة مرقونة بنوع من الحمرة، ثم أسماء لا معنى لها، ثم كلمات ثخنة، ثم أرقام التواريخ المكتوبة على البطاقات البريدية وأرقام الهاتف (المسجلة في ذاكرتي) لا كبح لي ولا قدرة عليها فيولد هذا التشابك بين



الخطوط المحيرة (الكتابة؟) والأسماء والكلمات والأرقام، يولد تشابكاً كمشكاة صوف تزغب الواقع وتقطئه وتقطفه وتسبغه، ثم تلولبه وتكوره وتجزئه قطعاً غير متساوية شكلاً وحجماً ولوناً، فائضة هنا وهناك، غائرة أحياناً متعنتة مع ذلك في الاستيطان داخل الأحشاء والأمعاء وحتى بين الضلوع، وفي احترام حد أدنى من الدائرية والتفوق وان كانت هشة، فأسمي كل هذه التورمات والتشبيكات والتدويرات والتكعيبات؛ الخوف! ثم كذلك: عيني بترف... عيني بترف... عيني بترف... (ايقاع الغنية يتدحرج من أعلى الصخور الإنسانية وذذببتها، والمغنية اليهودية ولم تتجاوز سن المراهقة بكثير (يقول الأب: فحبة! عاهرة! يهودية... وأنت تعشق... الله! الله! وبضحك، يفهقه، يزمجر... سيدي يعشق... آه! آه! فحبة! ويهودية! وكفى بالله سيلاً...) تصرخ وفي صوتها بحة الاحتلام... (عيني بترف...) تموج الجو والجدران وحتى أجسام المشاهدين (كان اسمها: هانا راشد) وخاصة جسده هو (عبدالله) وروحه ونخاعه، ووجهه يمتلك آنذاك وقد أخذ السكر منه مأخذاً (شهر الصيام في وسطه!) تلك الملكة التي تمكنه من خلق علاقات لا مرئية تصب فيه وتتلاقى عنده. ثم تنعكس فيه وتضرب جدران عاطفته ومن هنا تطير نحو المغنية المراهقة وهي على الخشبة كأنها تذوب في دوار تغمره البهجة والزقزقة... (العصافير لم تعد بعد إلى داخل التوتة، إلى قرميد السقف المقابل) التي

تجذب كل الرجال بكيفية مغناطيسية نحو (خاصة نحوه هو ابن صاحب المقهى وصاحب الشأن) ملتقى النقاط ومفترق الطرقات ومركز الكون كما يجلب الحباب في الليل وأعين القطط ساعة الأصيل، ونظرة الأم (زمن الالتقاء بمريم (ماريا؟) والأشجار الطفولية (ليس فقط التوتة في البستان الشاسع!) والصابورات المدرسية (المعلم السيد الزغواني الذي لقنني حروف الهجاء، وكنا نهابه لأنه أخرج في اليوم الأول للموسم الدراسي، زجاجة من الكحول (90د) ومقصاً لامعاً وعلبة من القطن، وأخبرنا بكل تمهل وبرودة دم، أنه يقص لسان كل تلميذ تسوّل له نفسه الثرثرة في القسم، ودليل ذلك وجود المقص وزجاجة الكحول وعلبة القطن!)... في دوار؛ إذن تغمره البهجة والزقزقة والشعشة والضوضاء والمرح (للتظاهر فقط، إذ قلبها يبكي ويدمي وهي تعلم أن حبيبها لاحق له في الصعود إلى القاعة حيث...) فتصبح هي نقطة الضوء الفضائي حيث يحلق الجمهور من حولها كلما جاء دورها للغناء فيتسرب منها نوع من الجلاء والوضوح والبراءة وسيطر على الجو مثلما تتسرب الشظية (يا حبة عيني...) تحت الظفر، أي تحت قلب أخي الأكبر (عبدالله) فلا يمكن لأحد ولا لشيء (ما عدا حرارة الكحول) اخراجها من هناك وكان العالم - والطفلة اليهودية تغرد - يتغير فجأة ويمتلئ بضوضاء العظام البشرية، تتبعه أينما شب وذهب وأينما راح وصد، فيبقى هكذا مهباً للرياح والعواصف والأعاصير (العاطفية)

والقارورة في جيبه، يتجرع منها خلصة الجرعة تلو الأخرى، فيحاول تحت تأثير الخمر وعذوبة الصوت، الإلمام بكل هذه الأشياء المتلاشية (أبوه يمنعه من الاقتراب من الفتاة اليهودية وهو يعلم أنه تزوج - سرّاً - من امرأة يهودية كانت تأتي لتفصيل وخياطة فساتين الأم، وقد أنجبت له طفلين (ذكراً وأنثى) المتوبرة، السماقية التي تفلت منه، فتزلق تحته وهو سكران سكرتين اثنتين: الكحول والصوت (مزيج من بذار ونسغ ومرونة واكسير حليب اللوز المختلط بالملح والخل والحمض واليود، غريب المذاق، فيه مرارة النحاس وطعم الحديد ورائحة الدم الشهري والقبلات المتريلة المسروقة من شفاه بنات الأعمام أو الخادמות الصغيرات أو...).

كل هذه الانطباعات المستكملة بزيادات وعقد ومعنيات وعينات ومربعات وان كانت هشة نوعاً ما فهي - مع ذلك الاختلاف الشكلي واللوني ومع كونها أنها تتضخم تحت خميرة الذاكرة الحامضة - تكون أكثر أساسية وأكثر تقلصاً حول نفسها بتجاوزات عديدة، تكتفي بالانطواءات الضرورية لعيشها وتوالدها الأبدي، تكتفي بتكديس دوائر الأوهام المتركرة المتجمعة في هشاشة داخلية لا تفقد بالضرورة ضراوتها وراثيتها ورطوبتها، لأنها تبطل كل أمل في العثور على مركز مثل هذا التوسع الوسواسي الذي لا يعبر إلا عن درجة التقعر اللازم والاستنقاع داخل رواسب الأحلام والكوابيس وأعقاب الذكريات المناقضة المتراكضة لا شيء

إلا للعثور على نوع - نهائياً - من التوازن الخاص والسعادة الحميمة والذاتية، لكن التطابق الحقيقي لهذه الشبكة المتشعبة المتفرعة من الأوهام والأحداش والاحساس الغامض وكلها (الأوهام والأحداش)... بعضها مع بعض، وتتوقف هنا حيث لا أنتظر ذلك منها، تتقاطع ضاربة عرض الأشياء الصلبة، متجاهلة كل القوانين الهندسية، تتجاوز، تتفرع، تتضاعف، تتقلص الخ... خاصة وان الذاكرة بالمرصاد لكل هذه التفاهات وهي مستعدة دوماً للانطلاق في فيافي اللاوعي واللامقصود وفي مستنقعات الحوادث البشرية وخساستها وبؤسها وهزالتها وفراغها ومسكنتها؛ وان كانت - كذلك - قادرة على العودة للتقلص بالتواء في عمق الأشياء ولحمتها؛ لكنني أشعر بالأمور تفلت من بين أصابعي من جديد وذلك بمجرد حضور الأنثى (مريم)، يدوخي عطر جسدها، وأنا أعرفها معرفة جيدة: دائماً ساهرة لتعلن حالة الطوارئ عند أدنى محاولة لمزج حكايتي بقصتها. لكنني أعرف كيف أتعامل معها لمعرفتي بنفسيتها...

لكن: الأفق الوردى يرسم خطأ دائرياً. لا يزال المطر الصيفي يرسم خطأ دائرياً من وراء زجاج النافذة المغلقة، فيتبين لي أن ضخامة التوتة وقربها قد تضاعف تحت تأثير السيل الطوفاني. يتهاوى الليل منحللاً في الفضاء: عيني بترف يا حبة عيني... عيني بترف... يا... وأنا أعرفها! سوف لا تتركني أنزلق هكذا بين طيات الأشياء والحاجات.

قالت حدثني عن الجنازة وكيف مات ولماذا! قلت عمن  
تحدثين؟ ما بك أهملت؟ عادت العصافير إلى التوتة. توقف  
المطر. تورد الأفق من خلال الاخضرار المبلول، المتشبع  
ماء... صمتت بضغ ثوان ثم:

حدثني عن جنازته.

لا شيء يقال! جنازة ككل الجنازات.

لا! حدثني يرحم والديك...

جنازة!

من فضلك يا روحي...

ضجرت من هذه الكلمة... روحي... ابهامي...  
كانت تلقبني بابهامها لقصر قامتي. أنا ابهامها الصغير  
وروحها...

لم أتذكر من يوم الجنازة شيئاً. أو القليل: مضغة من  
الانطباعات الصوتية، فقط! بين عويل وترتيل وجذام البوابة  
الحديدية التي لا تنقطع عن الصرير على فرديتها وكأنها تن  
تحت ضغط الألم، وتختلط الرنات والترنيمات والموسيقى  
والصدى في ذهني والمأتم مفتوح لكل الناس كباب الدار،  
واخترق عتبه القرض والقضيض ومن لا يحبهم أخي، لم أر  
أحداً أو حاجة ولا يبقى من تلك الأيام سوى وتريات  
حزينة، وقد احتجزنا نحن الصغار في قعر البستان. مهدي  
يتسلق شجرة التوت ويحاول أن ينظر إلى داخل الدار. لكنه  
لا يرى ما فيها. سعيدة تقول لمهدي: «أنزل سوف يرونك  
ويضربوننا». ينزل مهدي من أعلى الشجرة ويسقط على

الأرض بقوة ويجرح ركبته. يأخذ في البكاء. تضع سعيدة يدها على فمه. يعضاها. تطلقه. يسكت لحينه. لا تفوه بكلمة. أنظر إلى حيث ينز الجرح ببطء. يجلس مهدي على العشب البارد. يضع ركبته في فمه يمتص دمه. تضحك سعيدة، تنظر إليّ لاستفزازي. تريد أن أضحك معها ولكنها لا تحرك ساكناً وأتجاهلها. لا أعرف ما معنى الموت. ولكنني أعلم أنني فقدته نهائياً فيرن الجرس. فيحتسي مهدي قطرات الدم كلما ظهرت على سطح القشرة يترقبها ثم يلعبها. تضحك سعيدة. أنظر إلى المنزل من خلال الأشجار. كل النوافذ مغلقة لكنني أسمع العويل والترتيل والدوي المتصاعد من المطبخ وأصوات الخادومات. ولم يبق من تلك الأيام إلا روائح الخميرة الفاترة والكافور والجاوى والورد... تذكرت أختي الصغيرة: تسع سنوات. بدأ جسمها يتغير وكان موت الأخ الأكبر والذي لم تفهم أبداً معناه بدقة كان قد طبعها بخاتم الأنوثة النهائي وقد فقدت الشخص الوحيد الذي كان يعرف ويتفنن في مداعبتها. كان يلعب معها وسط الحديقة مدة ساعات طويلات يجري وراءها يتفاعل الوهن والعياء... يتركها تسبقه. يسقط على الأرض. يفتعل الموت. يغمض عينيه... تأتي راجعة ذيلها. تراه وهو على هذه الحال، تخاف. تظن أنه مات. تتفجر بكاء وعويلاً وتضمّه وتحضنه بذراعيها الصغيرين... يتصنع الجمود والسكون جامداً. لا حراك له. تموت هي أيضاً بدورها خوفاً وذعراً. يحاول

تحويل مجرى الريح من على وجهه والأفق يسيل من سماء إلى أخرى ومن الأخرى إلى السماء المقابلة وهكذا ودواليك. والزمن يدور من حولهما. هي من وراء الباب وهو من خلفه. يصمد. يمتزج الريح بالحمرة الشمسية وحدتها تتزايد وكأنها ترفض الموت. سالمة ترفض فتح الباب وهي تعلم أنه ليس لديها كثير من الوقت، مثل الشمس تفجر شرايينها الداخلية وتشد على بهرجتها الخيرة وقد أوشكت على النهاية، يرفع يده اليسرى أمام الكرة الدموية الضخمة فبيضها وتصبح شفافة. تصوير بالأشعة لهيكل الأصابع العظمي. فجأة، يريد أن يراها. يعتربه سعار إليها. لكنها أشرة محتالة تعرف كيف تظهر، قبل أن يفرغ صبره، ضاحكة، مستضحكة وقد دعك خدودها خليط من الدمع والطين(ماذا فعلوا معها؟ كالعادة أبكوها...) يعطي وجهها المستدير لمسة ملائكية أخرى... ثم تفتح الباب. يختطفها، يرمي بها نحو السماء فتنتطحها ببلور حريرها. فالحمام. فالمرأة. فالمداينة. فالالتباس. (نبحر إلى بلاد السحر بخرائطنا الخاصة ونترك الآخرين من ورائنا وقد أصابهم سرم يكاد يكون نهائياً). وهو (الأب) يبقى جالساً في فناء الدار تشطبه الظلال المسعورة إذ تكثر الحركة حوله من ذهاب وإياب، والنساء يحسبونه محوراً أساسياً في كل غروب وكأنهن أردن مسابقة الشمس للانتهاء من الأشغال المنزلية وهي (الأم) تركض من حجرة إلى أخرى ومن المطبخ إلى الحمام (تفاجئنا، توبخنا) ومن

غرفتها إلى حجر الأطفال ومن وسط الدار إلى الحديقة ومن الحديقة إلى حجرتها حيث يتراكم الأثاث من غطاء المصباح الكهربائي المستطيل وصندوق الثياب المستديرة وقطيفة الزربية الحمراء وحلفاء سجادة الأب المعلقة على الحائط (-) لم يعد يستعملها منذ عدة سنوات وسقط في غيبوبة عذبة لينة، لطيفة، لم يشف منها بعد) لكنه الآن ما عاد يستعمل السجادة بل أضحى يفتش وثمه وهوسه ووسواسه - ويختفي ويعود بمظاهر جانبية ويختفي ثانية ويتعمق ويبرز بحجم ضخم من جراء أقراص الغبار المحلقة في فضاء الغرفة بألوانها القزحية وحركتها السرمدية تدخل الشك في واقع الأشياء وحقيقتها، بين شفافية وحلقة بين إنارة وظلام وهي (الأم) تفيض حركة وذبذبة نخالها خارجة من آخر الليل في غسل أرضية الحجر وحكها حكاً مبرحاً وقد شممت عن ساعديها ولفت اكمامها فظهرت متآكلين من خلال قندورتها الحريرية حاملة على رأسها تصفيفتها المخروطية الشكل، العنابية اللون، وهي تعرقل حركة السلحفاة «فكرونة» الفريدة من نوعها في الدار لأنها لا تريد البقاء في البستان بل تفضل المكوث في حجرتها، حاملة دارها الصغيرة المصدفة المبقعة لا تفتأ تتحرك ببطء وتدور حول الضوء - مهما كان مصدره - وهي مشغولة ليلاً ونهاراً في عملية نحت مستمر تنحت ورقة من الخس لا تفارقها. تقضم فيها رسوماً تكاد تكون هوائية ونباتية في نفس الوقت.



(لم أفق على فحيح البخور والعطر إلا بعد أن ألفت الضوضاء، وكأنها تأتي من أسفل الشجرة وتقتحم رؤوسنا وقد كانت خليطاً من البكاء والعيول وقرع الأقداح والأواني وتكرار القرآن ورنات الجرس. أستفيق فيما بعد على رائحة وهي أيضاً مزيج من روائح مختلفة. وكذلك الهواء المترجرج أمام أعيننا من فرط الاشعاع وارتعاش أوراق التوتة المهيمنة على بقية أشجار البستان الشاسع. ثم فجأة لم أعد أرى شيئاً. نوع من الكمنة يقتحم أجفاني كأنني أصبت بالعمى كسراً من الثواني. هذه عادتي منذ أن نشأت وذلك كلما خفت أو اصطدمت بحاجز ما أو وجدت نفسي أمام أتفه عرقلة مبهمة. يعج الفضاء أمامي بذبذبة مسمارية الحدة كخط منحوت منحرف، ثاقب. الصمت يخيم علينا حفيفاً (الأوراق) ويزيد هذا الانطباع قوة وضراوة وضوضاء ما زالت مستمرة على نفس الوتيرة التي كانت عليها منذ البداية.

وإذا بها تقول دون أن أفهم، إن توحد نقطة الربط بين ما أجبرتني على الادلاء به، وما بدأت تقصه: «كان ياما كان: دولتان في قديم الزمان. دولتان تتصارعان. الأمويون والعباسيون. وقد انتصر هؤلاء وسرعان ما خانوا مبادئهم واخلفوا الوعود التي قطعوها على الشعب، خانوا الثورة والثوار. فجاءت قصة ألف ليلة نقمة الجماهير، اقتصوا فيها بعضهم لبعض خديعة السلاطين. هكذا جاءت حكاية ألف ليلة وليلة... وأنت تضع السناريو والاقتباس! (قلت

مالداعي؟ أتبريرين بي؟ قالت: لا! أبدأ... لكن الحجرة ضيقة ولا بد لنا من الخروج إلى شوارع التاريخ. هذه فرصة... لتحليل من نوع آخر. اسمع يا روعي! تشنجت أعصابي وتوترت. قلت: اتركينا من هذه السخافات العاطفية: روعي! حبيبي! ضحكت ورممت بين شفيتها: بلاش تبوسني في عيني... عندها حطمت كل عزيمة هجومية وكل غريزة انتقامية. صمدت. تركتها تتكلم والظلام قد ساد العرين الضيق ورائحة الأفلام السلبية الحامضة تفوح في الأرجاء... قالت:) حكاية ألف ليلة وليلة نقمة...

منطقها غير عادي بل منطقها فريد من نوعه يتركز على الاستطراد... وأنا كذلك استطرده... أفتح الأقواس وأغلقها وسوف نعود إلى اشكالية زوجة أبيك اليهودية وعشق عبدالله أخيك المغنية اليهودية (هنا - هنا - أنا راشد...؟)... حاول العباسيون استغلال هذا المنبع الفياض وخصوا أنفسهم بالدور الأجل فيها. وراح كتابهم يقومون بالتشذيب والتهديب، فاستعيدت القصة، وصار جانب الأعاجيب فيها يلعب دور الكلوروفورم. الواقع أن الحياة كانت في الجانب الآخر. سوف أحدثك عن الزنج العبيد. وسوف تفهم، يا روعي!... ولكن إياك أن تبكي كما كان يفعل أخوك البكر! أتعدني بذلك؟ كان يا ما كان بنت لأحد الوزراء تدعى شهرزاد زوجت بملك كان عليه أن يقتلها بعد ليلة العرس اسوة بما فعله بالفتيات الأخريات منذ أن خدعته زوجته مع عبد أسود. غير أن هذه الزوجة

الأخيرة أرادت أن تتصل من الموت. فاستعملت شلالات لعابها وروت كل ما خطر في ذهنها. ذلك أن أباه رباها على أن الملوك أطفال كبار يحبون القصص العجيبة. وهكذا شقت طريقها رأساً نحو مبتغاها. ونسجت من خيالها قصصاً جيدة انتهى بها الأمر إلى استلطف الملك لها. فرجع عن قراره بقتلها وبإبادة غيرها من النساء الأخريات اللاتي يقضي معهن ليلة العرس. ذلك هو درس الأنوثة الأول. وأنقذت شهرزاد بنات جنسها من الذلة والإبادة. ولم ترو للملك شهريار إلا ما راق في ناظرها: رحلات السندباد الخارقة. المدن التي تمشي عندما يدفعها الإنسان. الجبال التي تحيد عن امكنتها. الأمراء وهم ينظرون إلى الشعب من ثقب الباب. العشق الفاسق. البيوت ذات الجدران من الذهب الخالص. المصابيح القادرة على إضاءة العالم. الصيادون الذين يكتشفون أجمل لآلىء الكون. الفقراء الذين يهبون أثنى ما لديهم للملوك. القروء التي تمتلك فنّ الخط. البيغاوات التي تبيض بيضاً ذهبياً. النسور التي تحمل مدائن بأكملها بمخالبها. . على أن الشعب لا وجود له في تلك القصص وأن وجد فللتدليل على كرم السلاطين والأثرياء. كان يا ما كان، عبيد سئموا الاضطلاع بالأدوار الثانوية في ألف ليلة وليلة، وتجفيف المستنقعات ذات الروافد المتفرعة عن دجلة والفرات، فقرررو الأخذ بزمام المبادرة، وتكذيب ترهات الطائر الأزرق. كان ذلك عام 255 سن التقويم الإسلامي، وشنوا

هجومهم فبددوا الأمبراطورية، على أن أغرب ما في الأمر أن رئيسهم كان أبيض البشرة. سوف أروي لك فيما بعد وقائع الزنج وأعمال علي بن محمد. أما الآن فهناك هذا الفيلم الذي قلب احساسك بالواقع رأساً على عقب وأنت تعاني من وضع السيناريو. لم يعد أهل بغداد (بغداد 1956 - 1 - 12 حسان) يدرون إلى أين يسيرون. لقد صاروا يتمايلون في مشيتهم ويمضغون كراهيتهم.

وماذا عن قفا لتاريخ؟ البلدة حيث سيتم فيها اخراج هذا الفيلم المقتبس من ألف ليلة وليلة ترزح تحت نير الأجانب، ولم يعد لأملك الوقت للتفكير في طاحونتها، غير أنها مازالت تتابع سقي حديقتها وتقليب أرضها وتشذيب الأشجار ومراقبة الساعاتي المالطي الذي انشغل بفحص آليات الساعة الجدارية الصقلية، بعد أن فعل ذلك سابقاً قبل وفاة ضررتها قمر. هو أيضاً يروي الجانب الآخر من الأسطورة. كان هناك رجال حاولوا مقاومة الخرافة والسحر بل وحتى الأديان. كانوا في غالب الأحيان مرتبطين بالحركات الثورية. واستطاعت أمك أن تعلم الأشياء الكثيرة عنها فيما بعد. إراد المتنبّي أن يبرهن عن أن الله لم يكن إلا فزاعاً أشهره الأقوياء للبقاء على الرعاع بعيدين عنهم. ونجح في ذلك وبدأ ينظم أشعاراً قلبت قوانين الشعر رأساً على عقب رغبة منه في البرهنة عن إرائه تلك، كان يعشق الخيل، والليل، والبيداء، والسيف، والرمح، والقرطاس، والقلم. ثم أنه أوقف المطر ذات يوم حينما راح يتساقط بغزارة، فحبس في مستشفى عقلي يشرف عليه الرازي.

وكانت لهذا أيضاً أفكار أصلية حول مسألة الله. فلقد اعتبر أن الأنبياء مشعوذون. وفي سنة 322 استطاع أن يقابل الشاعر في سجنه. من أثر على الآخر يا ترى؟ كان الطيب منشغلاً بأموره، في حين أن الآخر ظل يتمتع بكامل وقته، يكتب كما يتنفس بجودة وسرعة وكان الرازي قد فتح أول مستشفى جدير بهذا الاسم، وفهم أن مرض «بوحمرن» لا علاقة له بالحصباء. وابتكر علم الصيدلة كعلم، واستخرج الزجاج وغيره من أنواع الأوكسيد والرصاص والزنك أو النحاس والكبريت والزرئبق والصودا الكاوية وغيرها من أنواع كبريت الكلسيوم. لا دخل للخرافة في هذا المجال! وكان الاثنان متسبين إلى حزب ثوري يعمل في إطار السرية آنذاك. لكن كان هناك عالم آخر هو الكندي الذي حمل قوس قزح في رأسه. وأعطى شرحاً علمياً عنه سنة 737 هجرية وهي السنة المصيرية التي رأت اندحار آخر الحركات التمردية اندحاراً نهائياً. ذلك هو نقيض كل ما يمت إلى المعجزات بصلة. لقد أعاد الجميع خلق العالم، وصار الساعاتي معيناً لا ينضب. وماذا عن نظرية الارتفاع الشمسي المرتبطة بحركة النجوم؟ لعلها تكون قد وضعت في الوقت الذي راحت فيه شهرزاد تروي خرافاتها على مسامع الملك شهريار. ومهما يكن من أمر فإن الأجانب قد عجزوا عن فهم أي شيء. وهم على أية حال ما كانوا ليصوروا الشعب وهو يصطخب ويلفظ أنفاسه تحت نير القمع والضرائب وحق الليلة الأولى والعبودية، ويواجه مختلف أنواع العشاريين. كان والد المتنبي سقاء بالبصرة،

ومن ثم فإنه من الطبيعي أن يوقف ابنه المطر (أو يزعم ذلك!) ويحمل حياته محمل الجد. لا نبي بعدي. أنا الأخير. فسجن في السجن حيث راح يستقبل الكندي وكان فيلسوفاً يدافع عن النظريات الملحدة، وعالمماً ابتكر نظرية المرايا المحترقة والوجود المادي للضوء. ذلك هو الوجه الآخر من الصورة... كان الرجل يزعم أنه يعرف كيف يسقط المطر وكيف يوقفه إذا ما رغب في ذلك، واسمه الكامل: أحمد بن الحسين بن عبدالله الصمد الجعفي الكندي الكوفي. مكان ولادته: الكوفة. مهنته نبي. أو بالأحرى على ما كان يزعم. ويلاحظ من التوغل في سيرته أن الماء لعب دوراً كبيراً في حياته وتنبئه وفي عبقريته الشاعرية. أولاً: الكوفة وهي مدينة يختلط فيها الحابل بالنابل ودجلة بالفرات والنهر بالبحر. ثانياً: أبوه وكان سقاء ماء بالكوفة عينها في بداية الأمر ثم انتقل وابنه إلى الشام حيث احتك بأعظم شعراء عصره. ولم ينس المتنبي مهنة أبيه خاصة وأن أحد الشعراء الذين كان يبغضهم ويحقد عليهم قال فيه هذين البيتين:

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا

عاش حيناً يبيع في الكوفة ماء وحيناً يبيع ماء المحيا

ماء المحيا! ماء الوجه. ماء المطر. ماء الحروف البلورية. تنبأ وقال: «أنا نبيكم الأعلى» وهل في الأمر من غرابة وقد كان والده سقاء؟ كان أبوه يذهب إلى النهر للآتيان بالماء فيوزعه في قرب من جلد الماعز المطلي داخلياً بالقطران. كان مستقبله محمداً منذ البداية فاشتغل هو

الأخر بأمور الماء. زعم أنه يعرف كيف يسقط المطر بمجرد رفع يديه نحو السماء. وباستثناء الأمطار التي كان يستنزلها على هواه ولد الرجل شاعراً عبقرياً. فأحدث فتحات فاغرة لهي بنية اللغة. كما ولد محرصاً سياسياً وأحدث شرحاً في اللغة ونفخ روح الهذيان فيها. دخل حزب القرامطة (كما أدخلتني أنت الحزب!) وقاد فرقة منهم في الحروب ضد النظام القائم وصال وجال في بادية السماوة (السماوة 12 - 9 - 1928 حسان). شاهراً سيفه (هل علمك سي زغواني ذلك المعلم الماكر: فالخيل والليل والبيداء تعرفني - والسيف والقرطاس والقلم؟ كذلك قصتك أنت وخرافة هائلتك... إنها تنتمي إلى ذلك النوع القصصي الذي لم يكن سوى طريقة خاصة في تهويل الأمور العادية والبسيطة... سوف نجد حلاً لليهودية المسكينة أما عن هذا الهوس، أعني نحنحة الدرة فاطمة التي تسمعها من حين إلى آخر والعجوز قد فتت أطرافها حافلة الترامواي، فسوف يزول إذا عرفت كيف تترك الذكريات في الوقت المناسب. يبقى من الصعب تحديد الوقت المناسب. هنا تقبع الإشكالية بأكملها.. أما عن قمر... نهضت فوراً ووضعت يدي على فمها بكل عنجهية. مكثنا هكذا بضع ثوان. تركتها ابتعدت عنها. قالت: وإذا جن ليلي، أنتم قمري... فهمت من رنة صوتها أنني غرست الخوف فيها، في أعضائها عضواً عضواً، في لحمها ارباً ارباً... غرست فيها الخوف لا بالمفهوم العادي... بل الخوف كغريزة

أساسية... إذا جن ليلي انتم قمري.. وكذلك: عيني  
بترف يا حبة عيني... وكذلك: بلاش تبوسني في عيني  
دي البوسة... وكذلك: أراك عصي الدمع... وكذلك،  
وكذلك... أمور كثيرة أخرى...

... قالت: ملاحظة: هل فكرت في اشكالية عدم  
وجود العلماء والفلاسفة والشعراء في ألف ليلة وليلة؟  
عليك أن تضيفهم وتوظفهم... بدون غطرسة ولا  
تعصب... لكن هذه حضارتنا... ألف ليلة وليلة فيها  
وعليها الكثير... الكثير أليست مبنية أساساً على التناقض؟



... وكذلك: في أحد الأيام الماضية، بضعة أيام مضت، فقط... كان العم حسين واقفاً في وسط الشارع وكأنه لم يعرف إلا هذا الموقف وقد بدأ يشيخ بطريقة سريعة. كان واقفاً هكذا في مفترق الطرق بقامته الطويلة ووجهه الذي فقد جماله المعهود فأصبحت عيناه تحمقان هكذا ببلاهة وسذاجة... لقد فقد من أبهته وأنانيته، تقلصت تفاصيل وجهه وتجعرت قسامته وبس جسمه فأصبح عنقه يسبح في طوق قميصه من فرط هزالته وبرزت ياقته عريضة فضفاضة وهي عبارة عن اسطوانة من الورق المقوى والمنشئ يبرز من خلاله عنقاً متكمشاً يشبه أعناق السلاحف عندما تتناول وتخرج رؤوسها من ذبالها، رمادي اللون ممخوراً بعارضات متقاطعة، مشربباً من خلال أكتافه وجسده الذي أصبح عبارة عن كدس رخو من العضلات والقشور الذابلة الرثة والشرات المتلاشية. لم يكن - له هذا الكدس - من الوقوف الا بسبب ثيابه، وكانت عيناه الرمضتان تحمقان في وجهه تتجسسان على أدنى رد فعل

كان من المتوقع أن أقوم به أو على أدنى حركة صادرة عن عيني (عيني بترف...) تحاولان مراجعتي بنفس تلك الخسة وذلك المكر المتردد المتخوف الشرير، فيظهر لي وهو على هذه الحال كأنه يتحدث في نفس الوقت بعينيه وفمه، وبطريقة متزاوية أو - بالأحرى - كأن فمه ينطق دونما علاقة بباقي الوجه المخضب شاربه بتبغ يقزز كل من ينظر إليه، وتحت الشارب القذر توجد الشفتان اللتان لا تتوقفان عن الكلام والحركة والتمتمة، قائلاً - العم حسين - مسكين أبوك... لم يسعفه الحظ مع النساء... كان ساذجاً، نوعاً ما، معهن في الحقيقة... ثم يتوقف من جديد عن الكلام والثرثرة وكأنه ينتظر جواباً مني أو تعليقاً أو مجرد كلمات لا معنى لها، فيما عيناه كانتا تتبعان فحصهما وتشخيصهما؛ إنهما خبيثتان، ماكرتان، ناقصتان؛ ثم يستدرك نفسه فجأة ويستطرد في البغفة فيأتيني صوته من قاع العالم، يعيد متعثراً ومبحاحاً: وهذه اليهودية! غلطة! رهيبة، صعبة... امرأة طيبة في الحقيقة لكن يابن خويه... خياطة و... يهودية! قبل أن يتزوج منها... كان يدعي هذا على الأقل... هذا واش كان يقول... قبل أن يتزوج منها كان لها عشاق كثيرون... راك فاهم... يعني... يعني (بتردد) هل سيجرؤ على نطق الكلمة؟! يعني... قحبة (حاشاك)... أيه قحبة... وكل الناس على بالهم... غير هو... شوية نية بباك... آه الحق يقال: لم يسعفه الحظ كثيراً مع النساء.

وأنا: من هذه اليهودية؟ عنن تتحدث بالضبط؟

وهو: كيف: من هذه... ما على بالكش... ما على بالكش بالقصة... كنت حاسب... كنت أظن... إنك...

وأنا طبعاً أنا أعلم ذلك... وكيف لا... عارف القضية بتفاصيلها ومن أولها لآخرها.. محاولاً من خلال كتفيه أن أنظر إلى الساعة العمومية فوق بوابة مكتب البريد الرئيسي... لكنه باغتني وفهم قصدي ومرادي. فاستدار بجسمه لثلا أتمكن من رؤية الساعة الجدارية ومن معرفة الوقت بدقة. كان قد وسط رأسه النحيل بيني وبين ميناء الساعة وعقاربها بسرعة خاطفة. هكذا نكلة، أو نكاية، أو استهزاء، أو استفزازاً، خدان من ورق القضيم الرث، البالي يقال إن لحي الأموات يتواصل نموها بعد دفنها بكثير. اللحي والأظافر كذلك، عندئذ هو... ثم أنا قائلاً: صحيح... كانت رائعة الجمال... روعة... لكن الساعة تشير إلى الحادية عشرة... وعلي أن... آخذ يده في قبضتي لمصافحته وتوديعه، فأشعر بعظامه الناتئة القديمة اللبقة تتكمش على يدي وتضغط عليها فيما راح هو يقول إن اليهودية كانت في شبابها جميلة... لا بد من الاعتراف لها بذلك... ماذا أقول لك؟ نوع من... وأنا أحاول التملص، قائلاً: لا، لقد غادرت العاصمة منذ سنو... لا... هي الآن في الضيعة... أجل، تقيم.. أمي هي التي تعالجها... وتقوم ب... وهو لا يكف عن استراق

النظرة نحوي، محتذراً. محتاراً، مرتبكاً، متسائلاً هل من حقه أن يهزأ بهذه الحالة الغربية أم لا .

وأنا: لقد وصلتني رسالة من العم اسماعيل في القضية... يقول إنه ليس هناك عقد زواج بينها وبين والدي... أعني أخوك و... هنريات غزلان... أعني حسية... وهو يترك الآن العنان لنفسه بعد أن كتبها ومنعها من الضحك عدة ثوانٍ، مقهقهاً، ضاحكاً متلاعباً، منتصراً، مبرزاً أسنانه المزنجرة العفنة القليلة، قائلاً: آه! هل هذا صحيح؟ أنت متأكد من ذلك... آه! يا له من رجل صاحب أطوار، حسونة أخي.. المسكين... لم يعرف كيف يتصرف مع النساء أبداً! المسكين... المسكين... الله يسامح... أخي مخلوق... حسونة...!

وأنا: إسمع عمي الحسين لم يبق لي وقت... لي أشغال كثيرة... يجب... يلزمني نروح للبنك قبل الشاش.. البنك يغلق على الشاش و...

وهو ينتفض مرتجفاً بغتة، مبرزاً خوفه وأنا على وشك مغادرته (أتركك بخير عمي الحسين) فيبقى لوحده، يعود إلى العزلة التي أخرجته منها مدة ربع ساعة على أقل تقدير، مظهراً ذعره، اضطرابه وقلقه: إذن يالله بنا إلى البنك.. يا لها من صدفة... أنا كذلك كنت رايح هناك! نفس المكان بالضبط!

وأنا: بالسلامة عمي حسين... إن شاء الله في مناسبة

أخرى... إلى اللقاء في ساعة خير! موفقاً إلى اقتلاع يدي من قبضته العظيمة، راجعاً إلى الوراء، متقهقراً، راجعاً القهقري، عائداً أدراجي، مبتعداً بسرعة كبيرة من المكان الذي هو فيه - أي حافة الرصيف - وسط جمهرة من المارة، أمام بناية مكتب البريد المركزي للمدينة، مخاطباً نفسي: يا له من رجل أحقق... يا له من غبي! غبي... لهي... وعندما أبتعد عنه مسافة مرضية ألتفت إليه مشيراً باتجاهه شاهراً يدي، ملوحاً بها نحوه بدون حماس ولا حيوية... الحمار! الحمار! وهو: وقد وقف في نفس المكان، على حافة الرصيف، ثابتاً كالوتد، صامداً، مهملاً، متروكاً، حقيراً، مشفقاً، غاضباً في عزلته، بالي الثياب، مجعد الوجه، تعيس المظهر، فيما أقرص الشمس المتحركة وحلقات الضوء الملتوية راحت تنعكس من خلال أوراق أشجار العيثام، على وجهه وجسمه وثيابه التي أصبح الآن يسبح فيها من كثرة هزائته، ومن ورائه - دائماً - نفس القماشة الخليفة، نفس الحركة الدؤوبة ونفس الحيوية الفياضة، بفتيانها وفتياتها الزنقية البشرة، رائعة الجمال، مفرطة النعومة، لا لسبب سوى التناقض بين شيخوخته هو وتجاعيد وجهه الرمادي وقبح منظره، وثيابهن هنّ ورشاقتهن وعنقوانهن. ومن جديد: وجهه العبوس، المجمد، المحروم، الغاضب. الحاقن، المنذهل، المذهول، الأدهش...

ثم كذلك ما يلي: بعد تجاوز عتبة المصرف أنتقل على

حين غفلة وبفظة من الحر والعرق والصخب والشمس والازدحام، إلى البرودة والسكون والظل والسكينة: نوع من الكون الهندسي، المصقول المعدني رغم تواجد نباتات خضراء لتزيين البهو، لكنها تظهر اصطناعية، أي كأنها صنعت مثل الأثاث وبقية الأشياء التي تكون الإطار العادي لكل مصارف العالم، أي كأنها - هذه النباتات التزيينية - في حاجة ماسة إلى ماء وهواء وضوء؛ كأنها وضعت هنا - جناباً - وأهملت لحالتها. فتفتقد إلى ذلك السيلان المكون من الدم الأخضر (النسغ؟ ماء النبات؟) الذي يدور في أعضاء النباتات دون أن يسمع له حثيث ودون أن تسمع له وشوشة ودون أن تعبق منه رطوبة ما؛ تظهر إذن هذه النباتات دون أية عشبية طبيعية وكأنها صنعت من المطاط المقسي بالكبريت وضخت فيها مواد كيميائية لتلميعها.

ثم بعد هنيهة أعود أشعر - من جديد - بالضوضاء الخارجية تتسرب إلى داخل المحل تدريجياً، تتحول بعد ذلك إلى ضجيج وفرقة الآلات الكاتبة وعجيج الأشياء المغمومة أولاً، ثم البارزة من خلال التعود البصري على ذلك التناقض الرهيب: العتمة: ما يجعلني حساساً وكأنني أدور في الفراغ - فلوحات الزجاج الواقي النصف برتقالية النصف شهباء التي سطرت عليها أسماء المصلحات تأخذ تدور في رأسي ثاقبة، حازة مؤلمة، فتذكرني وهي مرقونة كذلك، بالأضواء العجاجية لسيارات الشرطة والمصابيح الغامرة التي رأيتها خلال عبور المدينة قبل أن أجد نفسي

وجهاً لوجه مع العم الحسين، فأضطرب وأتركه يثرثر ويهزأ بمأساة زوجة - عشيقة أبي اليهودية وهي في حالة احتضار، لا نعرف كيف نجد لمشكلها حلاً خاصة وأن الأب يتجاهل ويتناسى كل ما يخص هذا الأمر... التي رأيتها قبل عبور المدينة حيث أتيت لقضاء بعض الأشغال العاجلة تاركاً أمي ومريم تتعاونان في القيام بأشغال المنزل وأمور التمريض بالنسبة للشبحين (أبي حسان وزوجته اليهودية: حسية - هانريات) اللذين استقرا في المنزل، كل في غرفته. لا يسعني، كلما أتذكر عمي الذي كنت أكن له كراهية مطلقة، إلا أن أشعر بالسأم والإثم في نفس الوقت. لهذا أتجنب التفكير في تلك المقابلة (الابله! الابله! الابله!) وأركز جهودي على اللوحات التي تشير إلى أسماء مختلف المصلحات والمكاتب الإدارية للبنك حيث جئت لمقابلة المدير بعد أن قدمت طلباً لاقتراض بعض المال من أجل ترميم الدار الكبيرة وقد قدمت كثيراً وصارت في حاجة إلى ترقيع وتصليح. أجلس على كرسي في قاعة الانتظار، فتحف بي الرموز المخيفة إلى درجة أنها لم تعد تعني شيئاً بالنسبة إلي وفي نظري، نتيجة الإرهاق الذي سببه لي ذلك السفر الذي قطعت أثناءه قرابة ألف كيلو متر بسيارتي بقطع النظر عن الطرقات الضيقة المعطوبة وحركة المرور الرهيبة، ونتيجة تلك المقابلة التي أجبرتني على التمكن من أعصابي خشية أن أسبب فضيحة كان العم حسين حاول إثارتها، لأنه اعتاد مثل هذه الأمور، وبالأخص لأنه يعيش في عزلة

تامة، لا عمل له ولا انشغال ما عدا التدخل في أمور الأشخاص وزرع الضغينة بين الناس والهزء بكوارث الآخرين... هذه الرموز المخيفة كانت تقتحمني، فأتجاهلها وأنتبه لها في نفس الوقت وحتى لو كان ذلك ناتجاً عن انتشارها هنا وهناك في حركيتها المتكررة فتصغر، تنحرف، تتضاعف حسب ايقاع مهووس (لماذا جاءت مريم - ماريًا إلى الضيعة؟) يمزق رأسي بما يشبه العديد من الومضات البراقة (ظل - ضوء - حر - برد) حتى أنها تختفي بين الفينة والفينة في طوفان من النقاط الصغيرة أو الأقراص الهزيلة الحمراء والخضراء مخترقة رأسي للمرة الألف، مستطيلة الشكل. مكونة من الخيوط على اختلاف ألوانها مرتعدة على مستوى عيني وملتوية إلى ما لا نهاية وقد عقدت العزم على ألا أتحرك من مكاني، رغم أن العياء كان قد أخذ مني مأخذه والنعاس شرع يخلط أفكارني (سافرت ليلاً) ومزجها في كبة من الأسئلة المؤلمة والمشاكل المزعجة (كيف حل مشكل المسكينة اليهودية؟ ما هي علاقة زوجتي بعشيقتي؟ لماذا الانهماك في محاولة حل كل هذه الاشكالية العائلية المعقدة لوحدي على خلاف اخواني وأخواتي وعددهم لا يحصى؟) لا طاقة لي بفكها خاصة وأن احساسات مختلفة بدأت تمتزج داخل ذهني متناقضة متضاربة كلها! يظهر لي أن الاضاءة داخل المصرف لم توضع لتخفيف هذا الشعور المجنن، المرعد، المبرق، الذي يرسم أمواجاً ومنحنيات في الهواء كاشفة



عيني رغم ألوانها الباهتة، ربما بسبب تعدد المنابع والمكانن التي تنقسم كل منها إلى آلاف الجزئيات الكروية الدائرية، منطلقة ومعججة في الهواء وعبره، طابعة الوجوه بطبع شاحب باهت (نيون) أو منطقي (مصايح التنغستين)، وكل هذا التراكم للأموج الممغنطة المكهربة التي تنكسر، تطامس، تتداوب، تتداخل، تتجزأ عبر اتجاهات متعددة، خاصة أضواء مرئية وأضواء سوداء جسيماتها تكاد تتناطح في رأسي تقهقره، وأنا على تلك الدرجة من الحساسية، حذراً واعياً طقطقة وتململ الأشكال المشخصة بتوزيع الإضاءة مارة عبر منشورات وانحرافات خالقة لطخات ودويرات (كوات، منطقة الاستشعاع) مغرقة بذلك الأشياء نفسها في ألف نغم. محولة الجو إلى نوع من السيولة، إلى نوع من الذوبان، وذلك رغم الشظايا المفاجئة للضوء في مثل هذه المنطقة أو تلك التي تكاد تكون غامضة، وأنا ملتصق بكل هذا الطوفان من الضوء فإني أحس احساساً ضعيفاً بضرب من الإنتحاء الذي يبقيني متيقظاً لأنني لا أريد أن أترك نفسي تمتصها الرموز المتقطعة الوامضة التي تربص بي لتغزوني، تبهرنني، وتجعلني مجنوناً. لذلك وأنا واع بالخطر فإني أنهض بسرعة وأرفع حقيبتني الصغيرة وأخرج قصاصات (حوالي عشرة بالتقريب الآن) التي ركزتها بين ابهام وسبابة يدي اليمنى، حاملاً ثقل الحقيبة بيدي اليسرى وذراعي ممتدة إلى الأمام قليلاً. عيل صبري. لم أعد أقدر على الانتظار أكثر من هذا... لا حاجة إلى هذا

القرض، لينسف المنزل وكذلك الضيعة وكذلك الآباء واليهودية والعشيقة... ما لي أتفنن في ايلام نفسي بنفسي... أترك المصرف بكل حذر، خائفاً من دهاء العم حسين وهو قادر على أن ينتظرنني أمام بوابة البنك، وينصب لي فخاً، بل وكميناً كاملاً... خاصة وأنه...

كان من واجبي أن أصرح له بالحقيقة وأصارحه فيها، في موضوع كراهيتي له. وإذا به واقفاً أمام سيارتي، مبتسم الوجه، متلاعب التعبير، متداعباً غضبي... كما قلت لك منذ حين... أبوك لم يتغير وسوف لن يتغير. أنت تعلم أنه تخلص من اليهودية بعد سنة ونصف فقط.. كانت امرأة خصبة. أنجبت طفلين... أنت تعلم ذلك... أعلم أن لك علاقات وطيدة بهما. ما اسمها...؟ لقد نسيت... ذكرني... آه راحت الذاكرة وراح كل شيء... ما أبقى والو: كمشة أعضام... لا أكثر... نشكر الله... طبعاً تخلص منها بسرعة. مثل ما فعل مع الأخريات... كان ماهراً في الاقتناص (يضحك)... أما اليهودية (حاشاك) بدأت أفعالها وهي مراهة. كان عشيقها الأول صانع حلاق ايطالي... ولما تبلغ الخمسة عشر عاماً... إذن! طبيعي أن تسقط في حبال أغنى رجل في القرية... وهو لم يكن آنذاك يستقر ولو شهراً واحداً. كان ينتقل من بلاد إلى بلاد ويرسل... لم يزرها! إلا مدينة واحدة... مكة المكرمة... هل تعلم أنه لم يحج ولو مرة واحدة ولم يعتمر بعمره ولا بغفارة في مدينة الرسول... لا مكة ولا

المدينة هل تعرف أنت هذا؟ أفكاره الاصلاحية... تأثر كثيراً بالشيخ ابن باديس... جال في كل أنحاء المعمورة إلا المملكة العربية السعودية... غريب أبوك! راجل لا يفهم... أرسل لي مرة بطاقة من طنبوكتو! ماذا ذهب يفعل هناك: طنبوكتو... كنت أعلم ذلك... وهذا الخبيث الثرثار الذي لا يهفت عن الكلام ولا يسكن:

### «طنبوكتو»

13 - 12 - 1934

«حسان»

إذن كان يبحث بنفس البطاقات ليس فقط لزوجاته الأربع أو (الخمس) بل وحتى لأفراد العائلة الآخرين. لكن العم حسين كان (ولا زال) أمياً. كان أبي يوبخه على هذه العاهة، لكن أخاه يرفض أن يتعلم حروف الهجاء في سن متقدمة. بعث إليه بصورة طه حسين وهو يقدم أطروحته في جامعة السوربون بباريس ويوبخه مرة أخرى: (كتب له: هذا الرجل مصري ضريب ورغم ذلك فهو قد تمكن من مزاولة التعليم العالي وما هو يتحصل على الدكتوراة...! وقد أعجب به الفرنسيون وكتبت عنه الصحافة... فما بالك أنت أعطاك الله البصر والنور وأغلق بصيرتك، فلا تريد أن تتعلم الكتابة... وتفضل أن تبقى أمياً وجاهلاً طوال حياتك...). زدوا: غير مكة اللي مازار هاش. كرحت انجح قتلو بجيء معاية لكن على مراد الله... ما حبش

ارفض... والآن كيف رآه؟ أريد صفعه... أرى لسانه يلتوي داخل فمه النصف أورد لم أرفع يدي لم يتحرك لي ساكن. لم يعمل أبداً وها هو الآن يعظ ويلقي الخطب الأخلاقية. عاش متطفلاً على أخيه الأكبر... لم يشتغل أبداً. والضيعة؟ ما زالت على حالها؟ قلت متعمداً استعمال هذا المثل لأن له شبه ثقافة تحصل عليها بترده على المساجد (ولا لورع فيه بل للثرثرة التي كان ممحوناً بها، مولعاً إلى حد الافراط، كأنه هكذا يطحن الزمن ويجعله سميداً) والمقاهي. كذلك للثرثرة والتقاط الأخبار ونشر الإشاعات المغرضة (ترهات الأمور، لا صميمها، أبداً! البتة!) والمنازل (من عائلة إلى أخرى للتطفل والدخول فيما لا يعنيه)... قال: صرت رجلاً كهلاً اليوم.. قيل لي إنك تزوجت بلا طبول ولا مزامير (بالساكنة). هل هذا صحيح؟ يجب أن أتعرف على زوجتك،... فهي ابنتي وأنا أبوها... عندئذ، دخلت السيارة فجأة وانطلقت راجعاً إلى الضيعة، نظرت إليه من خلال المرآة الارتدادية: واقفاً. مشدوهاً. معزولاً. مخلوعاً.

قلت: الخبيث! طنبوكتو! يا له من داهية ماكر.

«طنبوكتو»

1934 - 12 - 13

«حسان»

وهأنذا الآن اضطلع بمسؤولية صاحب القلم فأشعر، وأنا

أكتب لا أتوقف مخربشاً على مئات الصفحات والأوراق  
أناء الليل وأطراف النهار، أشعر بعقدة الذنب تتسرب في  
أحشائي، أغوص من جديد في عالم الذكريات فتؤدي بي  
كالمعتاد إلى ذلك الضريح المنعزل الجاثي على شاطئ  
البحر والمطلة جدرانه الخارجية بالجير والمهملة حيطانه  
الداخلية كل الإهمال المتآكلة القذرة الملوثة فامضي على  
جناح الذاكرة وأتبه في تلافيفها الحلزونية وأحس وكأنني  
أذبح ديكاً متغطرساً فحلاً. فينغلق الزمن علي بطوقه  
الحديدي وأقوم بدور الكاتب المسعور فيسيل السم من  
سيالتي وتتدفق الكلمات من تدفقاتي وتزدحم على القرطاس  
ازدحاماً في محاولة فاشلة وهمية لتكسير هذا الطوق، طوق  
الزمن الفولاذي وفيما أنا أكتب مكباً على التحرير والخريشة  
يأخذ جسمي في الارتعاش تحت تأثير النشوة والوجد.  
وهيهات أن يخفف الوجد من غزارة الهذيان المتفاقم  
المتهول المتضاحم. حتى إذا ما انقضى وتصاعد الفجر  
الحليبي، وعيت إلى شخير المرضى وتنفس المحتضرين  
المتحشرج الأخير، فتنطبع فيّ فلا تفارقني وقد نحتت نحتاً  
على حامية ذاكرتي التي كادت تذهب بها وتفلتها من  
جسمي الهزيل النحيل بعد أن نال الاندھال مني مناله. وإذا  
بي أترك لحيتي تنمو وتتكثف ومزاجي يتعكر وطباعي تفسد  
وإذا بي أزمجر سعتلياً فراشي زمجرة حذرة لا مبالغة فيها.  
فأحاول اقتناع ماريا بدون جدوى. فأقرر إذ ذاك الكف عن  
التوسل وافشاء الأسرار بصورة نهائية، لعل الكتابة تمكنا

من وضع حد لمناوشاتنا ومعركتنا على ما أنا عليه من يقين أنها تحمل بين ضلوعها فنوناً من المكر والسرية صاحبة تعجز عن التخلص منها تخلصاً والانعقاد منها انعتاقاً. لا فائدة إذن من إثارة وإيقاظ شبقتها الفاجر. فلم يعد لي إلا هم واحد يتلخص في تجنبها وتقوية عزيمتي بحيث يمكنني الصمود في وجه مراوغاتها وتملقها فيصبح ذلك شغلي الشاغل وديني وديديني، وإلاً ذهبت ضحية نعومة لحمتها وتأجج فرجها وفخامة صدرها، وفقدت ما تبقى لي من بصيص في الوعي، فلأنني إذا ما تركت نفسي تهوي في مصيدة الشهوة وهوة الهوى قضي عليّ وأنا لا محالة ذاهباً ضحية جسدها المتورّم الثلجي حتى إذا ما راحت تنزع ثيابها وجدت نفسي وجهاً لوجه ونهديها الرهييبين وتواريت عن الحياء خوفاً وذعراً. لا لن يكون هذا. ستكون الكتابة مأوى آوي إليه وملجأ ألبأ له وما أن أبلغ من تسجيل ذكرياتي وأشجاني وألامي مآلي تلك التي لن تلفت أنظار أحد أياً كان حتى أكون قد صنفت ما يزيد عن ألف كتاب وكتاب (ملاحظة: الرجاء كتابة الأحداث التي دارت رحاها أثناء حفل الختان وكان العم حسين هو الذي أشرف على تنظيمه) لكن بقيت هذه الكلمات تدور في ذهني:

«طنبوكتو»

13 - 12 - 1934

«حسان»

وما القول عن حفل التختين؟ تصور لكوكبة متراسة بالألوان والأصوات عابقة بصراخ تلاميذ الكتاب وزعقاتهم تلك التي هي أقرب ما تكون إلى صفائح فولاذية تصدع بحدتها جمجمة المشرف على مراسم الحفل وقد التحف بوقار برنسه الصوفي الخام البني اللون وقد حذق في الرمي بأطرافه إلى الورااء بخفة ومهارة بالغتين - وكأنه لا يبالي - بادياً وكأنه يسبح بجسمه الهزيل بين طياته الفضفاضة، ويحدث أن يعطس بين الفينة والفينة عطسات تسدي عليه سمات الملائكة، قبح الله وجهه! وقد نكرم الله عليه بسخنة خبيثة قدرة. وهو لم يكن ليغلب إليه الأنظار رغم ما كان عليه من يدين طويلتين خفيفتين ناصعتي البياض تحلقان من حين إلى حين في الهواء فتخرقه بعنجهية وخفة، ورغم ما اتشح به من وقار وتقشف، وقار الناسك الزاهد وتقشفه إلا أنه ينهر بطيران ذبابة من الذباب الطائش فيتبع التواءاتها وتعرجاتها البهلوانية ويعوم في بحر من الكآبة والبؤس المرين. الحق يقال إن السيد الختان الوقور لا يشبه حفار القبور، لا! ولا غاسلة الأموات في الديجور. ورغم ما تميز به من أصابع مشبعة بالفرمول وأظافر مقصوصة حسب الأصول ومطهرة بالكحول باستثناء واحدة منها لم يقلمها على طريقة التسع الأخرى التي قلمت إلى حد اللحم الحي المحمر المستدير. لا، لم يكن ليغلب الأنظار رغم طول وهزالة جسمه وكأنه يخشى عليه مما قد يؤذيه، وكلما عمد إلى الجلوس أو النهوض فعل ذلك

باحتياطات متعددة مملة، اتقاء ما قد يلزم به من ملمات .  
لا، لم يكن ليجلب النظار رغم رأسه الصغير وجفنيه  
المنتفخين وشاربه ذي الكثافة المتباينة على الجانبين مما  
يضفي عليه ملامح أحد البهلوانيين المسالمين . لا لم يكن  
ليجلب الأنظار رغم خده الأيمن الأرقط والأكثر ارقاطاً من  
الأيسر الذي تفوق على الأيمن حروشة وزرقة . على أنه  
التزم التحذر من القيام حتى الآن بأية حركة بل بدا وكأنه  
في خلوة عميقة مع ذاته ملتويّاً على نفسه وقد بدا شاحب  
اللون جالساً بحذر وتحفظ على صفة بنفسجية يزيد بريقها  
في اصفرار وجهه وكأنه طلي بطلاء أبيض أو بياض الطحين  
حيث ينطلق من وسط الجبين الناشز بحثاً عن الشفتين  
الرقيقتين الملتصقتين، الرقيقتين رقة ورق لف السجاير .  
ويبقى هكذا جالساً خامداً يكاد يخنتق اختناقاً، على أنه في  
الواقع شديد التحسس بالبرد وهو ذو عينين عكرتين . هذا ما  
يوحى به للوهلة الأولى . أما في الحقيقة فقد اشتهر بدهائه  
وحدة بصره التي تمكنه من التحلي ببعده النظر ومدى الرؤية  
وحصافة البصيرة الواقعة، الأمر الذي يتيح له تدارك الأمور  
قبل وقوعها واكتشاف الأشخاص قبل بلوغهم إلى البلدة .  
ولما كان قد عين من قبل العائلة مشرفاً على الحفل فقد  
كان يتلذذ هادئاً وبكل طيبة خاطر بكل هذه البلبلة والفتنة  
التافهتين اللتين يحاول أبناء الكتاب فرضها على مجموعة  
الضيوف جميعاً . لقد كان التلاميذ في الواقع يعكرون صفو  
الجو وبصرخاتهم وزعقاتهم يبالغون، ومزاج الختان يلمون



به: رهيف الرأس يشكو من صداع مزمن يؤلمه، فذاع الأمر وانتشر انتشاراً النار في الهشيم، في المنطقة كلها. أما هو فقد كان يعرف التلاميذ واحداً واحداً، هو الذي قلفهم فرداً فرداً، قسماً بمن يجعله حلاقاً للقريبة وطهارها المحترم الماهر وقالف الألف العزل! ه ها ها ها! ها! كان في سريرته مبتهجاً يهلل بيده أنه يحتذر من إبداء شيء مما يعتوره في باطنه، بل يؤثر ترقب الفرصة السانحة والوقت الملائم فيباغت الأولاد إذا انقض الدور عليهم انقضاضاً عند مشاهدتهم انبجاس الدم ينطلق وسماعهم الصيحة الرهيبية تتصاعد فيسيطر إذك الذعر عليهم وتنتابهم الرجفة ويصيبهم من فرط توتر الأعصاب للمكابرة طويلاً على ما يسعون سعياً على أنفسهم والحرص على ماء وجههم. أما الآن فتلاميذ الكتاب لا يعيرونه أي انتباه بل يومضون في صرخاتهم يغالون فتخرق أصواتهم الحادة الماضية الثاقبة الزاعقة إذ أن الحاضرين وبالأخص إذا ما راحوا يدسون بين الفينة وبصوت واحد - عبارة فاحشة أو تجديفة جارحة أو جناساً لفظياً يدفعون بها في صرخة مدوية كالرعد، سريعة كالبرق وقد راحوا يرددون الأناشيد الدينية (الله يا كريم رد بالك على زبو واعطيه للحفاف باش يمصو الله باركين رايحين يقصهولو وهو صغير كبولولو. كانوا يا مؤمنين مع بنيكم مرفقين...).

وقد كان الشيخ الكتيب الذي كان يضطلع بمسؤولية تلقينهم القرآن، كان يقهقه بمجون ويمخر منخاريه بسبابة يده

اليمنى بكل حماس واغتراب، وكأنه بتصرفه هذا راح يبحث عن روحه التائهة، في شقة من شقق جسمه ضائعة، عوضاً عن أن تبقى حيث ما قدر لها الله أن تبقى وحيثما حتمت عليها فلسفة الإمام الغزالي أن تمكث بكل سكينه وهدوء وسكون، لقد كان معلم القرآن غارقاً في نشوة لا مثيل لها على الاطلاق فبتقي القيام بما يمت إلى الاستفزاز بصلة. غير أن مجموعة التلاميذ الصوتية ما كانت لترتاح كل الارتياح لما تجده في هذا الموقف من التباس وتلبس. (ما عليه غير يدبر كيفنا.. نعرفوه، نعرفوه، أم قحبة وبوه حلوف... نعرفوه، نعرفوه حتشون أم كبير ومعمر بالثعابين). وكانت الإشاعة تسري بينهم وهم يتقاذفون هذه الأقاويل الفاسحة حصيلة خيالهم الخصب المقذع، بأن وراء الآكام ما وراءها، وراءها خطة جهنمية يهيئها لهم الكبار، عليهم إذن أن يحتذروا الختان وأن يكونوا متاهبين متيقظين وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة كل طارئ، متربصين. وما عليهم إلا أن يؤون الأوان للاستمرار في تصرفاتهم الشنعاء وترتيل الآيات القرآنية بطريقة تمكنهم من فك الكلمات وابتلاعها فتأتي مبهمة غير مفهومة وذلك بتضخيم الاشداق وفي نيتهم تصفية الحساب مع هذين الجلادين المماديين للأطفال أمثالهم: الحلاق والمعلم، على أن هذين الرجلين كانا مشهورين بدهائهما ومكرهما فلا يتركان أي فرصة تفوتهما وقد أخذوا يحلان رموز هذا الخليط المتعمد لمعقد والمزيج المتشعب المفتن بين النص

القرآني والنسيج الكلامي المحشو سفاحة وبذاءة وفحشاء من شأنها على فظاعتها أن تدفن العدد العديد من المسلمين تحت أركام من تراب الفضيحة والعار. وكان الختان يصارح نفسه وفي قرارة صدره يقول متظاهراً بالوقار والسيطرة على الأعصاب «فلنتركهم وشأنهم يعبثون وبدين الله يمرحون فإننا هناك للكثيرين وسوف نعرف كيف نسحق في أوانه أولئك الأوباش المستهترين...». ولولا مركزه الاجتماعي الرفيع ونعومة الصفة البنفسجية التي عليها يجلس لكان قد نهض من مكانه مشهراً أمام أعينهم المشددة المذهولة كل ما يحمل في جعبته من أدوات قاطعة، ماضية معمقة، لماعة تقضقض وترن في قلنسوة برنسه إذا ما تحرك (الات المعلم سي الزغواني هي كذلك رهيبة!) أواه. لنتركهم وشأنهم! خليهم يعملوا رأيهم والحق يقال لا تنقصهم الرجل ولا النباهة، الحق يقال... لكن لو نقصوا من زعاقهم وزعاطهم لكان الأمر أهون ولكانت الحياة هادئة لطيفة راغدة في منزل هذه العائلة العريقة... أما هذا التهور وسوء الخلق إنما يعودان إلى مسؤولية هذا المؤدب الحقير... هذه هي عاقبة كل من سلم أبناءه ذوي الأرواح الطاهرة مهما بدا منهم - إلى أمثال أولئك المتصعلكين من حفاظ القرآن المتفاخرين لمجرد أنهم سافروا من قسنطينة إلى تونس على أرجلهم ماشين قاصدين في الخفية جامع الزيتونة يتمرسون في المعرفة ويلمون بالمنكر والفحشاء والكل يعلم أن الفقه لا يؤدي بصاحبه إلا إلى الهلاك

واقتراف المذمومات... أواه. حدث عن جامع الأزهر وعن تعليم جدي، الله يرحموا! الدين والشريعة! واللي بعد ما رجع من مصر تسمى معلم على كل الطهارة والختانيين متاع هذا البلاد». وفجأة يفقد سكينته. ها هو ذا يتململ. لقد سيطرت على اتزانه ذبابة انصبت على تضريس شرايين صدغه الأيمن المنتفخ والبارز من شدة هزاله ونحالة رأسه. لم يعد يعرف ما يفعل. تحمل وأصبر، ماء الوجه يا رجل! لا تأفف ولا حركة! واستمر على ما كان عليه من وضع فيما راحت الذبابة تتسلق أنفه وتحلق حوله عبر شبكة متشعبة ترسمها برقصاتها المسيئة المزعجة أمام أعينه. لقد ثلمت الحشرة من شدة الحر وأخذت تبهره وتصطدم من حين إلى حين بمرتاح أنفه الرهيب: (كان سي زغواني يعلمنا حرف الذال ويقول: الذبابة، ثم يعلمنا حرف الضاء ويقول: القاضي) «اللهم صبرك» فهو يعلم علم اليقين أن الأنظار نحوه مصوبة وأبصار الأولاد بكل قواهم نحوه محدقة بحيث أنهم نسوا الآن كلامهم المغشوش وبالفحشاء والسفاهات مشحون. أما العدو اللدود هو ذلك المؤدب الحقيقير، يا له من محرف دجال إنه بالحروف الربانية يتلاعب ومنها يرتزق. يبغي معرفة من ينظر إليه على أن منزلته ووضعه في جلوسه لا يسهلان عليه ذلك، فقد كان جلاساً بعض الشيء شزراً تجاه سائر الناس الجلوس. ما لم ينظر، ورباً ويغالي زيادة. وإذا بعينه اليسرى تحرقه إذ راحت الذبابة في نخر ونخر مستمرين تنخر مؤقه الرطب

الديق الهلامي. إن تدمع عينه فهناك الطامة الكبرى...  
استريا ستارا!... فهو لا يشك إذ يشخص في ظفره  
الطويل الطاهر أن الناس يسترقون النظر إليه فيلقون نظرات  
ساخرة هازئة. «هل هناك من يحبني؟» (أتذكر نص  
الجاحظ: الذبابة والقاضي).

توفي أخي عبد الله فلبست أمي اللباس الأسود نهائياً  
وهي لم تترك بعد حدادها... لم يكن هذا التقليد من  
تقاليدنا ولا من أعرافنا. هكذا قررت هي... لم تعد تزين  
وجهها ولا تفصل فساتينها ولا تنقي زغب شفرتها العليا.  
كانت جميلة بل أكثر من ذلك... لا أجد الكلمة  
المناسبة. الكلمات خداعة! على أن أخلق كلمة جديدة.  
نعتاً من النعوت لوصف جمالها، جمال أمي... لا. لم  
تكن جميلة وإنما أكثر من ذلك بكثير وأقل كذلك. عندما  
لبست الثوب الأسود ضاعف هذا اللون بياض بشرتها،  
فواتها الحداد... ولأول مرة اخترقت العادات العائلية،  
كبرت أنا في ذلك المناخ (بالدارجة يقولون: عندها السر،  
مسرارة. أي أن جمالها خاص لا يمكن وصفه).. كبرت  
في ذلك المحيط: العويل والدم (كل أنواع الدم) والأموات  
(كل أنواع الجثث) والنحيب والفجور (كل أنواع الفجور)  
والبكاء والرهان (العقاري والتجاري والصناعي  
والمصرفي).. والتأوه والأقمشة (كل أنواع الأقمشة: القطن  
والحرير، والصوف والكريب والكتان والبركال...)  
والحسرة والبخور (كل أنواع البخور: الجاوي والشب،  
العنبر، الداد، والشوق والملح الافرنجي). والتنهيد وكل

أنواع الروائح، وخاصة منها روائح الأنسجة في ورشة الخياطة وروائح التوابل في المطبخ... ذات الطابع الخاص يمتلكه الجوّ بمجرد دخول الأقمشة والتوابل إلى دارنا. روائح (كيف يمكن التعبير عن ذلك؟) ذا ميزة خاصة بعائلتنا. كنت وأنا طفل أشتمها حتى على أناملي العشرة روائح وكأنها حرشاء. حرشة، حشة، مجعدة... وخير هذه النعوت كلّها، كلمة (مكشرد العامية).

لم ترد عليه. لم تأت نحوه. نادى من جديد: ألم نتفق على أن... جاء صوتها مباحاً، كأنه امتلاً متشبعاً من نسغ التوتة أو... حشجة العمه فاطمة أو من شيء من هذا القبيل... بلى. كان يعرف أنها... أوقف تسرعه. ما بك؟ لم ينتظر أن تأتي إليه نهض في اتجاهها وهو يحدس أنها تتوقع على ذاتها، رابضة على أرضية الحجر، متزاوية إحدى الز... ابهامها (لقبته بابهامها منذ اليوم الأول. لأول وهلة طلبت الطلاق من زوجها. قالت: أنت روجي. ابهامي الصغير... قامتك... الأيمن في فمها. عيناها مملوءتان من الرعد الأزرق إذا التقى البرق الأخضر: الغضب. لم يعد يحب اللعب والتلاعب لأنه لم يعد يعرف كيف ينشئ حدوداً بين ما يفهم من انبثاق الأشياء والعلامات وبين ما تعنيه بالضبط. كانتا مملوءتان طبقات ليلية كثيفة وفمها أيضاً: مملوء بنوع من المطاط أو الكريب الصيني (نفس نوعية القماش الذي كانت تستعمله أمه لتفصيل وخياطة الفساتين في ورشة الخياطة حيث تعرفت

على الشابة اليهودية التي... ) كان مستلقياً على الفراش وسط زخامة المحيط ما بين الأزرق والأسود. رفع بصره متردداً في اتجاهها (أي أنه بعد أن نهض، عاد مرة ثانية وتأوه واستلقى على السرير. رأى كل شيء من الأعلى إلى الأسفل (أو العكس) أو من الأعلى إلى ما فوق (أو العكس) تذكر بشار بن برد (تدحرجت من أعلى إلى فوق). فوق ماذا؟ لم ترد عليه. رأى كل شيء من الأسفل إلى الأعلى. في أقصى المسافة التي تفصل بينهما. استقرت عيناه على برق أزيراق عينيها. تفوه بشيء ما. ولم تفه بشيء. ظلت متفوقة، متربعة، مربّعة، مثلثة، مزدوجة (هي ولا هي) خلاياها المبتلة تشفطه شفطاً، ردد الجملة نفسها ممتعضاً. ثم وقفت بسرعة البرق، بحركة فريدة، دون أن تستند إلى يديها. ازدادت قرابة منه. جاءته بعريها وجسدها. (نوع من الفضيحة من فرط ما انتابه الشبق المنبثق منه) المتشامخ، المترهل، الفظيع. ألصقت مثلث فرجها المزغب بأنفه. أدخل أنفه في ثقبه الحياة. شم. تشمم. ثم رفع بصره. ثم: بدأ يلتحس كل ما كان هناك، بين الفخذين: البظر، الشفاه، الشقة، الزغب، الماء. الماء الخاثر. وإذا بالسيلان الزاخم يتدفق، فتبتعد قليلاً. وهو: صار اندماجي بك تاريخياً نهائياً أبدياً... لا قدرة لي... قهرت بعد صمود طويل وزوجتي تحبني هي أيضاً... هي: هذا ما يفوتك. لم تستدرك الأمور وانفلتت منك الخيوط. بقيت هكذا. مثلك مثل عمك، بعد أن تركته على رصيف



موقف السيارات، دهشاً... أنت أيضاً لا تحب إلا أمك... بقيت معلقاً بروائح الكريب الصيني ومساحيق التزيين وجعب أحمر الشفاه... معلقاً... ترفض الحب... أولج ابهامه في فرجها بعنف وهي واقفة إلى جانب السرير. شعر بمتعة تتسلق شرايينها وتملا عينيها (رددت، رمرمت: أنت روحي، ابهامي الصغير...).

حدس أنها وضعت ابهامها في فمها، وراحت تمارس عملية المص والامتصاص وهو يولج ابهامه ويخرجه. بدأت بالتلوع. هربت. دارت على أعقابها مرات فمرات، وضعت كفيها وراء رأسها، اخترقت الجوّ دائرياً، من اليسار إلى اليمين. زاد عريها تعرية. تورم فرجها. انتفش زغبها، تقعرت كلماتها وتهشمت وتميعت وانفطت (من نفاط؟) وتنسلت... ثم: الوجوم. وهي: ملأت عيني منه. جاءني الطوفان. امتلأت بمائي وتركت ماءه يضرس في قضيبه ويحمض (و... يروب؟).. ملأت عيني منه. لم يتكلم.

لم تكن ملامحه غامضة هذه المرة استغربت ذلك... سنوات وأعوام وأنا أنظر إليه (قبل أن أضاجعه، أدخل سريريه، أغتصبه وهو يحاول كل المبررات الشرعية والأخلاقية والفلسفية: زوجته، زوجي، الثقة، الخيانة الخ...). ولم املأ نظري منه. كنت مسحورة. تحت تأثير العشق كنت. أكاد لا أعرف حتى شكله... كان الجو بيني وبينه مكهرباً وأنا أتجاهل ذلك وأختفي وراء الزوجية والوفاء بالعهد... وهو: عادت الريح الساكنة المتثاقلة

المتورمة تحترق صحائف صحائف، من الشمال إلى الجنوب... كنت أدور في الإتجاه المعاكس... قاعداً. ساكناً. باهتاً. أريد أن أغضب من تصرفاتها هذه. أشنج أوتارى... لكن. لكنها رائعة وأنا - نسبياً - رديء. يصلني صوت سي الزغواني الذي كان قد علمني حروف الهجاء تحت ضغط الخوف (المقص، الكحول 90د، القطن): رديء جداً أنا. يأتيني من وراء القبور، يوبخني (الراء راء والزاء زاء، يا ولد) يأتيني من خلال أثير الموت. كان صوته يشبه صوت جدي المصباحي في شركة السكك الحديدية. وكثيراً ما حدث لي خلال تلك الأصابع الرائعة التي كنت أتصل فيها مباشرة (عن طريق الخمر وقليل من المخدرات) بجدي من أمي: محمد بلفريخ. حدث لي أن أتذكر ذلك اليوم المشهود الذي اصطحبني وإياه في قطاره إلى مكان ناء. لقد اكتشفت آنذاك وللمرة الأولى في حياتي أن الثلج الذي يتحدث عنه الناس والذي قرأت عنه فيما بعد في بعض المصنفات الخيماوية، موجود حقاً وصدقاً. وبعد حوالي عشرين سنة من ذلك التاريخ، سقط الثلج للمرة الأولى على المدينة فغطى مزروعات جدتي (مسعودة) ونشر بياضه على الفزاعات التي كانت قد طلت وجوهها بدهان أسود لتجعلها أبعث على الرهبة. والحقيقة ان مسعودة التي نشأت في عائلة من البورجوازية الساحلية كانت تخدمها في سنواتها الغريرة زنجيات يغسلن مؤخرتها بماء الورد، ويعطرن دورات المياه بالصمغ والعنبر

عندما تقضي حاجاتها. وقد كان جدي مأخوذاً بهذه الظاهرة الطقسية العجيبة. فسارع إلى التقاط بضعة كيلوغرامات من الثلج الناصع خفية. ووضعها في كيس من البلاستيك وأغلق عليها في المبرد الذي صنعه حفيده «حميد» من قطع مختلفة. وقد كان هذا قادراً على بناء صواريخ بأجنحة الفراشات. أما مسعودة التي ترسب في نفسها من تربيتها السابقة احتقار مرعب للجنس الأسود، وولع بماء الورد وماء الزهر وعاطفة اسطورية تنس حتى أبناءها، فلم تستطع أن تمنع الثلج من اتلاف فزاعاتها. وكان من بين هذه الفزاعات واحدة تمثل السلطان محمود الثاني الذي اشتهر بصرامته وبطشه، والذي ظل معلقاً مدة طويلة فوق سرير والديها... أما رشيد فجعل يقوم كل صباح ويذهب إلى المبرد ليسحب الكيس المائي ثلجاً ويلعب به بضع دقائق فقط خشية أن يذوب ويسارع إلى إعادته إلى مكانه حيث لا يتعرض للتبخر. وقد خيل إليه أنه باق على الاتصال الجسدي الملموس بجده المنسابحي لاسيما وأنه علم في ذلك اليوم الذي تساقط فيه الثلج للمرة الأولى في القرية ان جده هذا حينما مات، عثر عليه مطموراً تحت الثلج على بعد مائتي كيلومتر من القرية، وقد ضم إليه مصباحه وصفارته. سنة تأتي بأخرى وانتهى الأمر بي إلى أن أطارد الحزن والصدمات الكثيرة التي آلت إلى موت جدي. ونبت حشيش الزمن على هذا الحزن الطاغي... وما أسرع ما سئمت هذا الوضع الذي سقطت فيه بعد وفاة جدي،

فأخذتني لوعة القراءة والمطالعة ورحت في زيارة معلمي  
القديم سي الزغواني وقد كان متقاعداً، فاستلفته عدة  
مخطوطات كان قد ورثها من أجداده منذ القرون الغابرة،  
واستغللت الفرصة فسألته عن قضية أدوات التعذيب  
(المقص، الكحول 90د، القطن) التي شهرها أمامنا في  
اليوم الأول من دخولنا إلى المدرسة، فراح يتسم متنهداً  
وكانه يحن إلى ذلك العهد ويتشوق إليه ذاك الذي كان  
يعلمنا فيه الأبجدية... عدت بمخطوطات سي الزغواني،  
وبدأت منذ ذلك الحين في مطالعة ابن خلدون...  
واستغللت الفرصة. أسكتني. قالت: أنت أيضاً؟ ليست  
عقدتك عقدة الأب بل عقدة الجد... وابن خلدون  
أيضاً... فماذا مثلاً عن عبقرية ابن خلدون إذا قسناها  
بالمحك النفساني؟ حاولت مقاطعتها. استهزأت بها، هزأت  
منها. ودونما جدوى... قلت: دعينا من التنظير  
والتفقيه... لقد تغير صوتك. أصبحت نبراته تشبه نبرات  
سي الزغواني... بلا فظاظه يا مريم... من فضلك...  
لم تتوقف... بل تابعت، واصلت، داومت، استأنفت  
سفرتها إلى أبراج التاريخ الكوني واصطدامه بالعلوم  
النفسانية وتحليلاتها... واصلت: ابن خلدون؟ عبقرته فقط  
مسألة فطرة ولا فترة، فهي أيضاً قضية تاريخ الشخص، أي  
العوامل الذاتية الحميمة هي التي تلعب كذلك دوراً هاماً  
جداً في مقومات العنصر العبقري... وأنت قرأت كل ما  
كتبه ابن خلدون ولم تتوقف عند حادث هلاك عائلة صاحبنا

هذا. وأنا: أعرف. أعرف. أعرف التفاصيل كلها وما في هذا الحادث الذي غرقت اثناءه كل عائلة ابن خلدون من جزئيات ودقائق... وهي: (مغتازلة) تعرف؟ لا تعرفون أي شيء... إذن خمسة أسطر لا غير يخصصها العبقري لهذه المأساة العائلية؟... وأنا: أين كتبت الأسطر الخمسة هذه؟ وهي! في سيرته الذاتية... لم تنتبه إليها طبعاً... خمسة أسطر هزيلة في وسط بحر من المجلدات المكتظة حروفاً وكلمات وشبه الجمل والجمل... خمسة أسطر مسكينات كتبها العلامة في هذا الشأن... لماذا؟ لأنه كان معقداً... عقدة الجد أصعب ياخوية من عقدة الأب. لأنه كان لا يهتم إلا بالتاريخ وبينهما حساب وعقاب. كان يقط السلطة، يكرهها، يحقد عليها استناداً إلى ذكائه وعبقريته (العبقرية نتيجة عوامل مختلفة كثيرة لا تحصى ولا تعد)... خاصة وأنت تعلم أنه كان كثير التقلب والتنقل، ولا يعرف الاستقرار ولا السكنينة متنقلاً من دولة إلى دولة ويضرب الواحدة بالأخرى، مستغلاً في ذلك حسده الرهيب وتناقضات الملوك والسلاطين؛ وعندما نتأمل في سيرته الذاتية التي كتبها بيده، نلاحظ أن الرجل يعرف كيف ومتى ومع من يتواطأ، وذلك انسجاماً مع الظروف التاريخية الملائمة وكان يحدسها حدس البرق. فلا بدّ إذن من مفتاح نفهم به هذه الألغاز التي كانت تحيط بحياة هذا العبقري الفذ. كان ابن خلدون قد قضى أربع سنوات بقرية قريبة من فرندا الواقعة في الغرب الجزائري وذلك ليتنصل من أيدي

الملوك المستبدين الذين حيرتهم فترة الإنحطاط، وكان ابن خلدون يحتقرهم جميعاً مرغماً نفسه على دبح القصائد، فمدحهم حتى يفلت من شرهم (وإن كان شعره رديئاً للغاية فإنه يدل على عدم نزاهته وقلة استعداده على القيام بمثل هذا الدور، دور المهرج البلاطي) كما كان يتحرش بملك ضد الآخر ويتصرف إزاء مطالبهم وأوامرهم بنفس الخسة التي يعمدون إليها وكان صاحب المقدمة الخالدة يحقد على الملوك والسلاطين والوزراء وعلى كل من توفرت لديه مثقال ذرة من السلطة خاصة وهو لم يعرف جده الذي خنقه ملك إشبيلية وقد كان وزيراً لخزائنه آنذاك، ونشأ الطفل في هذا الجو من الحقد والطغيان ولم ينس ذلك الاغتيال البشع الذي راح ضحيته ظلاماً وطغياناً جده.

ويقال إن موت جده ترك فيه بصماته إلى الأبد. فضلاً عن أنه شهد عن كثب تدهور الممالك وخرابها، فتظاهر طيلة حياته كلها بافتقاره إلى حماية الحكام وقد كان في الحقيقة لا يسعى إلى السلطة والحكم إلا رغبة منه في التسرب إلى أعماق القصور والمقصورات الخلفية، فيشاهد تصرفات الساسة ويفهم من خلالها تلك العوامل الذاتية والموضوعية التي أدت بالدولة الإسلامية إلى التلاشي والتمزق. وقد اضطلع بالوزارة الأولى عدة مرات وفي عدة دويلات وصار قاضي القضاة وطبيباً ملكياً فجاب البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، على أنه لن ينسى قط اغتيال جده وهو ما زال طفلاً يترعرع، فكان همه الوحيد كلما دخل بلاطاً من بلاطات الملوك أن يتمكن من الوثائق ليكتب

تاريخ العرب والبربر فانهمك فيه ولم يكن لديه الوقت ليهتم  
بالمشاعر والأخلاق وانعواطف.

غرقت عائلته كلها في عرض البحر بالاسكندرية في شهر  
مارس 1398 ولم يكتب حول هذه الحادثة سوى خمسة  
أسطر هزيلة. وسنة 1400 قابل تيمورلنك الذي كان يحاصر  
دمشق وأعلن له عن ولائه. هل هذه خيانة إزاء السلطان  
محمد الناصر؟ لا، على الاطلاق. إنما الأمر الجوهري  
والأساسي في نظره هو المعرفة، هو شرح دواليب التاريخ  
السياسي. وفي جوان 1400 فرغ من تحرير مصنفه حول  
المغرب الإسلامي وسلمه إلى تيمورلنك المغولي، كما  
سلمه أسراراً عسكرية عام 1401 ودمشق تلتهمها النيران  
التي ادلعتها عساكر المغول، وكان ابن خلدون واقفاً إلى  
جانب الملك الغازي ينظر إل دمشق تشتعل وتلتهب غير آبه  
ولا مكترث. ولعله من الممكن شرح كل هذه المواقف  
الخلدونية وكذلك عبقرية واضع المقدمة، انطلاقاً من مقتل  
جده ومن محاولة اغتياله هو نفسه من قبل ملك تلمسان عام  
1375. ففر هارباً واستقر على مقربة من فراندا كما سبق  
القول وذلك بعد أن كان وزيراً أوّل في بجاية عام 1365  
وسفيراً متنقلاً عام 1364 وعميداً لجامعة تونس عام 1363  
وقاضياً كبيراً لغرناطة عام 1370؛ وبعد تراكم كل هذه  
التجارب السياسية والإنسانية فقد الرجل كل عاطفة فلم  
يذرف ولو دمعة واحدة عندما وصله نعي عائلته بالقرب من  
الإسكندرية، فلم يكن يهمه ذلك بقدر ما كان يهمه وضع  
المقدمة وهي أول منهج في علم الاجتماع التاريخي عرفته

الإنسانية فتمكن هكذا بعبقريته أن يثأر لجده المقتول خنقاً على يد أحد ملوك المغاربة؛ ولعل حقه على الذين خنقوا جده هو الذي شكل الحافز الأساسي الذي كون عبقريته وبلورتها بلورة. فماذا يعني هلاك أفراد عائلته بالنسبة إلى عبقري مهما كان أصله... لا شيء! لذا أقول إن العبقرية شيء رهيب. وأنا: أتعمد الآن السكوت بعد أن انتهت من حديثها. أتركها. تترقب رد فعل أو تصفية أو تشكرات أو اعجاب... ولا يصدر مني قط. أحاطب نفسي محاولاً محو كل ما قلته عن ابن خلدون... هراء... هذيان... (هدرة؟) هدير... أقول: قرأت المخطوطات التي سلمني إياها معلمي الزغواني: ابن خلدون والجاحظ وكذلك قصائد (من أين أتى بها معلمي؟) أحمد بن ماجد والتي خصصها للمآثر البحرية التي حققها فاسكو دي قاما، المستكشف البرتغالي، حينما وصل إلى ميناء مدينة كلكوتا يوم 28 مارس 1458 وعدة أشياء أخرى... قالت: قفا التاريخ وخلفياته ودكاكينه الخلفية المعتمة... وأنا: (بعدد الصلح أو للتصالح؟) كلما أسكر، كنت أحصل على رؤية غريبة: كنت أرى جدي وهو متربع في الفناء على الأرض، منشغل بقراءة هذه المخطوطات (أو على الأصح: الكتب المكتوبة بخط اليد من قبل معلمي) أوفك رموز مخطوطات أخرى عتيقة بالية مكتوبة بلغات أجهلها. لغات قديمة. كالمصرية القديمة والأرامية والعبرية والبربرية والأشورية. وتخطيط أوراق البردي وخربشة لا أفهم لها من معنى.



وكذلك: حل رموز خرائط السكك الحديدية ودليل الطرق البحرية («وعندئذ وجه معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج على رأس جيش يغزو جزيرة صقلية. فكان ابن حديج بذلك أول من غزا جزيرة صقلية وكان ذلك عام 46 هجرية... وقد أغزى لذلك جيشاً في البحر إلى صقلية بمائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر فاقتسموا فيهم») (ابن عذارى، في كتابه: البيان المغرب ص: 16 و17).

... ملأت عيني منه. لم تكن ملامحه غامضة هذه المرة. استغربت: سنوات ولم أملاً نظري منه... قلت: لنجعل التاريخ جانباً: ابن خلدون وابن عذارى والنويري والمسعودي وابن الأثير والبلاذري وابن بطوطة والكندي والمقرئزي (سوف نعود إلى المقرئزي فقط، إنه عبقرينا المجهول! هل قرأت له كتابه: إغائة الأمة بكشف الغمة؟ طبعاً لا... لكن)... لنلق التاريخ جانباً... كنت مسحورة يوم تعرفت إليك... ثم: وضعت يدها على هامته. أمسكت بها كما تمسك بلعبة. إدارتها كالخدوف على قدم واحدة، حول محوره الشاقولي. ظلت هادئة تتابع ركوده المخيف. رفضت نظرية الواحدة بالواحدة والبادئ أربح. أراد أن يجيب ولكنها لم تفسح له المجال ليعبر عن رأيه. كانت تقف في محور رؤيته الأفقية: شاقولية، كثيفة، مليئة، مدورة. لم تخترقها حزم الضوء المرسله من عينيه.

سالت من سرتها إلى الأسفل، متكسرة كسيل ضوئي متجمد  
ومتكسر جذاذاً جذاذاً، أو رقاقت رقاقت، كان - في  
الخارج - الهواء جافاً ملتهباً لا علاقة له بهذا المحم - في  
الداخل - الجبني الذي كان يفوح جوه رائحة صوف مبلل،  
رائحة محيط مسلخ من المسالخ الضخمة في احدى المدن  
المتضخمة المتورمة:

«شيكاجو»

12 - 11 - 1929

«حسان»

(حيث تنبثق رائحة المصارين المغسولة بالأمونياك،  
وذخه، مرسله نوعاً من مادة سميكة، رطبة، يتحرك فيها هو  
(أبي) وفي الذاكرة، وعلى البشرة انطباعات وأحاسيس  
تطبعه إلى درجة الاختلاط - المتقطع - . للأمكنة والأزمنة،  
كما لو كان مخه قد زود للأبد بضرب من البقعة المنيرة،  
وان كان صحيحاً أنها كليلة ولكنها حمراء مصابة بارتعاد  
تشنجي أبدي كتلك التي تكبر وتصغر وهي ترسم منحنيات  
التوائية حين يصور كهربائياً دماغ مريض في الغيبوبة...  
يشعر بنفس الإحساس أثناء أسفاره إلى كبريات المدن.  
تصدر من دماغه أمواج كهربائية غير منتظمة، أحياناً متقطعة  
وأحياناً ضعيفة وهنة. مع ذلك الفارق الضئيل، كون البقعة  
الضوئية التي يراها حمراء - برتقالية - بنفسجية، والأخرى  
(في المستشفيات مثلاً) بيضاء سرعان ما اعتاد بشاقتها،

والآن أصبح (الإبن) يمشي على آثار أبيه، سالكاً نفس السكة، يائساً، تعباً، مجهداً، محموماً، مكدوداً من الاصرار، رديء الحلاقة، دون أن يستيقظ جيداً من حلمه وهو يرمى بسرعة مذهلة في أحضان الواقع الذي ما فتىء لا يطاق، وقد تخلى عنه دليبه ذو الهيجان الذي لا يغتفر. منطلقاً في حميمية، يحاصره خيال الصور الاشهارية التي تعرض فواكه وخضر يعرفها (ورشات تجفيف الفواكه والخضر التي كان يملكها أبوه) إلى درجة أنه يشعر بأنه يكتشف الرائحة المختلطة بنفس الأخرى (ماريا (مريم) اللامبالية، الجريئة، الحميمة، ببشرة متماسكة وعضلات ملساء، وهو يحلم بها في تجوالها عبر شوارع العاصمة حيث تعرف عليها، فتظهر له من خلال المنام كالتالي: كانت لا مبالية بردود فعل الآخرين، وقد ذهبت الساعة، اختفت، ابتلعها الموج البشري الذي شرع يتضخم، يتسم بالأحشاد، متخلية عنه هنا، كسيحة، حالمة، مستنشقة الهواء كي تتأكد فعلاً من واقع جميع هذه العطور التي تختلط في رأسها، تطبع بشرتها كدمغة مؤلمة لا تمحي تشعر بأنها لن تملك من التخلص منها عما قريب (مسك، اكليل الجبل المعطر، روائح حمام عمومي، رائحة برتقال، تمر ومشمش، الرائحة المحتمضة لشحم الغنم وهو يجف على حبال متشابكة، في دكان جده هو، قبل أن يغادره الأب ويغوص في خضم المدينة الكبيرة، ثم في معمعة كل مدن العالم الأخرى، المتضخمة، المتصاخبة،

المتعجبة... روائح ننته تنبعث من الجو تحت الأرض وخاصة عطرها هي، المحرق الذي توقده الذكرى بجنون، ينفخ كامل جسمه؛ تلك الروائح إذن التي تجمده (أبوه) على مقعد، تعباً محموماً ينهكه الاصرار؛ والحلم الخاطف المتعب يحثل في جمجمته، فلم يعد يعرف إلى أين يتجه (في بداية أسفاره)، وكيف ينتقل داخل متاهات المترو مثلاً، تائهاً، غارقاً في أروقتة تثقله حقيبتة، والتقصير القدري والمهزلي في نفس الوقت... اقتربت منه أكثر، قبل أن يطابق رؤيته. سد مثلث فرجها وجرفها، جذبها إليه. رصت عانتها عليه بقوة. احتك الجلد بالجلد والعظم بالعظم. كاد أن ينفلت داخل نوبة من الضحك لكنه استدرك الأمر: يحبها. التزت لاصقة ثقبها بقضيبه. مر الزمن مختلفاً. اختلطت الحركات بعضها ببعض، هيسترية، عضلية، عصبية، تشنجية. أصبح المزيج الجسدي والخلط المائي مهروسين. أسرع الزمن أكثر فأكثر، اختلج جسدها. هزة أرضية. تباطأ الزمن. بدأ الجسم يرتخي. يتسلى. عادا من الرحلة عرقانين. مرهقين، كارفين، مبتهلين. لمت أطرافها المقلوحة إليها، تكوّرت. استدارت نحو الجهة الأخرى، تركت الفراش. استلقت أرضاً. انبطحت، تململت قليلاً بنعومة ولين. مدت ذراعيها إلى أقصاها. أمسكت بابهاميها. ثنت ساقها. جرت قدميها نحو نهدتها بشدة. أصبحت متفوقةة (وكأن وضعية التفوق هذه هي المفضلة عندها). بين الفخذين تشكلت زاوية من ستين

درجة. رأى هذا: في عمق الزاوية الأعلى، تباعد الشفران، وسطهما بان لسان الفرج وريداً، براقاً، مشبعاً، متضخماً. متطاولاً، شبيهاً بفروج البنات الصغيرات بعد أن سال البول منهن...

ثم حدث الآتي: تذكرت ومريم على هذا الوضع ابنة عمي: كنت وأنا مراهق أتلحمس عليها: (احدى بنات عمي لم تتم بعد فذهبت إلى غرفتها وكانت لا تزال عباقرة بروائح حفلة الزفاف ونظرت إلي وأنا ألج مأواها ولكنني كنت ألاحظ ظلي وقد سبقني مسرعاً غليظاً فائضاً من كل صوب ومن كل جهة إلى حد بلوغ السقف. رأيتني بنت عمي وقد وصلت إليها. لا بد أنها كانت تخشى بالخصوص ذلك الظل الكثيف البالغ من الغرابة المضحكة ما بلغ. قالت في البداية إنها لم تفهم القضية ثم استطردت قائلة إنها لا تريد، بسبب الدين. لقد كانت أكبر مني سناً وكانت بصدد تهيئة جهازها منتظرة زفافاً محتملاً. وتمكنت بفضل ظلي من دس يدي تحت قميص نومها ومن عرك فخذيها عركاً وكانا غليظين. سميكين. سمينين. ولامستها، وداعبتها بعنف، تأوهت التذاذاً؛ وتجرات لحظة فجلست فرجها ولكن يدي لم تصادف إلا ركاماً من الشعيرات الندية فتقرزت من ذلك وسحبت يدي فجأة وعلى عجل وكانت دموع ابنة العم تترى هل انتهى خوفها من ظلي وقد كان ذلك الخوف قد غمرها أكثر مما غمرتها ملامساتي الخرقاء لها؛ وأما أنا فكل ما كنت ابتغيه هو بلوغ ذلك الشيء الفظيع الوهمي

الذي كنت أتوقع وجوده في ظل العانة الشعراء. كنت أريد وضع يدي في ثقب الحياة تلك التي لم أكن أعرف منها إلا الآثار الصفراء على السراويل. ويتملكني الخوف فأبقي هناك لا أنبس ببنت شفة. لم تكن تلك هي محاولتي الأولى. ويكون الفشل مرة أخرى! لقد كانت ملتصقة بي تشد نفسها إلى صدري وكنت قد أزمعت بعد على مغادرتها (كانت تقول: تحسس فحذيّ لأمسهما إنهما ناعمان كالحرير). لم تكن لفهم موقفي الانهزامي أمام فرجها البكر الذي كانت راغبة عن رضى في تركي ألامسه وأداعبه بل وفي السماح لي باقتحام أسواره وفتحه فتح الغزاة. كانت عالقة بي. لا بدة. لا تدعني وتقول إنها تحبني (يا لها من صبيانيات). ويا لها من مهزوء منها ترتعد وتزداد احتياجاً فتستسلم محمومة إلى معانقتي معانقة لا دقة فيها ولا وضوح. واحنو شفقة على تعاستي الشخصية تلك إذ كنت أطلب في تلك الآونة بالذات باسترداد أمي، أمي المجروحة، أمي المخدوعة. ولكن الأفكار كانت تفر مني جامعة. فكنت انتهى في كل مرة إلى ذلك الردب حيث كان يقذف بي منجنيق البراءة الصبيانية المرة المذاق (إذا لم أكن أعرف كيف أنتقم لنفسي من قسوة القبيلة وسيادتها تجاه الأم) الضباب المتعدد الألوان أمام عيني والألم يسري في ظهري. أما الأخرى فقد شدت نفسها إلي كما يشد الجدار إلى الزافرة، كأنها تسعى باحثة لعلها تعثر على كيفية التعانق والانضمام تتغير لها معطيات وضعها الجهنمية. وأما

أنا فقد كنت أمرار على جسم بنت عمي يدين ناسكتين وقد  
غمرنى شيء كالعمرى، كعمى الأنبياء العلامين بالغيوب وها  
هي ذي الآن قد عيل صبرها فلم تعد تطيق تلك الحالة  
فتأخذ في اعتبار نفسها كالبرج. علي أنا أن أحاصره. وأنا  
فقد كنت أبحث مبرشاً في قعر التقية الباقية الفاترة من  
ضميري عساني أتمكن من بعض عمليات الاغتصاب  
الأساسية لحق معنوي ضد الأسرة (ولكنني لا أتحصل على  
شيء). وأما هي فقد كانت لا تريد عملية مزيفة مصطنعة  
وأما أنا فكننت أئن وأتأوه في حماقة بلهاء. ولما بلغت  
نهاية قدرتي على الطاقة والاحتمال انقلبت فصرت لا أدري  
ما أفعل. كانت ممتعة اللون شاحبة. شعرت بالرطوبة  
والنداوة. ترى ما السبيل إلى حملها على الإنقطاع؟ لم يكن  
ثمة الا حل واحد، أفقه، مفتوح أمامي: أن أعبر عن  
مختلجات نفسي من خلال هذا الجسم، جسمها، وأخذها  
الهلع فتمددت على الجليز العاري المتألق مباشرة وعضت  
على شفتي السفلى وفيما كان دمي يسيل متقاطراً على جسم  
تلك العذراء الامرد كنت أنا أضيع وقتي في اشتمام تلك  
الرائحة الكريهة الصادرة عن ذلك الشق الممزق المقوس  
الحافات كأشنع ما يكون التقوس. وأخرجت (يمينه) إذاك  
نهداً مبتدلاً بسيطاً من نهود البنيات الصغيرات الناضجات  
الجنس قبل الأوان فأسرعت أنا إلى عركه عركاً كانت  
غايته من ذلك التظاهر بالقيام بعمل ما. ولكن ذلك الثدي  
السخين الذي يرثى لهيئته بحلمته الصلبة المزروقة اللون،

ذكرني بضرع لتك العنزات التي كتب لي أن أرى الناس يحلبونها في ضيعات أبي فكنت أتوقع طيلة كل تلك اللحظات أن ينبثق اللبن فاتراً من نهد تلك البنية المضطجعة في استرخاء مضحك فيغمر ثيابي ويسيل على الأرض ويغزو المنزل بأكمله فتموء القلط مواء وتلغ فيه فتلعه بضربتين مختلستين من ضربات ألسنتها المتوردة اللون، ثم كان العدول فتخيلت... كنت أريد الانصراف ولكن ذلك الفرج المضحك في غرابة هيئته المنفرج انفراجة حمراء قد سحر لبي فكنت مفتوناً به افتتاناً، عندها لم ازد على أن نظرت إليه نظرة اجمالية بدون الاعتناء بالدقائق والتفاصيل... وداخلتني الرغبة بعض لحظات على النط والجولان في مرح خلال ذلك المثلث الضخم الأشعر ولكن فكرة اللبن الذي قد يصل حتى إلى تحت سرير أمي فتفيقها رائحته الحادة كانت تعكر علي فرحي الرائع، فرح غلام صغير كان جالساً على قمة عجيزة (معجزة) وانتابتها إذاك حشرجة. خفت من أن تنفجر بين يدي المرتعدتين ولو كان ذلك لانضاف الدم إلى اللبن وفجأة إنصرفت إلى غرفتي تاركاً ابنة عمي تخفق خفقاناً في حماقة أنوثتها وامتلائها بعد بحيضها الهزيل وانفراج أسفلها انفراجاً في منتهى الكمال، وغرابة هيئتها الباعثة على الضحك وكسلها وتعاستها بالخصوص لفكرة ذلك الأثم الذي اقترفته في تفاهة يرثى لها).

(نجوت إذاً بنفسني ودخلت من جديد في عالم النوم الذي لم أفارقه قط: لقد كنت أشعر دائماً بشيء ينقض على



مضجعي وأنا نائم كما لو كان ثمة فراغ أزلي كنت أرهق نفسي كل ليلة في سده سداً. كان نومي متقطعاً وكان الأمر ينتهي بي إلى اللهثات عند طلوع الفجر وقد انبجس نوره فجأة في غرفتي (حيث التوتة تشرئب أغصانها) فلم يترك لأمي أدنى مهلة ولا راحة فينتهي بها الأمر إلى النهوض، ولم أكن عند ذلك أعرف هل أنا في حالة نوم أو منام. والذي كان يزيد في ترددي ذاك هو طشيش الماء في الجفنة المعدنية وشف اللحم العاري المتناوبان في ضميري تناوباً خارقاً للعادة في سرعته، فهل كان ذلك مجرد كون أمي كانت تغتسل في دوي وضوضاء في غرفة الاستحمام فحسب؟ لقد كنت عاجزاً عن التمييز بين الحقيقة والخيال من خلال جميع تلك المشاعر والأحاسيس التي كانت تسطو علي فتتحم نفسي اقتحاماً. إن تعقد ذلك الوضع واشتباكه كانا يحملانني في نهاية المطاف إلى النوم نوماً عميقاً وقد انتابني القلق من جراء صوت أمي وهي تصلي صلاة الفجر. وكانت تقرصني ولما أشف غليلي من الكوابيس المتهاطلة علي. تبتغي إيقاظي إيقاظة صباحية مفاجئة كانت أكره شيء عندي. لم يعد هناك مجال للشك فقد كانت الأشياء تثور متمرّدة أمامي فتتصور زوايا كثيفة المادة وتفجر داخل عيني بدون أن تعميني والحق يقال، رغم هيجان التوتة واقتحامها الغرفة من خلال النافذة المفتوحة).

كانت مريم مبهورة بتأرجح نفسها بين اليقظة والنوم منذ

طلوع الشمس وهي نائمة ورأسها تجاه الحائط وقبل أن تحبس، حسب لون الستار المسدل على نافذتها عن ماهية نوع فريضة النهار، فتعرف ما هي حالة الجو الخارجي استناداً إلى حركات الشارع الأولى التي تصل إليها مطاطها وامتدادها الطري أو باهتزازها وسهامها المنطلقة في الفضاء الفارغ المدوي وهي تنذر بصباح فسيح الأرجاء، جليدي وخام. ماريا بين نوم ونعاس وبين يقظة ووعي. تعلم علم اليقين، قبل أن تفتح النافذة أو تنزل إلى فناء الدار لتحتسي قهوتها فيما أبي تائهاً في استيهاماته اللذيذة، تعرف فيما إذا كان النهار ممطراً أم صحواً ذلك باستيحاء من أجراس الدرّاجات الأولى تلك التي تمر بالقرب من الدار بشكشكة حديدية وصرير سكتها تن تحت عجلات مستديرة ضخمة. ولعل الأحاسيس التي تقتحمها وهي ما زالت في الفراش، إنما تتداخل في شبكة النوم من خلالها تنزلق، فتصبغها بلون الحزن إذا ما كان الجو غائماً وبلون الفرحة إذا ما كان الجو صافياً وكثيراً ما تقبع مريم في بيتها أياماً طوالاً، لا تعرف للعننيا وجوداً إلا من خلال النافذة المغلقة، والشبائيك الحديدية المزخرفة من ورائها تلك التي تغربل الضوء والصوت والرائحة وكأنها مصفاة دقيقة لا تأتيها إلا بواقع الأمور وصحيحها. وكلما استفاقت وصادفت يقظتها مرور الحافلة المتّجهة إلى العاصمة، تذكرت تلك الصباحات الرائعة التي كان يصطحبها فيها أخوها إلى المدرسة. خاصة من خلال السنوات الأولى التي كان فيها

يحملها ومحفظتها على كتفيه ويجري بها فيلهث من فرط ما يتعب وهي فرحة تضغط على صدغيه بيديها، فتنتفخ شرايين رأسه وتخاف أن يموت فتسأله: «هل ستموت؟» ويردّ ان نعم، فتخاف وتهم بالنزول وهي لا تعرف ما لكلمة «موت» من معنى لكنها تعلمت أن تسمع الكبار يتلفظون بها بتخوف وحذر وربما بشيء من الخشوع. لم تفهم الكثير من الأمور الأخرى...

أما أنا: فانطباعات تكاد تشابه انطباعات مريم... لكن دائماً تلك التوتة. قالت مريم: التوتة رمز علينا أن نفك لغزه. أن نجد له حلاً... قلت: أتذكر ذلك العهد الذي كنا نلعب فيه داخل الشجرة هذه. أتذكر أختي سعيدة وهي تصعد إلى أعلى التوتة التي كانت تبلغها رويداً رويداً داخل أعماق كثافتها... تبتلع التوتة سعيدة... الظهر، ثم المؤخرة التي كان يغطيها قطن السروال الملطخ ثم الفخذين، ثم الساقين ثم الأرجل ثم الأقدام. وقرع الأواني يأتينا من المطبخ مع روائح الكسكسي وهو يفور في الكسكاس وتأتي غوغاء لا يمكن تحديد مصدرها ولا من أية غرفة بالضبط آتية هي. ونغمات الأصوات تدندن القرآن والذكر. ومهدي يتمرغ وسعيدة تحاول استلفات انتباهنا. انطباعات تتكرر: دم مشبوه فيه. خليط من طمث ومزج ورحيق. ويلصق الوحل بالنعل كأنه... والعجوز (فاطمة) من ورائنا لا تحترم أحداً. كنا نخاف منها وأمي كانت تخافها. إنها ابنة عم أبي وشغالة. أو بالأحرى كانت

تشرف على الشغالات، لا تشفق عليهن ولا ترحم. تكره الأوساخ ويمقطها هلواس النظافة، لا تخاف أحداً إلا السلحفاة الصغيرة (فكرونة) التي كانت ترفض الاستقرار في الحديقة أو في الفناء فتتعمد المكوث في حجرة أمي تدور حول الضوء مهما كان مصدره وتقضم ورقة الخس تنحتها نحتاً. ترفض العجوز الاقتراب منها وهي كثيرة التطاير منها قائلة أنه الحيوان الوحيد الذي ضمن مأواه في الجنة والدليل على ذلك أنه يحمل معه داره... إليها. فنحترم بدورنا هذه السلحفاة التي كانت تخطط الفضاء جيئة وإياباً داخل الغرفة حيث يتراكم الأثاث، تدور دورانها المستमित والأخرى من ورائها (العمة) تلهث وتتنفس الهواء بسرعة، تحتسيه بأنفها، تنظف الأرض وتحكها بفرشاة حديدية مشبعة بالصابون وعقاقير أخرى صاقلة ومطهرة. لا تترك للجراثيم حظها لتتزايد حتى إذا ما اصطدمت بالسلحفاة من غير قصد، استغفرت وقامت بالكفارة فتصوم يوماً كاملاً قائلة أنها قادرة على جرنها معها إلى الجنة إذا عرفنا كيف نحسن تعاملها. وكنا نكرها (العجوز الشمطاء والسلحفاة المتخنثة) - ذكر أم أنثى؟ - ومن حين إلى آخر، كنا نغلق الباب على الحيوان ونحاول ضربه على رأسه، انتقاماً منها ونكلة، لكنه سرعان ما كان يدخله في هيكله (داره كما تقول)، فلا نجد له حيلة ونتركه قبل مجيء العجوز وفي يدها الفرشاة الحديدية مهددة منددة (أسلخ جلدكم). تجري وراءنا رغم هرمها (لا يعرف أحد سنها بالضبط، لكنها على ما تزعم

أمي كانت قد تجاوزت المائة. تهددنا من خلال دوامة  
الغرف المتداخلة الواحدة في الأخرى ومن خلال  
المقصورات المتشابكة ودروب البستان الملتوية، فلا يوقفها  
حاجز ولا يعيقها عائق: الشمس تضع الأشياء كل منها إلى  
جانب الآخر وتقلدها الظلال والأشباح والخيالات فتشكل  
بدورها نسيجاً نثاً مبعثراً. ظل يساميه شبح يساميه خيال،  
وكان - عند انهيار الشمس - لكل شيء ليمه: شرائح  
السياج الخشبية، أجزاء السلالم، قشور الأشجار اللينة منها  
أو العجاء، الكراسي المخططة (في الحديقة) واللباس  
المكوم أديماً أكواماً، الستائر المثقوبة التي ثقتها الأيام،  
الزرايب المنحوتة من المخل، الحنايل المنحولة من النسيج،  
الأسمطة المرتقة بالخيوط الخ. (في الدار)، والعمه ما كان  
ليعيقها عائق أو يوقفها حاجز أو يعرقلها دوار أو يطوق  
بالحا ريب. تجري من ورائنا. تحاول ضربنا من بعيد بعد  
فشلها في عملية السلخ هذه. وكما كانت العمه تتجنب  
السلحفاة ودارها المقدسة، فقد كانت تستثني أيضاً من بيننا  
أخي فؤاد وهو من أشرفت على تربيته بنفسها بعد إقصاء  
أما عن هذه المهمة واضطلعت بكل أموره فراحت ترعاه،  
وهو يترعرع وتدافع عنه عند اقترافه أولى هفوات أيام  
حضانتة فقد كان مولعاً بمزج الأشياء بعضها ببعض  
ويخلطها معاً حتى إذا ما وجد دقيقاً وسكراً وزيتاً وخللاً  
وقديداً وماء زهر، جلس على الأرض وأخذ يصب الزيت  
على السكر والخل على القديد ويقهقه زهواً، تأتي أمي،

وقد كان في السنوات الأولى من عمره، تحاول ضربه وتوبيخه، فتسبقتها العمه واقفة بينها وبينه درعاً واقياً وحصناً صلباً وبنياناً مرصوحاً، تحلق بعينيها السوداوين. تحرك شاربها المكسو شعراً كثيفاً، فتهرع أمي فزعاً وقد هالها هذا المنظر المخيف فكان ينتاب أمي ارتجاف إذا ما راحت عمتي فاطمة تكشر عن نابها الأعلى، ذلك الذي لا تملك دونه من الأسنان، فتضعه على شفتها السفلى في تكشيرة جنونية رهيبة تعلن عن غضب لاحق وضجر زاحف فتبقى وحدها في الميدان ظافرة فيما يبقى فؤاد جالساً على الأرض مستأنفاً عملياته، لا يرفع رأسه ولا...

... لم ترد عليه، لم تأت نحوه. نادى من جديد: ألم نتفق على أن... جاء صوتها مبحاحاً كأنه امتلاء، تشبع من نسغ التوتة... أو... من حشرجة العمه فاطمة. أو بشيء من هذا القبيل...

أقنعة العجوزين الأحمقين الماكرين، وخاصة ذاك الذي يتفاعل النبوة تلو الأخرى ويتجسس على كل ما يقع في البيت من حركات، ذاك الكافر (ومن هنا الكلمة الفرنسية (كافارد، خنفس) المراء اللثيم، النمام، المنافق الذي قضى كل حياته في الأسفار (أسفار المتعة مثلما يقال نكاح المتعة، أسفار الأعمال لنهب أموال الفقراء، أسفار السياحة لـ...) والأمصار كما يقول ابن خلدون وهو كذلك لم يستقر له قرار ولا على موقف ولم يكتب عن الواقعة التي وقعت لعائلته فراحت ضحيتها بمكملها، إلا خمسة أسطر أما عن غزو صقلية والبحر الأبيض المتوسط بأكمله، فقد راح يكتب فصولاً بعد فصول ناهيك عن البحار: (والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار. فقد كانت الروم والأفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله. ولما أسف من أسف

منهم إلى ملك العدو الجنوبية مثل الروم في إفريقية والقرط إلى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها، وتغللوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها. وكان أهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب روما ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل البحر الساكنين حفافيه، معروفة في القديم والحديث... (ابن خلدون: المقدمة ص 627)

يجول العالم ويرسل بطاقاته البريدية دونما حرج ثم يعود من أسفاره لمقننا وتعذينا والتجسس علينا نحن ابناء وبنات الزوجة الأولى التي اتهمها في أحد الأيام، في إحدى شطحاته المعهودة، اتهمها بالزنى لأنها كانت تتردد على الدجالين والمتشعوذين والمرابطين والأولياء الضالين والسحرة وتطالبهم من خلال حروزهم وطلاسمهم وكتاباتهم وخطوطهم ورقاهم وأفلاكهم وأبراجهم وإشاراتهم، تطالبهم إذن بعودة الزوج الضال وهو لا يفتأ يتنقل من بلد إلى بلد ومن زوجة إلى زوجة ومن عشيقة إلى عشيقة ومن صفقة إلى صفقة أخرى (مثل تلك الباخرة التي أرسلها إلى أحد زبائنه الأوروبيين مكتظة بأطنان من البرتقال، فرفضها، وإذا به يثور عليه ويغضب ويرسلها إلى الولايات المتحدة منفقاً عليها الكثير الكثير فخرس فيها ما خسر من أموال طائلة ولكنه لم يابه فقد تمكن من فرض عنجهيته على زبونه (فرنسي؟ إسباني؟) ومن تقديم البرهان القاطع عن أنه هو



(حسان الجزائري) صاحب الاحتكار والامتياز التجاري في هذا الميدان، فهو لا يهان ولا ترفض بضائعه... فبعث بها إلى سانفرانيسكو.

«سانفرانيسكو»

1938 - 10 - 12

«حسان»

وأكثر من هذا أيضاً فعل مع كل منافسيه مما أدى بهم الأمر في كثير من الأحوال إلى الافلاس كلما حاول أحدهم التفوق عليه، لا يرحم ولا يشفق لا يقهر ولا يرضخ لأي من كان، شخصاً كان أم سلطة (وهكذا صفع في أحد الأيام عقيداً من الجيش الفرنسي، فسجن وعند محاكمته صرح بكل عنجهية إلى القاضي أنه مستعد لصفع جنرال فرنسي إذا ما اقتضي الأمر ذلك...)، لكنه يتهم أمي بالزنى لأنها عوضاً من أن تذهب في زيارة إحدى صاحباتها كما زعمت له، راحت وبرفقتي إياها إلى أحد المشعوذين من الزوج أملاً منها أن يجد لها حلاً فيعود الزوج بعد أن تزوج عليها مرة أولى (قمر تلك التي أتى بها من عنابة ولم يكن الحيض قد أتاها بعد. فترقب سنة بكاملها حتى أن بلغت، ففض بكارتها، وقد ماتت بمرض السرطان منذ بضع سنوات بعد أن أنجبت له أكثر من عشرين طفلاً وهي يوم موتها لم تتجاوز الخمسين من عمرها) ثم مرة ثانية (شجرة الدر وقد كانت من عائلة

تونسية عريقة وثرية ولكنها أخذتها المنية قبل الأربعين بعدما أنجبت له تسعة أولاد، وقهرته وعذبه عذاباً مرّاً وسلطت عليه هيبتها فكانت تحتقره وترى فيه نموذج الرجل الوصولي، الريفي الأصل... بينما هي كانت تتبجح بأسلافها وأكثرهم من القضاة والفقهاء والمشايخ؛ وتدخن السجاير وترفض لباس الخمار عندما كانت تخرج إلى الشارع ثم مرة ثالثة (هانريات الخياطة اليهودية التي أنجبت له طفلين ليس إلا وقد أخزاها وذلها وأهانها وكذب عليها يوم أكد لها أنه كتب عليها عقد الزواج بعدما اعتنقت الإسلام أمام شاهدي عيان... وهو في الواقع لم يتزوج منها ولم يسجل صداقاً ولا أي شيء من هذا القبيل وقد توفي الشاهدان، حسب ما كتبه لي العم اسماعيل في رسالته تلك التي جعلتني - عوضاً عن أن أتقزز وأزداد حقداً على أبي - أشفق عليه وهو ينازع بين الموت والحياة ولم يفارقه دهاؤه ولا تنضب حيلته، وذكاؤه لم يتوقف عن الابراق في عينيه... فيتناوم إذا ما أراد التناوم أو يسقط في غيبوبة خفيفة كلما أجبرته الظروف على التغيب وهو الآن طريح الفراش يعيش منعزلاً في غرفته، لا يستعيد حيويته إلا إذا وجد من يجادله في السياسة والتاريخ، أو يستمع إلى مغامراته التجارية ومهارته في تسيير الأعمال والأشغال، وعلى الأخص منها: واقعة الباخرة المشحونة أطناناً برتقالاً والتي أرسلها إلى سانفرانسيسكو عام 1938 نكلة في خصمه ونكاية به؛ وهي هانريات حسبية غزلان،

هي أيضاً طريحة الفراش وفي أقصى حد الاحتضار، وقد فقدت وعيها منذ سنوات، تحملق بالزائرين إذا زاروا ولا تتفوه بكلمة وكأنها تريد بصمتها هذا وغيابها عن مسائل الدنيا، الانتقام من زلتها التي أسقطتها في متاهات حسان الجزائري الجنونية. وأنا أبقى والعم إسماعيل نبحت عن حل مفتشين عن شهود وقضاة حتى تتزوج المسكينة من عشيقها على الطريقة الشرعية، وتحصل على شهادة من وزارة الشؤون الدينية تنص على أن المسماة هانريات غزلان قد اعتنقت دين محمد صلى الله عليه وسلم الحنيف... وهي (أمي) لا تسأم ظناً منها أن الحروز والكتبات والخطوط والطلاسم سوف تجبر زوجها، في نهاية الأمر على الرجوع إليها وإلى أولادها نحن.. وترقبت أمي ذلك اليوم المعهود مدة أربعين عاماً بدون فائدة وها هي اليوم تسهر على راحة الوالد وتمرض اليهودية المسكينة وتقوم بكل أمور المنزل الكبير لوحدها لا يعاونها أحد، كلها حيوية وعنفوان، على أنه ارتسم على سحتها نوع من الكآبة والغم والأسف أو السويداء أو السواد الأبدي، خاصة وأنها لا تلبس الا الأثواب السوداء فتزيد من كآبتها ومن غمها غمماً ومن أسفها أسفاً وتعاسة و... على ذلك الابن المفقود: (عبدالله).

... قناع (كذلك) ذلك الشيخ الماكر، الكافر (ومن هنا كلمة «كافارد») المتجسس على أدنى تحريكة أو رشمة تختلج عيني (العم حسين) وهو يتفاعل الدهشة ثم الضحك

ثم الأبوة. يحسبني أبله، لا أعلم أي شيء عن كل هذه المغامرات العاطفية والعلاقات الجنسية التي كانت محور حياة هذا الوالد... وأنا على علم بأن كل هذه العبارات التي كان يتفوه بها وكل هذه الحركات التي كان يقوم بها، وكل هذه الایماءات التي كان يتظاهر بها إنما هي مجرد كلمات وإشارات يحاول بها سد ثغرة العزلة المفتوحة في صميم نفسه التعيسة المسكينة الحقيرة... ويحاول أيضاً من خلالها تغطية الأسئلة الحرجة التي كان يريد طرحها علي وهي تحرق شفتيه أو بالأحرى تملأ فمه كالودود في أفواه الموتى، يعجب عجباً... فأشعر وأنا أواجهه وهو في هذه الحركية الكلامية والاكلامية، أنني قادر على رؤية الكلمات النابعة من فمه وكأنها من معدن خاص يتقيأ، أو من فقاقيع الصابون (التي كنا ونحن أطفال نخرجها إلى الوجود من بين أصابعنا المطلية رغوة صابونية رخوة) متفزجة من فمه، محاولاً استرجاعها في آخر لحظة، يحاول امتصاصها، ازدرادها من جديد كالكلب الذي يأكل ما يتقيأه ماضغاً الحروف بين أسنانه المزنجرة القذرة ومدلكاً الجمل بأشناخه، صائياً كالقارة الحبلی، قائلاً: قيل لي إن أمك تلك المرأة العذبة الناعمة قد شحبت وهزلت وأصبحت عبارة عن شفرة موس أو سكين... لكل عهد مشاكله... لكن أمل أنها لا زالت مولعة بالتزيين والتجميل... وأجبت أنا قائلاً: لا لا. لم تعد تزين وجهها منذ... وهو أما اليهودية... وأنا أنظر إليه بحدة وحققد إذا سمعته ينطق

بهذه الكلمة «يهودية»... أقطعه. لا... ليست يهودية. ثم هو من جديد: أعرف، أعرف... لكن... على كل حال... وأنا لا لا لا ليست يهودية ولا مسلمة، وإنما بوذية! ما رأيك في البوذية؟ تنزل عليه الصاعقة لا يفهم، يتمم بعض الكلمات غير المفهومة. يبقى هكذا معلقاً بضع ثوان. ثم يستدرك الأمر بسرعة البرق من كثرة دهائه وينطلق في قهقهة صاحبة تجلبب إلينا أعين المارة... وأنا لا أعرف ماذا أفعل ثم يهدأ نسيباً: لكن هانريات غزلان... يقال إنها أصبحت كالمومياء المزخرفة بالأحمر الغرنوقي. من أين أتى بهذه الكلمة هو الأبله الجاهل الأمي؟ طبعاً من الخطب المسجدية. الكلمة في القرآن... وأنا أتذكر المسكينة وقد أصبحت عبارة عن هيكل عظمي مغطى بكيس من الجلد (الورق المقوى) ومحتويّاً على الأعضاء التي هي عادة في جسم الإنسان (المعدة، الكبد، الرثتان الامعاء الخ...). بل لا شيء غير هذه النوعية من عجينة الورق على شكل أكداش البطاقات البريدية والرسائل والفواتير والصكوك البنكية والأوراق المالية التي كان يرسلها (أبي) إليها، رافضاً مقابلتها بعد سنتين من بداية العلامات، متجنباً رؤيتها، متحاشياً زياراتها، ناصباً هذا الحاجز الهائل من جميع الأوراق بينها وبينه، حتى لا تأتيه ولا تطالب أن يريها وثيقة الزواج وحجة إسلامها المكتوبة لأنه لم يكتب كتاباً ولم يسجل زواجاً معها البتة، لهذا أتخيلها هكذا، هيكلًا عظمياً محشواً في داخله بعجين الورق أو بالأحرى

كيساً بريدياً مملوءاً رسائل وبطاقات وحوالات... ثم أعود إليه وهو يبغى ويشتر ويبرر ويهدر ويهدي هدياناً، ومن وراءه الساعة الجدارية المعلقة فوق مدخل مكتب البريد المركزي...

وهو واقف أمامي تحت أشجار الشارع بسرواله العريض المحبب المنسوج من حبيبات قطنية مزدوجة اللون (أحمر رمادي) مختلطة بلا روية حسب قانون حبك مريب، إذ لم يكن بإمكانني القول ما إذا كان القماش قد نسجته امرأة حرافية بنولها أو عاملة بآلاتها الهدارة، حيث أن رؤيتي من بعيد تطبعه (السروال) بين الأحمر الرمادي (تراكم الأوساخ ولون ثمالة الخمر) في اعتقادي أنا وإن كان على كل حال دون لمعان خاص، بل باهتاً غير ملون... ذلك السروال الفضفاض المحبب، المتأنيب حول ساقيه اللذين يخيل إلي وإلى كل راءٍ على ما أعتقد أنهما نحيلان جداً، لكن لا يمكن توضيح هذا الأمر بحزم ذلك نظراً لاحتمال آخر ممكن. فالعم حسين قد يكون ذا ساقين مفتولتين يتراوحيان داخل سروال فضفاض يستمر في تسلقه الطبيعي حتى يغطي الخصر الضامر، الملفوف في الواقع بنوع من بزة الوقاد، أسود باهت (نيلي أو بنفسجي حسب منابع الضوء) نيون، مصاييح عادية، انعكاسات أوراق الشجر الخضراء، الصباغة المعدنية الألوان والتي تغطي المقاعد العامة المتواجدة في الحديقة وأنا أحدها، مملوءة حمامات سميئة (ومن بينها - لعل - حمامة سميئة تسترق حركة بطيئة) خاصة وإنني أعلم

أن العم الحسين يتردد عليها باستمرار ويجلس عليها لساعات طوال)؛ وأتخيله هكذا: جالساً على أحد المقاعد، وفجأة تسقط أمامه حمامة سميئة في حركتها البطيئة، المتمايلة فيتساءل عن سر وجود مثل هذه الطيور المتكرشة في مدينة إن هي شكت من شيء فمن نقص في المواد الغذائية والمغذية، ويلتفت وراءه فإذا بحمامة أخرى أضخم من الأولى حجماً تمشي وراءه الهويينا تفرع الأرض بمنقارها وتجعد - من حين إلى آخر - ريشها الذي يغطي عليه لون غريب يمازجه الأزرق الفاتر والخزامى مما كان يزيد من تناقلها وحجمها (ولعله كان يبالغ في وصفها وهو يحدث نفسه مؤكداً أنها لولا حركتها الآلية المتكلفة المتقطعة لظنها قطعة من الخزف أو دمية من حرير ويعتريه العجب لمشاهدته هذا الحشد الغفير من الناس منهم المارون ذهاباً وإياباً والواقفون وقوف من رسخت أقدامهم في أسفلت الحافة فظلوا ماكثين رابضين مكانهم يربطهم فيه حبل هيولى لا يتسنى له رؤيته رغم ما بذل من محاولات وتحديات في ما لبثت أن تسببت في استفزاز أولئك المتشبثين كالأوتاد على أرضية الشوارع (واشبي يماك روح تعطي... ورواح تحاسبني) ولا يرد عليهم: إنهم صبية مثله تائهون... ولكن الأمر يغني عن الجوع فيعود يحدق في الحمامة الثانية وقد أخذت ترسم على صفيحة الأرض بخارِب، ما كان ليراها أحد غيره وما كان ليفيق لها أحد وقد بدت له الحمامة وكأنها خزف حريري هو مزيج من

الخزامي والرمادي والأزرق الفاتر وقد زادت الشمس في بريق ريشها المرقش هنا وهناك (قرب العنق وعلى الجناح الأيسر) بفولاذ رخو وما كان منه إلا أن وقف مشدوهاً بعض الشيء يحرك رأسه من الخلف إلى الأمام وهكذا دواليك في محاولة منهكة لئلا تفوته أية حركة من تلك الحركات المجهرية التي كانت تقوم بها الحمامات الضخمة وما يلبث أن يصارح نفسه متسائلاً عما يحدو بهم إلى تركهم أياها هكذا تتبختر وتنقر وتطير وتعود إلى نفس المكان حيث تناثر فتات من الخبز أو بصقة أحد المسلولين أو رضاب ماضغ تبغ أو... لماذا يتركونها هكذا طليقة حرة لا يختطفونها فيعودن بها إلى ديارهم فيأكلونها، إلا أنه سرعان ما كان يندم على قوله هذه الشنيعة ويتذكر أنه لا يحمل أية ورقة رسمية تعرف عنه. أما الصورة (صورة طه حسين التي بعث بها إليه أخوه حسان، وهو يقيم بضعة أيام في باريس (باريس 1929 - 12 - 12. حسان) فيتناساها ويشعر بخفة غريبة تسوده وكأنه أصبح بمقدوره أن يطير في الهواء كالحمامات (من يدري لعلها من خزف أو شنب) وبحركة آلية لا شعورية يمد ذراعيه نحو احداها فتفلت من يديه وتطير تاركة وراءها دوامة من الغبار طلتها الشمس بلونها البرتقالي فغرقت في بحر من الضباب، الكثيف فينظر المارة إليه نظرة استنكار غير راضين عن تصرفه هذا الصبياني ويحوم حوله الأطفال فيصطدم بهم ويتذكر إذاك الصورة ويتعد مهزولاً حذراً نادماً على عمله هذه ويخرج



الصورة خلصة من جيبه (إنها مستطيلة الشكل، بنية اللون، بالية الورق وقد رسم الزمن عليها أنواعاً من التجاعيد مثلها مثل العجوز مبهرجة بأوشام وقحة مثلومة تنهطل عليها أشكال من الرقاقت تكاد تكون نوعاً من الخشب أو من الأسلاك أو ليفاً حريرية أو خثياً من الحمامات السمينه ترذذه من أعلى مؤخراتها وكأنها راحت تهزأ به وبمحاولته السخيفة التي لا معنى لها البتة أو كأنها أفاريز ملولبة تثقب الورق المقوى الذي فقد لمعانه منذ زمن طويل فأصبح يتصوره في رأسه المفلفل بشيب العمر الملولب كفتاحة زجاجات البيرة البريمية الشكل وقد تآكلها الصدء مثل ما أكل الدهر قلبه وهو يجوب المدينة طولاً وعرضاً عاملاً على محو ماضيه، خائفاً من حاضره، ضارباً مستقبله بتأشيرة اللامبالاة المهربة من بلاد ما زارها قط ولو في الحلم، ينظر إلى الصورة الشمسية البالية البنية اللون وقد شوهتها أنواع من الخدشات وكأنها بصمتها عليها أظافر عاهرة صبغتها بحمرة طمثها أو... ) يحرق فيها برهة. أهو هو؟ أم لا؟ أهذا هو الذي كان ضريراً وتحصل رغم ذلك على الشهادة الكبرى (الدكتوراه) ثم أصبح في ما بعد كاتباً عبقرياً، ذا أسلوب؟ وذاك الذي إلى يساره؟ فمن هو يا ترى؟ وأولئك من ورائه؟ زملاءه في جامعة السربون؟ وكان المصور التقطهم وقد أصابتهم نوبة من الضحك لا يمكن كتبها فقطبوا لها جبهاتهم أمام الآلة فظهروا - على كل حال - وكأنهم مبهورون مشدوهون معاً وفي آن واحد ثم

يعيدها بسرعة إلى الجيب الأيسر من سترته الرثة فتتخلف في قلبه بصمة ذات الخطوط الملتوية ويشعر بخفة ووداعة لا مثيل لها لكن الصورة... لكن الحمامات... لكن المدينة... لكن الميناء... أيضاً: يسقط إليه مراراً وتكراراً وكلما مر بالقرب منه. (لم يكن له شغل يشغله ولا مهنة يحترفها... ما عدا الثرثرة، ثم الثرثرة طول النهار) شعر وكأنه يشرنقه بخيوطه الحديدية المتشابكة المتقاطعة والمتلونة بألوان لا يمكن تحديدها حيث يتمازج الأزرق والأصفر والأحمر ولعل الأحمر قد سيطر على كل ما في الألوان الأخرى من درجات مختلفة مما يكلفه عناء شديداً فيتيه هائماً على وجهه بين الحاملات الرافعات والجرارات والبواخر وقد فتحت هذه بطونها وقدمت أحشاءها فرجة للمتفرجين لمجرد التمظهر لا أكثر ولا أقل، فيهيم في الشوارع ويتشبع جسمه من العياء حتى العرق فيسيطر عليه الشعور الغريب ويحس وكأنه أصبح هكذا بين الفينة والفينة نشافاً فاغماً صبصنان عبق لا علاقة له البتة بأصيص الحبق المستزرق الذي يتدلى في وسط غرفته الفريدة.

الأقنعة... قناع الأب. قناع زوجته اليهودية. الاستيهامات: صوت عمتي فاطمة. قرع أقدامها المتعرجة. نحنحتها المضجرة. دقة العم جلول الخشبي على بلاط الزقاق. الألوان: الأخضر التوتي يطغى على كل الألوان الأخرى وحتى على تلك التي كنت أراها أثناء أسفاري،

جرياً وراء شبح الأب، ماشياً في سكة آثاره وخطواتها،  
زائراً كل المدن التي زارها ومنها: باريس.

«باريس

12 - 1 - 1929

حسان

بشوارعها وأزقتها وحماها وكلابها وسكانها ومتاهاتها  
(المترو كان ولا زال يبهرني، فأراه هكذا: الممرات تلو  
الممرات برتابة لا يعاكسها شيء ولا حتى الملصقات  
الاشهارية المتواليه هي الأخرى الوحده تلو الأخرى، في  
ثبوت قطعي يثقب الحدقة المجنونه ويكدس الصورة الواحدة  
فوق الأخرى تتسابق تتلاحق وتتجاوز مثلما لو نظرت إلى  
شيء مغمضاً عيناً بطريقة ما تاركاً الأخرى مفتوحة بحيث  
تتوهم وجود تعدد يمتد إلى ما لا نهاية، على شكل  
حلزونات متوثبة، فيما لا يتحرك الشيء ولا الموضوع.  
ذلك ما يتسبب فيه حضور نفس الملصقة على أبعاد منتظمة  
تمثل دوماً نفس المشهد، مفتخرة بهذا المنتوج أو ذاك  
(إنتاج كولومبيا - البن) وهكذا على مسافات طويلة تخلق  
دوراناً مضاعفاً ناتجاً عن الدهاليز والملصقات المثبتة يمنا  
ويسرة، في انتظار أن يتم الصاقها ذات يوم فوق السقف بل  
وعلى الأرض حتى يخلق في نفوس المشتريين المحتملين  
الانطباع المتمثل في كونهم وقعوا في الفخ وأنهم لا  
يستطيعون القيام بشيء إلا بالشراء والاستهلاك (عندنا بقت

الطبيعة: طبيعية: البرتقال المغربي ما زال يحتفظ بنكهة التربة الخصبة) إلى ما لا حد لهما، وهي طريقة من طرق الثقة بالنفس وفي الحالة المضادة، ابعاد الضيق والحرمان بدون اشباع الرغبات. ثم، ها أنا الآخر أمسح هذه الدهاليز ذهاباً وإياباً. أمر في الطريق نفسه مرتين أو ثلاث مرات متببطاً حقيقتي الأبدية (المملوءة بشتى آلات التصوير وأشرطة الأفلام الخام وأجهزة التضخيم، الخ... ) ماسكاً بها كما لو كانت كل حياتي قد لخصت فيها، على شكل مكروفيلم، بواسطة آلة عالمة؛ ثم أقف بين الفينة والفينة لأريح يدي التي أنهكها الحمل، حتى أنه بعد بضع ساعات من التيه، تصبح إحدى كتفي - تلك الداعمة للذراع الذي يحمل يد الحقيقة - أقل انخفاضاً من الأخرى. ثم هذا المصير السيء، إذا استمر في اعوجاجاته حتى وأنا أقف لأستريح قليلاً. ربما لم يكن لي حتى مجرد الوقت للتفكير في ذلك... ثم أرى أحد المهاجرين يمسك بقصاصة التي تبدو صغيرة جداً بين السبابة النحيلة الطويلة اللامتناهية وبين الابهام الضخم المقرفص نهائياً لا رجعة فيه (ما عدا إذا كانت قصة الكتف هذه الأكبر من الآخر، قد لفقها تلفيقاً شاهد عيان سكران ونصف نائم رآه يمر وأنا جالس على قاعدة) عينه نصف مفتوحة وإن كانت موصلة مباشرة بالقفص المزجج الذي كانت تقف خلفه - من باب التأويل - موظفة تصرخ عبر الهاتف، مستعدة لاطلاق الريح لساقها عند أول استنفار، ويقول أي شيء حتى يبقى في الدفء

أطول مدة ممكنة بمكتب قاضي البحث أو محافظ الشرطة،  
قائلاً: ولكن كلا، ولكن كلا، أي أؤكد لكم. ربما كان  
هذا العرج الخفيف، الذي لا يكاد يرى، علاوة على ذلك،  
كان خلقياً أو أصاب صاحبه لممارسة مدة سنوات طويلة  
احدى الحرف (أية حرفة مثلاً؟) المشوهة - ومهما يكن،  
فقد شوهد وهو يروح ويجيء في الدهاليز، نظراته تتعثر،  
بهذه الصور التي تعرض الجبن وعلب مستحضرات التنظيف  
ومرق الطماطم وللمناظر الغريبة للأطباق الطازجة والمقلات  
ومستحضرات الزينة والتباين والكتابات المقلوبة وآلات  
الغسيل ولزازات الحيض والبيوت الريفية والتخوت الجلدية  
ورق الاستنجاء والنساء العاريات والتلفزات ورافعات  
النهود والمشيات المريحة والثلاجات والسيارات وغاسلات  
الأواني والأسفار اللوتسية الأسطورية والدراجات ومزيلات  
الروائح والياوورت قائلاً (ولكن كلا ثم كلا، أؤكد لكم،  
لا لمجرد القول غير أنني رأيته فعلاً يروح ويجيء عبر  
الدهاليز ينظر إلى الدراجات و(السباغيتي)، أخيراً، أنتم  
ترون، ثم، لقد كان غريباً، كتفاه!. أجل هذا صحيح،  
أحدهما كان أكثر...)، إذن فهو يتعثر عبر هذه الدهاليز  
في ملتقيات الطرق التي توجد فيها تيارات هوائية رهيبية لم  
تكن تبرده أكثر وإنما كانت تلف حول رجلي سرواله  
الأزرق النيلي الذي كان يسبح داخله صاعداً المدرجات  
الآلية، وهي تسير فلا تبلغ قمطراً من القماش الخشن  
الأصفر صحراوي، منه تنبجس فوهة زجاجية، لا يمكن

للمشاهد أن يرى محتواها، أو فتاة جميلة تشبه بجسدها  
ولباسها: الفتيات الجميلات اللواتي يعرضن الألبسة  
الصلوقة: (شترفيلد: أفخم الجوارب الصلوقة) الاختلاف  
يكاد ينحصر في كون الفتاة الجميلة الحية لحمياً ودماً لا  
تبتسم نفس ابتسامة أولئك اللواتي يكشفن عن أسنان ناصعة  
فوق لوحات كبيرة، وإنما هي تتسم بالتعبير عن شيء  
متعثر، مدللة تعرف أنها جميلة وجد فخورة بذلك كي تكرم  
بالقاء نظرة على الدخيل الذي لا يعجبها، بالتأكيد، وقوفه  
بهذه الحقيبة التي رأتها في رمشة عين خفيفة، مما سمح لها  
بأن تنظر إلى الآخر دون أن يستطيع أن يعرف بالتأكيد ما  
إذا كان محط النظر أم لا. ومهما يكن. فهو ليس بحاجة  
لذلك، إنه متعجل لبلوغ مقصده؛ إنه لا يريد تضييع الوقت  
لعلمه بأن المغامرة ستكون جداً صعبة ثم يتجنب البشر  
والأشياء من جديد كي يجد نفسه عند نقطة الانطلاق يتعثر  
ببويات مصبوغة بالأخضر اللامع، أعلاها، الذي لا  
يتجاوز قامه رجل، يحمل إشارة حمراء خطت عليها كتابة  
بيضاء، سرعان ما تنغلق في وجهه، كما لو كان احدهم  
يتعمد تأخيراً في ترحاله الطويل - سواء ذات الدفين أو  
الدفة الواحدة. بنفس الشيء. التقدم يتباطأ بسببها، الزمن  
يمضي، العنف يلوح، ويجتمع على مستوى الجمجمة  
(عندما، في المغرب بقت الطبيعة طبيعية! ثم، أراه: ينتشر  
ما يشبه الهلام الذي يغلغ به بعض المواد القابلة للاستهلاك  
باحاطتها بصنوف من الانتفاخات الدهنية البنية، اللزجة

اللذنة التي يدع متشنجها العصبي (أو المخادعات) الحزن  
المأخوذ من هذه اللامبالاة التي تحيط به، رغم الحشد  
الذي يدوس الأرض الآن متوصلاً إلى التحرك في الفراغ  
المحدود كما لو كان بميكانيكية بل حتى باختلاج، إذ  
للتوصل إلى مثل هذه الدرجة من التناسق والتناغم، يقوم  
كل واحد، من بين هذا الحشد بعدد من الحركات  
والإنفعال (تأرجح الذراعين، تسريح المرفقين، تمديد  
المفاصل، ميلان الخصر، الانحرافات، الانفلاتات،  
التلاقات، مراوغات الساقين، التداخلات الذكية، التوقفات  
المفاجئة، الانطلاقات المصطنعة، العودة للانتشار في  
المكان، الاندفاعات، العرجات، الدوسات) الفردية  
المتزامنة أو الجماعية مما يبرهن عن تنظيم لا يمكن أن  
تقديره حق قدره سوى النسوة العجائز المخمئات ذوات  
الوجوه المطلية بالأحمر القرمزي، المثيرات للشفقة  
والحالمات فوق مقاعد بماغم مجمله، هن الموجودات  
هنا، صباح مساء لتدفئة عظامهن بالحرارة التي تشع من  
مئات الآلاف من الأجساد وهي تحرق حريرات ثمينة  
سرعان ما تسترد دون هم كبير لأنه لن يكون هناك سوى  
حرج الاختيار للاستهلاك الفائض إلى درجة ما، لاسيما أن  
الناس تساعدهم بشكل غريب كل تلك الصور الخارقة التي  
لا تنفجر بنرجسيتهم وإرادتهم في القوة - وهلم جرا -  
فحسب، وإنما كذلك بنهمهم، واحداستهم (بلادنا تنتج أكثر  
من 500 نوعية من الجبن. استهلكوا الجبن!) وتفخراتهم

وتطاولهم وغيرها من الصفات المريحة. إذن هنّ هنا صباح مساء لتدفئة عظامهن ومشاهدة الغاشية الضخمة المنطبقة في أمواج جد منضبطة صوب الأبواب، البوابات، الممرات، المدرجات، منافذ النجدة، المخارج، المداخل... الخ) التقط الصورة تلو الأخرى...

أعود إليه (عمي). بعد رحلة طويلة عبر الحديقة العامة ثم إحدى العواصم إلى حيث ذهبت لالتقاط بعض الصور تساعدني ليس فقط على تفتيق الواقع وبلورة هذه الاشكالية (والأخرى أيضاً تهذي: عقدة الجد. قالتها وكررتها: عقدة الجد) الأبوية، أعود إليه وهو في دوامة التكلم وكأنه أصبح هو بدوره يتجاهلني فأهم ما في الأمر بالنسبة إليه وهو أن يمثل أمامه شخص (شخص؟ جدار؟) يتحدث ويتحدث (ليس إليه) بل (أمامه)... ومن جديد: تنطلق الكلمات كالفقايع: فقايع الصابون الطفولية... أتركه، أتجه نحو المصرف... دونما هوادة ولا تمهيد: أبق على خير عم الحسين... بالسلامة!.

... وعند عودتي إلى الضيعة فإذا بالصراع يشتد حدة. أتابع اهتزازها الرجراج. كان الهواء الرطب يشغفها في الأعماق. يدخل ثناياها. يسد رتوجها. يملأ فمها وروحها وكل ثقاب في جسمها.

قالت هي: هل حلّيت مشاكل القرض وبالخصوص هل تحصلت على أوراق الزواج بين أبيك والمسكينة؟ قلت: لا. لا هذا ولا تلك. فلم تفه بشيء. قلت: ما لك و... .



وعشيقة زوجة أبي...؟ قالت: هذا من باب احساسى وأنا جديرة به. يمكن أن تنقض الموقف وقد أصبحت هزليته مضرة كل الضرر بل وأصبحت خطيرة... وكأن تتعمد ما تفعل عمداً... قد تبغى تمبيع هذه الحال تمبياً وإطالتها إلى ما لا نهاية.

ثم: قامت الي. وإذا بها تشدني بعنف من فقرتي. أصررت على ملء فراغات الزمن. أصررت إلى أن أبدأ كل شيء من جديد... لقد أصبحت وضعيتي صعبة لا تطاق. الزوجة والعشيقة والأب والزوجة اليهودية والأب والأم... يا للمهزلة... أخذتها على حبتها. تلفت حوالي. خمنت ذلك من ارتكاسي الجديد وضحكت. وراحت تسرح شعرها بطريقة شبقية. عادت من الحمام تفوح برائحة الورد المطحون المحمض. وأخذت تدور بحركات شبه دائرية. ضغطت بموخرتها المكتنزة على مرجاف الباب الداخلي. ضحكت. وإذا بها تقترب من المكتب حيث الأوراق المكتوبة والبطاقات البريدية المبعثرة والصور التي انتهت من تحميضها دقائق قبل مجيئها المفاجيء. قربت عريها من قماش قميصي. أدخلت السبابة فيها وأنا جالس ويدي اليسرى على المكتب. أخرجت السبابة. التقطت قلماً. أدخلت القلم فيها. وشعرت بشيئها دائرياً تارة ومحورياً طوراً. بدأت أنفاسها شيئاً فشيئاً تتصاعد. جاءها الخدر من بعيد. من أبعد النقاط من هناك من صوب التوتة وهي واقفة لا تتحرك. إلا أنين خافت. تثن فقط. إذ الماء إلى فرجها

يصعد. يتقاطر خيوطاً خيوطاً. أضعف سرعة تدوير القلم... مرمرت: الكتابة... الكتابة... اكتبيني... أكتب بحروفك (أي حروف؟ حروف الهجاء... دروس سي الزغواني وقلبي يرجف وأنا أنظر خلصة إلى الخزانة حيث أداة الجراحة الرهيبة جائزة... قطع اللسان) بان لسان فرجها... غزتها المتعة، تصاعدت عبر الربلتين فالفخذين فالرأس فالتوزيع منه في كل الأنحاء حتى قمة التوتة حيث الافراخ... تجاوزت الشعور بالخذلان... أزيد في تدوير القلم. قعور تهابه... رمرت: النسغ... الصمغ... المواد... الحبر. وإذا بالعملية الآن تضرب في صميم هذا العشق الذي أبلتني به... ماؤها الجوفي وحر الدواة: لا فرق بينهما. نفس الشيء أبداً. الكتابة (تذكرت أبا حيان التوحيدي وكتابه: الامتاع والمؤانسة... حاولت أن أتذكر فقرة من الكتاب عن اللغة... لم أتذكر ما قاله بدقة... لكن حدثتها كانت رهيبة) تدوير الأقلام في فروج الكلمات... مادة... وكان جسدها خاماً. أضعف التدوير وإذا بالسيلان يتدفق تدفقاً: نسيج من الخيط الزئبقي الثقل والارتكاز. بدأت تنوس. تفتت الأشياء ما عدا الزهرية البوهيمية التي كان أبي قد اشتراها من براق عام... أي عام بالضبط...؟ علي أن أراجع البطاقات. بطاقة برفق ترقد هنا بين سائر البطاقات. تضاحمت باقة الزهور الساطعة الألوان. ذات الأشكال المتفلطحة. أما الباقي، فتشتت، فانتشر انتشاراً، توزع في

الجو شتاتاً، تقطع ارباً ارباً، شظايا، كسوراً، رقايات،  
حزازات الخ... تبدل كل شيء وتفجر الا الزهرية  
بأزهارها المنتفشة الفخمة (لآلىء... لؤلؤات خزاميات  
الخ...). الصفراء (أتذكر لوحة الزهور الصفراء لثان غوغ:  
إنها الغطرسة نفسها!) العنجهية، الصفراء الفاقعة...  
اختلطت على أمري الأمور. أخرج القلم من فرجها مبلولاً،  
مشبعاً، متقطراً. استلمت ورقة وكتبت عليها بمياهها الجوفية  
«أحبك». ولم يكن لدي في تلك اللحظة إلا ارتكاس فريد  
من نوعه. رقيق: هذه الأحرف الأربعة المكتوبة على...  
(ا. ح. ب. ك) كانت لحمتها طرية ساخنة، هبرة بلا  
عظم.

كانت مريم تصغي إلي، ولم تهتد إلى اكتشاف أي شطط في روايتي. ووضعتنا صورة مؤقتة حد الشبه العدااء القائم بيننا، فكانت تساعدني على إعادة بناء الحوادث التي سبقت لقائي بالحرب، ثم مسيرتنا المشتركة مع أصدقائي بين أشجار النوبال والقطلب التي صعقتها الشمس. كنا نلهث متعطين إلى النفوذ والامتلاك وقد بدا لنا في طلبهما كثير من المغامرة وذلك بسبب الأسطورة التي تفجرت وتفرقت فغدت لا يؤمن بها أحد. كان علينا الظهور ثم المسير في ارتجاج إلى أبد الدهر على وتيرة تحرك القرمزيات المنتشرة بيننا وبين خيال من كانوا يريدون الإغارة علينا في صلب قافلة لزجة، دبكة، كانت تغالطنا أثناءها أحلام شائكة من شرار النار المتصاعد وسط بعض عمليات التمشيط والتقتيل في بلد كان فيه للعدو مطلق النفوذ علينا. الظهور واللهات في ظل بعض مدافن العظام المكدسة والضرب، ثم ترك جروحنا تشحنها الندبات ونحن بين فكي الاحتضار التي كانت تتفاقم مقاييسها فجأة فإذا هي كالهوة السحيقة. لقد

كان موتانا يتحدّون الزمان والمكان بفضل زهرة الخشخاش التي كنا ننشقهم رائحتها قبل أن نغطيهم - نظراً لحرارة الطقس الشديدة - بالجير المحرق فلا يبقى منهم أي أثر. . كنا في تحننا نركض في طريق غير تلك التي خطتها إرادة أجدادنا المحاربين الذين فرضوها علينا فرضاً مدفوعين قسراً إلى قبول الحلول المنقوصة أمام قوة العدو المغير الذي قذفوا به إلى أرضنا كالقذيفة يقذفها المنجنيق، فتعنت الغازي وأصر على الاتيان على جنسنا. وكان علينا أن نتدبر الأمر بمفردنا لأنه لم يكن لدينا في الحقيقة إرث ولا وصية ولا مسيرة مرسومة من قبل. وكان الأكبر منّا سناً يعاملوننا معاملة سيئة جداً ولعلمهم كانوا يأتون ذلك بدافع الغيرة منا ونحن نطالع - كلما صادف أن توقفنا عن السير - كتب الشعر والحسابيات والسياسة العليا بينما كانوا هم لا يفقهون منها شيئاً وقلوبهم تتلظى لهفة على معرفتها. وكنا نضطر إلى الاغراق في ضحك لا قدرة لأحد على إيقافه كما يفعل الطائشون من التلاميذ، وذلك لاسكات الفلاحين الحذرين الذين كانوا مثل الحراشف الغليظة الحقيقية التي تمنع كل احساس بما يختلج تحتها. هل كانوا يغفرون لهجتنا الخاصة؟ بدون أي شك لأنهم كانوا يحترمونا في قرارة نفوسهم ويسهرون ليلاً حول مخيماتنا الهزيلة لمنع جوارح الطير من التحويم فوق بطانياتنا اليابسة الخشنة، وكانوا يريدون أيضاً نصب كمين للايقاع بأستاذ الحسابيات (أم الموسيقى!) سبب مصائبنا. ولكن التفكير

في تحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة كان يزعجنا فنرفض رفضاً قاطعاً مثل هذا الحل الشديد الصرامة، مفضلين عليه أفناء أصواتنا بالشم والوعيد لهذا الخائن الذي لا شك أن أصحابنا المتسترين بالمدينة والمنظمين للنضال داخل الأحياء الشعبية قد ضيقوا عليه خناق المطاردة. وكنا واثقين من أنه لن ينجو منهم. ولكن ما أن يعرض علينا القبض عليه حتى نرفض ذلك متعللين ببعض الاستحالات المنطقية المجردة التي كانت تبعث الدوار في رؤوس رؤسائنا وتتضارب مع منطقهم وكانوا يقبلون في النهاية حججنا ويختلسون الابتسامات، ضاحكين من تخوفنا من أن نجد أنفسنا من جديد وجهاً لوجه مع أستاذنا (الحسابيات! الموسيقى) السابق الذي يؤدي القبض عليه إلى طرح المشاكل أكثر من أن يحل منها. وبعد التوقف فترة وجيزة، كنا نستأنف المسير باحثين عن بعض شجيرات العرعر لنختفي منطوين تحتها حتى تجيئنا رائحة التقتيل فتوقظنا من تخدرنا. ثم كنا نتسلق القمم للزيادة من ادماء أقدامنا المنهوكة التي تفتحت فيها شقوق وتخاريم قدرة دنسة. كنا نشعر في داخلها بأكال يبعث على الجنون وكان هذا الجنون يذهب عنا عندما كنا نلمح بعض التتواءات الصخرية ذات المسام المبشرة بوجود بعض الصخور المجوفة الجليلة فنذور خلفها فنلقى البحر.

كانت مريم مصغية فأصبح من البديهية أكثر فأكثر أن العدا والضراوة قد ذهبا عنا وانقطعا عن تخريب نفسنا

وعن تعفين علاقاتنا. كان يطيب لها أن تسمعني أتحدث عن تلك الفترة غير الثابتة. أذكر منها صوراً وبطاقات بريدية («حضر موت 12 - 10 - 1931 حسان») هائماً وتائهاً منقطع الأنفاس أشد عنفاً من عنف مسيرتي الراكضة. لقد كانت جميع هذه الذكريات تحوم حول البطانية ذات اللون الحريري الخام المنسوجة بتشيكوسلوفاكيا والتي ورثتها عن «الكاهن» الأعظم الذي قتلوه مباشرة بطرف السلاح لأنه كان يطالع ماركس فيوشم كيانه هذا إلى الأبد الآبدين ويقبع في صلب تغير كرهوة الصابون. وذكرت لأول مرة الكاهن الأعظم أمام مريم وكانت تصدق ما أقول لا بسبب ما فيه من مصداقية ولكن احتراماً لبنود ذلك التحالف الضمني الذي كان يربط بيننا، وأنا واجل من ذلك اللون الامغر الذي يغرق فيه ضميري كلما رويت حياة القبيلة الكبرى الهائمة منذ أن هجرت المعهد. إذن فقد أورثني الكاهن الأعظم كل ما عنده: بطانية وبعض الكتب نصفها محروق من جراء حريق عمومي أمر به جماعة السفاحين الفرنسيين. وقد تمكنت من انقاذ البطانية بعد نزاع وخصام ماكرين. وكان عليّ منذ ذلك الحين أن أجراها معي حيثما حللت ولم يهتم أحد بهذا الإرث الذي أورثنيه الكاهن الأعظم. حتى إذا حل ذلك اليوم الذي خطرت فيه ببال العشيقة تلك الفكرة الغربية، فكرة تقطيعها قطعاً صغيرة لكي تقتلني برداً. ترى هل كان في وسعي أن أغفر لها هذه الخيانة تجاه الكاهن الأعظم الذي قتلوه بسبب ترويجه كتباً تحرض على

التمرد ضد الدين وعلى التآخي بين الطبقات؟ كلا! ولقد كانت مريم نفسها تعترف بذلك إلا أنها لم تكن تقدر قيمة تلك البطانية الملعونة التي أضحت لا تغطي أي شيء منذ أن أحدثت فيها تلك المرأة العشيقة التمزيق العميء. وكنت إذ أتحدث عن شيخي الفقيد أعرض نفسي للخطر لأن السلطة والنفوذ الأعظم كانا يومئذ بيد العصاة وكان لا يطيب لها أن يذكر المرء تلك العمليات التي وقعت فيها تصفيات الحسابات فأودت بحياة الأختيار. أودى بها شرذمة من الاندال قُذف بهم إلى قمة المجد كقذائف المنجنيق وتجاوزتهم أحداث الوضع الجديد الذي أصبحوا فيه، فرجعوا إلى أصلهم الأول المشؤوم. ترى ماذا جاؤوا يصنعون في صلب الثورة؟ لم يكونوا ضالين فحسب بل لقد جاؤوا في وقت غير مناسب ليشفوا غليلهم ويطفتوا تعطشهم إلى تربة الأجداد وأرضهم في الهواء المحرق الذي تفوح منه رائحة شجر الأوكالبتوس المحروق؟ تلك الأرض المدمرة، دمرتها قوى غير سليمة. كانوا لا يعرفون أي شيء عنها بل لم يكونوا راغبين في معرفة أي شيء عنها. ثم ها هم الآن انقلبوا فأصبحوا يعطسون داسين أنوفهم في مناديل معطرة بزهر عود القرنفل وبنشوق التبغ. لقد كانوا يأبون التفكير في المستقبل ويمشون فيه القهقري كما يفعل أربابان البحر. وكان امتلاك تلك الأراضي الشاسعة الخصبة الشيء الوحيد الذي يبعث النشوة في نفوسهم على حساب ذلك المخاض الطويل الذي كان ينتظر الشروع فيه والذي



كانوا لا يابهون له . كان ذلك هو السبب الذي قتلوا من أجله الكاهن الأكبر بأن أطلقوا عليه الرصاص من الخلف؛ فقد كان في نظرهم مفرطاً في الاهتمام بالمستقبل ومقصراً في الاهتمام بالحاضر . وعلاوة عن ذلك فقد كانت تنبؤاته تبعث الخوف في نفوسهم لأنها كانت مريعة: ألم يكن يتكهن للمستقبل أن يكون فيه الرعب المسلط على الشعب السمة الغالبة المسيطرة على سياسة جد ديماغوجية تقوم على فصاحة الكلام وعلى تشييد المساجد الفاخرة حتى تجيء إليها الجماهير فتسئ فيها مطالبها .

وكانت مريم تعرف الآن أن الكاهن الأكبر كان على حق لأنها كانت ترى المدينة ترتفع فيها المآذن الممشوقة شيئاً فشيئاً وتغشاها الحانات الأمريكية، بينما كانت الفوضى في تعاضم وتفاقم، والأرياف في زحف وهجوم على المدن المزيفة العاجزة على اطعام من تجتذبهم إليها من الخلائق، تلك المدن المطوقة بالبحر والتي تغور في أحشائها الأرصفة المستطيلة الضيقة... الآن أصبحت تعرف كل شيء! ولكنها لظمت الصمت إذ لم تجد ما ترد به على تخيلاتني ولأنها لم تكن قادرة على الاقلاع عن المبالغة... عن المبالغة في ذلك العذاب الذي كانت تحدثه في نفسها البطانية الممزقة . يا له من موقف شعوذة لا يطاق! لقد كانت مسؤولة . ترى هل كانت تبكي في تلك الغرفة التي لم يعد يشدها إليها أي شيء بعد أن جاءت تباغتني فيها؟ كلا لم تكن تبكي الآن وقد رأيتني أطفو من جديد وسط

صفاء ذهني الشخصي وأوضح كثيراً من النقاط التي ظلت حتى ذلك الوقت غامضة بل ومشعبة بالأوهام ايما إشباع وذلك بفضل فترات صمتي ونوبات غضبي المفاجئة المتعلقة بتفاصيل وجزئيات كانت تجهل اهتمامها الحيوية، كلا لم تكن تبكي أو لا تكاد تبكي إلا قليلاً أثناء فترات اللقاءات السيئة الطالع التي كان الحلم يلتقي فيها بالمعقول! كانت لا تبدى حراكاً. وكنت إذ تراها جامدة في تلك الهيئة النهائية أخالها تستوعب ظلها الذي كان يجعل هيئتها أقرب إلى الزوال وأقل احتمالاً. وكان الليل يلم بنا وقد عادت إلينا فجأة وداعة غرق فيها جسمانا. ولم يعد يصلنا من البستان أي بصيص من نور لأن عصافير التوتة كانت قد انصرفت جميعاً، فكنا لعلمنا بذلك الفراغ الهائل تحت شباننا نكره الإنارة وذلك لكي لا يعرف احدنا الآخر من خلال وجهه الشاحب ولكي أضفي على تصوري لذكري الكاهن الأكبر ضرباً من الجلاء النهائي التام. فكنا نفضل مداعبة بعضنا بعضاً واكتشاف أحدنا لصاحبه شيئاً فشيئاً على وميض سجائرتنا المحمر، ونؤثر الانقطاع عن الحديث حول شطط العصابة الكبرى التي ركنت في ذلك الوقت إلى الراحة بعد الحرب التي خاضتها وراحت تتمتع بغبطة مدهشة. كان يطيب لي أن تدلني ماريا (مريم؟) وكنت أظفر من جديد من خلال شعرها الذي بيضه انعكاس المرأة، نوعاً ما، برائحة حناننا الأولى الذي غيرته منذ ذلك العهد المختلف الضروب والمشاكل الحقيقية (مأساة اليهودية

مثلاً) وغير الحقيقية. وكان يطيب لنا أن نبقى على تلك الحال الأسابيع الطوال نتمتع بالسلام وقد عاد، غير أننا في تلك الهدأة الوقتية التي لم تكن في الحسبان، كنا نرفض التواطؤ مع أبي ونرفض تذكر الكاهن الأكبر الذي كنا نتناكح تحت بطانيته بدون انقطاع. عندها نذهب إلى قراءة الكتب التاريخية وغيرها، ونقضي ليلينا هناك منهمكين فيها محاولين فرز خيوط الكبة المتشعبة والتي يطلقون عليها اسماً غريباً على كل حال: التاريخ! وهكذا تقرأ لي مريم بعض ما كتبه ابن بطوطة عن طقوس بعض البلدان التي زارها وخاصة منها العادات النسوية وموقف الرجال من المرأة في بلاد السند والهند آنذاك (وأخبرني الناخوذة أن هذه الملكة الهندية لها في عسكرها نسوة وجوار يقاتلن أحسن من الرجال، وأنها تخرج في عساكرها من النساء لتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الأبطال. . وفي إحدى المعارك وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعته طعنة كان فيها حتفه، فمات وانهمزت عساكره، وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله منها بمال كثير فلما عادت إلى أبيها ملكها على رأس مملكته. . . (رحلة ابن بطوطة ص 626 - 627)، ولكننا كنا كلما تقدم الليل بنا نأخذ في الخلط بين النصوص والأمور والأشياء، وذلك بسبب خوفنا من ألا نكون على قدر كاف من الفطنة بسبب صعوبة الوضع وقد كان عسيراً بالرغم من كل شيء! كانت الأشكال يمتص بعضها بعضاً بصورة تثير الغيظ وتخلص

من كيانها المحترق في لذائد الشمس التي اختفت منذ فترة طويلة. وكنا لكي لا نجمد من البرد ناوي ثانية إلى غرفتنا الصغيرة التي أطلقنا عليها لقباً فخماً فسميناها، «فيلا السعادة» فنتظر فيها عودة الطيور والأفراخ. كانت تظهر أمامنا وقد التصق بعضها ببعض خلسة؛ تتقدم بانتظام إلى أن تبلغ الشكل المتنوع الألوان حيث كانت الأصوات تطفو صادرة عن الفجر اللبني اللون كما لو كانت صادرة عن حلم يقظة خارق: فتكون اللحظة العظمى! وكم كان النوم يخز قفانا. لقد كنا نقاومه بكل ما أوتي جسمانا المنهوك من قوة وقد تصلبنا بالإضافة إلى ذلك بسبب الصراع غير المتكافئ والقوة الذي كنا نقاوم بها طلوع كل صباح ونحن في أوج فصل الصيف. إنه الشعور بأعضائنا متجمدة يابسة وبحلقينا وقد جرحتهما الرطوبة، وهو التألم من ذلك التعب الحلو الجاسم بين أعيننا وقد لذعمها ذلك الحلم الذي كنا على وشك التحجر فيه إذا ننام ونستيقظ مذعورين بسبب الكوابيس، فإذا كنت أول المستيقظين داهمت العشيقة ولثمت وجهها وقد قبحة التعب والبرد. - هل صدقت بموت العمه فاطمة؟

ما رأيك في انتحار العم جلول؟ لم أصدق بذلك كل التصديق، أما عن زميل أبيك ف... تجيب بذلك وقد تشنجت أعصابها من أسئلتني التي كانت تمنعها من النوم ومن جمع ركبتيها إلى ذقنها في ملجئها الأقصى لكي تتمكن من التخلص من أوهامي وهوسي (النحنحة، قرع الأقدام

الخشبية... ) وهكذا لم يحصل أي تقدم بل ظلت جميع الأمور تنتظر من يقوم بها بيد أن هناك يقيناً واحداً هو حبي لمريم. لكن ضميري كان يسألني أن أعيد النظر في كل شيء مرة أخرى... أتذكر زوجتي... وأنا: هل من مزيد عن سذاجة ابن بطوطة فيما يخص أمور النساء وعادات الآخرين ولم يفهم منها شيئاً، فكان على عكس المسعودي، لا يفهم شيئاً، وعلى عكس الطبري، لا يفقه أمراً يخالف ما تعود عليه وعلى خلاف ابن خلدون، ليس له منهجية بالمرة... وهي: طبعاً! إلى حد البلادة والركاكة: («وشأن قوم بايوالاتي لعجيب، وأمرهم لغريب. فأما رجائهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب احدهم إلى أبيه وإنما إلى أمه أو خاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود... وأما هؤلاء فنساؤهم لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجن مع مواظبتهن على الصلوات وهن مسلمات... والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب والعشاق من الرجال، ويدخل أحدهم داره فيجد أمراًته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك، بل ويكرمه...») (رحلة ابن بطوطة ص 677 و678).

ثم هذا: إن الطفولة هي الأخرى كانت كذلك تدميراً! لقد بددنا كل شيء ولم يبق سوى تلك الخدشة القذرة المحفورة على أديم الحلم، ذلك الكابوس الذي تحول إلى لون الدم الأمغر الذي كان يجف في الصحن الكبير في دار

الأم المطلقة بعد أن تزوج أبي قمر، الفتاة العنابية التي لم  
 يأتيها بعد الطمث ليلة دخلتها، فترقب الأب سنة كاملة،  
 حتى بلغت وصارت امرأة خصبة، لا تفتأ تهدر عن سلفها  
 القرصاني الذي رجع من إحدى غزواته حاملاً معه تسع  
 عشرة ساعة جدارية من الذهب والفضة والماس، لم يعرف  
 مثلها في البلاد، أتى بها من جزيرة صقلية («جزيرة صقلية  
 بحكم موقعها بين الساحلين التونسي والايطالي كانت لها  
 أهميتها العظمى في الصراع البحري بين قوى حوض البحر  
 الأبيض المتوسط الغربي، باعتبارها مفتاحاً للبحر الأبيض  
 المتوسط والغربي ويعتبر فتحها على أيدي الأغلبة في مطلع  
 القرن الثالث الهجري حدثاً من الأحداث البارزة في تاريخ  
 البحرية الإسلامية وتحولاً خطيراً في السيادة على هذا  
 القسم من البحر. فعن طريقها عرف الأغلبة كيف يهددون  
 الإمارات الايطالية، كما عرفوا كيف يسدون البحرين  
 التيراني والديراتي...» الأدرسي: صفة البلاد الايطالية ص  
 15)، وبالأخص من مدينة باليرمو سنة 1719، ومنذ هذا  
 التاريخ لم يفتحها (الساعات الجدارية) أحد لشدة ما كانت  
 نفيسة ودقيقة في نفس الوقت. وبحث أبي عن ساعاتي خير  
 في هذه الأمور، فجيء به من جزيرة مالطا وكان يحسن  
 العربية ما عدا سوء نطقه لحرف الخاء الذي كان يعوضه  
 بحرف الحاء فيقول أحي وهو يريد بها يا أخي! كان هذا  
 التقني لا يحرك ساكناً. وبدأ صمته يقلق كل أعضاء العائلة  
 بمن فيهم أبي وزوجته قمر. وكان المالطي يعمل من الفجر

إلى ساعة متأخرة من الليل في معالجة الساعات الجدارية مقحماً العدسة المكبرة في مجهر عينه اليمنى وكأنها امتداد شيطاني لعينه وضعت هكذا لايجاد التوازن مع حدبته (كان الرجل بالإضافة إلى نطقه الرديء للغة العربية، يشكو من عاهة تتمثل في حدبة ضخمة يتحمل مسؤوليتها ويتحمل ثقلها بكل صبر واذعان). وعندما شرع الأجنبي في مراجعة وفحص الساعات الجدارية، توقف عن شرب الخمر برفقة أخي الأكبر عبدالله، وقد اشتهرا بسكراتهما الخارقة. كانت قمر قد سقطت في شباك حب المالطي وكانت تقضي ساعات طويلة تحاوره وتطلعه على أهم الحوادث البارزة خلال النهار السالف (ترى هل علمته بالعلاقة المخجلة الدنيئة التي كانت تربطني بها؟) لكنها في واقع الأمر كانت من خلال حديثها عن الأشياء اليومية العادية والتافهة، لا تريد سوى مدخل للحديث معه عن الساعات الجدارية الصقلية، ولأنها كانت تعلم أنه يكره قلقها واضطرابها بشأنها، («وقد تنبه العرب منذ حملة عبدالله بن سعد إلى الأهمية الجغرافية لجزيرة صقلية وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم في أفريقيا، وتعرضت هذه الجزيرة منذ حملة معاوية بن حديج (سنة 46 هجري) لغارات المسلمين البحرية، فغزاها عبدالله بن قيس الغزاري من قبل معاوية بن حديج، من أفريقيا في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ثم غزاها عقبة بن نافع من البحر بأهل مصر في سنة 83 هجري. وغزاها عياش بن أخيل في ولاية موسى بن النضير

في أسطول المغرب، وغنم منها الكثير. وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك، فغزيت في سنة 105 هجري في ولاية يزيد بن أبي مسلم. وفي سنة 105 هجري غزاها بشر بن صفوان بنفسه في خلافة هشام بن عبد الملك، ثم غزاها المستنير الحريشي في سنة 113 هجري. وغزاها حبيب بن عبدالله بن عقبة بن نافع سنة 116 هجري. ثم غزاها للمرة الثانية ثم الثالثة في سنة 122 هجري. وغزاها عبد الرحمن بن حبيب في سنة 135 أيام إمارته على افريقية». (ابن الأثير تاريخ المغرب. ص 219)، فزاد اضطراب قمر من رهافة أصابعه الجميلة الدقيقة كلما عمد، بأدوات التدقيق الصغيرة، إلى رد كل شعرة من شعرات الزمن إلى مكانها، وشدد إحكام المعبثات بكمادات الوهم البالغة الصغر، وأدرج المفاصل في أمكنتها ببراعة فائقة، وقوم كل لولب وكأنه إزاء عصارة متحجرة من خيط دود القز، وتفنن في معالجة كل لولب بعين التسامي، وركب الرقاصات برهافة الفراشات واستبدل الأحزمة بعبقرية مذهلة، ووضع المعدلات بحذق صانع ماهر، وزيتها، وأسرع في عمله دون أي تدجيل أو حركة خاطئة لكي يعيد كل شيء إلى مكانه، ثم يعلن الخبر السار لا إلى قمر التي كان لا يبالي بها، وإنما لصاحب الدار: حسان الجزائري، ورئيس القبيلة... كان وهو على وشك الانتهاء من عمله كأنما يعزف على ملامس الخلود... ولقد روجعت بفضل هذا العمل الدؤوب وهذه المهارة الهائلة، الساعات



الجدارية جميعها ونظفت وشحنت ولم تند عن كمالها الأصلي إلا ببعض التدقيق الذي أضفي عليها. ذلك أنها ظلت منضبطة ودقيقة تماماً حتى أثناء الكوارث والمجاعات، والتهديدات والانتحارات والمآتم والمجازر والجفافات والمذابح. وعندما انتهى المالطي الأحذب من عمله، واتخذ كل شيء مكانه من مراسي وجذوع ومحاور ومساند وأوتاد ووقافات وكريات ومشابك ونواصات وبلاينات وبكرات وعجلات ولوالب وطبول وأصامبخ ودواليب، وعندما تم فحص تلك الروائع التسع عشرة الأخيرة وتشحيمها وضبطها واحدة بعد الأخرى، دخل صاحب المنزل ورشة الساعاتي. بدا وكأنه مجنون، وجعل يسير بسرعة فائقة ذهاباً وإياباً بفضل حذائه المطاطي، وعيناه اللتان حيرتا العديد من النساء قد اتسعتا بصفة خارقة. حتى أن خضرة بؤبؤيه كانت محاطة بالماء أكثر من المعتاد. واضطر الساعاتي المالطي إلى إيقاف الأدوات التي استعملها حينما دخل حسان الجزائري الغرفة وكانت زوجته قمر موجودة مع الخبير الأجنبي. حينذاك ثارت زوبعة ودمرت كل شيء باستثناء الساعات الجدارية التي كانت ضخامتها وثقلها يردان عنها أعنف الهزات. وشع الجو ببوادر زخة مطر قادم. دوخ الأحذب نوع من الدوي النهري، كأنما اصطدم دجلة والفرات داخل قفصه الصدري. وقد كان الوحيد الذي سمع من خلال الريح التي أدخلها حسان الجزائري معه، تلك النغمات الرائعة كصوت

قطرات المطر الأولى المخضرة الزرقة، والمنقطعة فيما بينها، والمتباطئة، وكأنها تتردد في السقوط، لكنها تهطل برتابة آلات المترونوم التي أدرجها قبل حين في بطون الساعات الجدارية الصقلية. وظل أبي في مكانه لا يريم، وقد امتلاً فمه بالكلمات ووشوشاتها، ولكن دون أن يصد عنه صوت واحد. كان من الاضطراب بحيث أن الساعاتي احتفى بيده رافعاً يَها بمحاذاة رأسه. لكن سرعان ما انفجرت زوجة الوصولي وهو، - الأحدب - لم يهتم بالنساء ولو مرة واحدة في حياته، وذلك لولوعه وتفانيه في تصليح الساعات العتيقة، دون كل الساعات الأخرى الحديثة، مهما كان صنفها وثمنها. إلا أن أبي كان غيوراً، حقوداً، متعسفاً مع كل زوجاته، باستثناء شجرة الدر التي قهرته وأرضخته إلى حد أنها كانت لا تلبس الحجاب، بل وتقود السيارة وتدخن علبتين من التبغ التركي الأصفر، الرفيع ومن نوعيه (كامال) في اليوم الواحد.

إن الطفولة كانت كذلك تدميراً! لقد بددوا كل شيء ولم يبق سوى تلك الخدشة القذرة المحفورة على أديم الحلم، ذلك الكابوس الذي تحوّل إلى لون دم أمغر كان يجفّ في الصحن الكبير في دار الأم المطلقة حيث كانت القبيلة في حالة نعاس بعد القيام بطقوس ملحمة الماء. وكانت البرودة الوحيدة تأتينا من كدس متجمع من البزقات فكانت نفوسنا تتجمد للمسها وتنكمش في آن واحد ولكنه كان يحتم علينا مطلق التحتم أن نطرد تلك الدوبيات الباردة إذ لو لم نفعل

ذلك لماتت من شدة الحر وسط أكداس متراكمة من الكسكس الجاف على ملاحف قاسية البياض.

لا . لم يكن هناك أي ملجأ! كنا قد شعرنا في وقت مبكر جداً من حياتنا! ومنذ نعومة أظفارنا في التردد على الحانات ذات رائحة الحبق والخشخاش المدسوس تحت أفخاذ العاهرات قصد إخفائه في الليالي التي كانوا يخشون فيها نزول الشرطة. وكنا قد شرعنا في وقت مبكر جداً من أعمارنا في إرادة القفز للعوام في ماء الميناء حيث كان ساسة العربات الذين يجيئون لتعويم خيولهم يعتدون على شرفنا بين صندوقين من صناديق البطيخ بدون أن نفقه لتلك القضية معنى. إن ما كنا في حاجة إليه هو مغادرة المنزل وترك مشاجرات النساء وهجومات الإناث اللائي أحرقتهن ليالي الصيف الهائلة، وترك صلوات الأعمام الجماعية لننصرف بقيادة عبد الله إلى حيث كان الماء أكثر حمأة ووحلاً للعثور على الوالد وللإيمان بسعادة ما. وقد امتزجنا بمدخني الحشيش وبقحاب المواخير المسنات (الوشام على السرة والضرة مرة!) حيث كان من المحتمل أن نصادف شيخ العائلة وهو ينقد محظياته السوقيات نقداً سخياً، كالمملوك، قبل أن يستنزلهن في فيلات قائمة على هضاب المدينة الكبيرة. لقد كنا ننيك أكثر النساء وشمأ، أي اللواتي كانت لهن رائحة مازالت عالقة بجلد بطونهن، والتي نخرتها ندبات طويلة ناتجة عن عمليات قيصرية؛ هي رائحة الأرض اللاذعة العنيدة التي لن تبارحهن أبداً. كم

كانت شاقة على النفس تلك التجولات عبر الأزقة الصغيرة إثر صلاة العشاء حيث كنا نذهب لننعم برؤية ساقية حمراء قلوية المادة لامرأة طاعنة في السن قد خلعت سروالها وجلست على كرسي قصير وأخذت في تمرير يدها في فرجها المغضن جيئةً وذهاباً، تقوم بذلك على غرار عملية ايلاج ذاتية، كانت تزيد في حدة حقد الشعب الذي غادر المساجد منذ فترة وجيزة فينقض مهاجماً أولئك الفلاحات ذوات العيون المكحلة. لقد كانا نصاب في سويداء قلوبنا وذلك لأننا كنا نضطر إلى الجدال الممل اللحظات الطوال مع الكافرات الجالسات وراء أبوابهن القصيرة وهدفنا الوحيد من ذلك حملهن على التلفظ بألفاظ جنسية كنا نعشق سماعها من أفواههن، إذا لم يكن لدينا نصيب من المال لكي يجوز لنا ولوجهن. وكان ذلك يساعدنا على تعزيز مناجاتنا الذاتية التي ظلت سابعة في ابهام ضمائرنا الفتية، مثل القروح في صلب الواقع الكثيف التابع للأمر العادية المبتذلة التي كان الوالد والأم ومختلف الزوجات وعدة العشيقات وعصابة الأعمام وبنات الأعمام يمثلون أدق معالمها وأثمنها رغم كل شيء. ولكننا كنا ننفذ من عيون شبكة الحياة الجماعية فننظم ألعاباً ذات قوانين قاسية وعمليات جماعية نجلد فيها عميرة في القسم، كانت الإباحية الجنسية أجلى خصائصها: لمجرد انعكاس بريق من جسد يهزّ أجسادنا من الرأس إلى أخمص القدمين والذنب في ذلك ذنب معلمة الفرنسية التي كان سي الزغواني

يكرهها وينبذها كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. كانت مفرطة في الثقة والإحسان كنا قد صممنا على قتل عشيقها؛ ثم عمليات اغتصاب خرقاء نعتدي فيها على بنات أعمام بعيدات قد جئن لقضاء عطلتهن في الدار الكبيرة، فكنا نطالبهن بخلع ثيابهن خلعاً فنياً كان يصعد في أفواهنا طعم النحاس الذي كان يذكرنا برائحة الدم الشديدة والذي كان يسكب في جميع سواقي المدينة عند الإحتفال بعيد الأضحى، وكذلك: نساء كنا نترصد أفخاذهن البيضاء الملساء أثناء صلوات التراويح بالمساجد في شهر رمضان وذلك بمجرد أن يركعن للتسبيح لله ولرسوله. لقد كان التدمير في نفوسنا منذ طفولتنا المنهوكه من جراء السباق لإكتشاف الوالد القضيبى الذي كان نصف واقعي ونصف خيالي: (تدمرت 12 - 2 - 1953) وقد تاه وسط سحره المؤذي واستأثرت به نساؤه الكثيرات. كنا نطارد خياله الوقح والواثق بنفسه بدون هوادة وبلا أمل فنتنقل من أحجية إلى أحجية ونندهش للعدد المتزايد من أنصاف الأخوة وأنصاف الأخوات الذين كانوا يعرقلون مسيرتنا نحو الاكتشاف العجيب، اكتشاف ذلك الشيخ الظالم. ولكن رحلتنا الطويلة كانت تغوص بنا في غمرات تعاطي الكحول والزنا بالمحارم. لقد حدث انفصام الصلة في نقطة ما وبصورة نهائية فأصبحنا بعده متلهفين للعثور على الثلثة فنتخاصم مع القبيلة، القبيلة التي تحولت فيما بعد إلى عشيرة مضيقة وذلك كي تتمكن من إحكام اصدار أوامرها

وسن قوانينها واقتضاءاتها. ترى أي مستنقع وأي سلح كنا قد اجتبننا؟ لا شيء. لم نجتنب أبداً شيئاً يوماً، وذلك لأن الحكم علينا كان صلباً راسخاً منذ طفولتنا التي حرفتها هوائل لا مفر منها كهوائل يوم القيامة وقد كانت أمي محورها الدائر، إذ قد عميت بصائرنا التي أعماها حبنا العنيف لأمنا (أمي) والذي كان يجعلنا على مشارف الزنا بالمحرمات والتدمير في عالم ظل مغلقاً مسدوداً في وجه تحسننا وهو التحسس بذرات شريرة مبددة في صلب الأمم الملتهمة والأبوة المتغيبية...

– هكذا بدأت تفهمين.

اللبوة (كانت صورة (رمز؟) بروجها، صورة الأسد) قبضت عليه ولا أزال صامتاً كالحمار. أردت أن أفصل حياتي على قد الناس، قد العائلة. قد إخواني أخواتي، قد المجتمع، لكن أكلتني الأسئلة وأحرقنتي التساؤلات. أردت خرق الغموض بسرعة الضوء... أردت فك اللغز وفهم كل هذه الأشياء المتنقعة داخل كل واحد منا (وسط عائلتنا أو خارجها). بدأت أتخلخل شيئاً فشيئاً. من جديد: هوس العمة فاطمة. اسمع قرع أقدامها على البلاط، نحنحتها، كلماتها الفاحشة (ولاد القحبة، حبتو تتربو قبل ما تتعنبو!) أعرف أنه هوس، لكن رنة صوتها تصل إلى مسامعي. شيئاً فشيئاً ترسبت انتهاراتي، بينما هي لم تتوقف عن تحريك رديها، ثديها، زنديها، عينيها. لمستها، فركتها، دلكتها. أولجتها بقسوة وحقد. صاحت. صعد الحبر إلى رأسي. أخذتني رغبة رهيبية إلى الكتابة. نهضت. جلست إلى مكنتي

وضعت يدي على الورقة التي كتبت عليها كلمة؛ أحبك،  
بمياها الجوفية. صارت هذه الكلمة تحوطني من جميع  
الجهات. نهضت إلي... عانقتني

- أنت أيضاً تريدين ترويضني؟

- لا، أبداً، أنا فقط أحبك!

كيف تقبلين أن أبقى متزوجاً؟

- أنت مروض خلقة، بديهياً... زوجات أبيك  
المتعددات تحول دون هذا. أما أبي... سكتت. سكت.  
صار الكلام بيننا مجرد لعبة، لا بعد لها ولا عمق ولا  
أفق. عادت الألفاظ مجموعة من التلوينات، يمكن استبدال  
الواحد بالآخر دون ازعاج النظام العام. بتصميم تجرّعت  
الباقي من الكلمات، سحالتهنّ... فعلت ذلك مثلما أبلع  
مضغّة من المخاط. كان رأسي يرن مثل حافلة الترامواي  
الكهربائي (صورة عمّتي فاطمة وهي تصيح وتعيط وتضرب  
الأرض بيديها الملطختين بالدماء حيث كان جسدها كله  
يفغوص فيها. قصتها العجالات من وسطها شطرين  
متساويين. لم تمت لوهلتها. كم هي؟ دقائق؟ ثواني؟...  
رجعنا إلى المنزل. تقياناً المرار والمرّة والصفراء. أحرقنا  
كل ما نملكه من الأوراق المالية التي اقتصدناها لمدة  
أشهر. جلسنا على درابزين الطابق الثاني وكأننا نحاول  
الانتحار. ضربنا بالقسط عرض الحائط دونما جدوى.. قيل  
لنا إنها ماتت بعد ساعات من العذاب والألم). وأردت  
الصمت. جاء لازماً وضرورياً. أقوم إلى النافذة. أغلق  
إطارها العتيق الخشبي، والمنحوت المزخرف (أيام زمان.

لم تعد الدور مثل هذه. الحكومة تبني أقباص الأرانب وتسميها عمارات (وبيوت!). أرى غصناً من أغصان التوتة قد تنامى وتطاول وتمكن من الدخول إلى الغرفة، إلى حد المكتب نفسه، بجانب الزهريّة البوهيمية المملوءة زهوراً صفراء ناصعة وأخرى نيلية قاتمة (وجه العم جلول المشنوق).

### «براق»

1939 - 9 - 12

حسان».

وكأنه (الغصن) يشرب بأوراقه ووريقاته كل يوم بعض المليمترات. تجلّت سناسن الفقرات لكل ورقة، بارزة بانسجام، ومن خلال زجاج المصراع الأيسر تظهر التوتة بأبهتها وهيمنتها وهي بأغصانها كأخطبوط المتلهج... قالت هي: ليس هنالك في هذه الدنيا إلا التوتة وموت عمك فاطمة وأسفار أبيك وانتحار العم جلول. إسمع! يمكن البدء بالحكاية انطلاقاً من الوسط ومن النهاية، ثم الانتهاء منها انطلاقاً من أولها. وهكذا كل الطرق تؤدي إلى عمق الواقع والكتابة (كتابك أنت بقلم القصب والصمغ الوردي الذي تحرص على الحصول عليه من المستنقعات البعيدة) الكتابة عبارة عن آنية مستطرفة... كل جزء يصب في الآخر حتى يملأ العالم بضجة لا مثيل لها. الكتابة تفتح كل الأبواب ولذا تكتب. تريد أن تترك شيئاً عن تاريخ عائلتك، تحاول أقصى جهدك لتحقيق ذلك. وأخي أنا



كذلك عندما يسكر ويغلق الخمر كل منافذ وعيه، كان يقف أمام باب الحديقة الحديدي ويأخذ في الصراخ. في البداية غضب أبي ورفض أن يفتح له الباب رغم توسلات أمي. لقد تعود أخي على خلق الضجة ونشر الفضيحة في الحي. لماذا كان أبي يغلق الباب وقد كان سكراناً لا هم له سوى الذهاب إلى فراشه والنوم، بعد أن تكون أمي قد قصت عليه الخرافة تلو الأخرى ثم تحاجيه وهو غائب لا يفهم (حاجيتك وماجيتك! بلا بهم ما جيتك..) لا يفقه حتى أبسطها، (حاجيتك وماجيتك! طابق جلدلان موزع على البلدان). لقد تكثف زجاج الفهم عنده وتخبلت الأمور، ولكن لا يدعها تنصرف، يخاف الظلام. كنت أدخل غرفته في قميص النوم والنعاس يبرم عيني ويقعورها فيأخذني من يدي، يريد مني أن أقص عليه... ماذا أقص؟ يلح عليّ، فأتلو الذبابة والقاضي... وكان يقهقه ورائحة الخمر تنتشر في أرجاء الحجرة، لم أكن أعرف آنذاك ما هي الحروف الرخوة وما هي الصلبة وما هما الكلمتان الأساسيتان في اللغة العربية. لهما تسعة وتسعون اسماً والفارق بينهما نقطة فقط. حاجيتك! ما هي هذه الكلمة؟ أما عن الذبابة والقاضي فكنت أعرف الكثير مثلها آنذاك. وقد كان هو ينتحب ويخاف! الظلام عقوبة من الله، يخاف فيطلب الغفران والمغفرة، والخمر والسهر قد أرهقا وزجاج عقله يتضرب. يهذي. كنا أنا وأمي نبقى حوله نحاول أن نطمئنه، نبكي معه، يطلب علبة الويسكي المفلطحه ويضعها

نصب عينيه على مائدة صغيرة بالقرب من فراشه ثم ينام.  
يطلع الصباح علينا ونحن قوسان مفتوحان بين شخير الابن  
الضال وقعقة حديد الحافلة الأولى التي كانت تموج ستار  
الكتان المسدل على النافذة فتنهضنا من سباتنا، والمطر  
يهطل في الخارج. وتبدأ واجهات العمارات والسطوح  
المطلية بمعدن الخاراصين والمبللة بماء الفيض في عملية  
بطيئة (المرث؟ الامترات!) للبروز وسط المحيط الحليبي  
والضوء الرمادي الذي لا يمكن تعينه بدقة، فأحدس والنوم  
يجرفني داخل دوامة مريبة، أن النهار سوف يبقى على هذه  
الحال، شحيح اللمعان، شاحباً غير قادر على التطور أكثر  
مما فعل حتى يسقط الثلج ويغسل السماء من نجارها  
والأرض والأشجار والحي والأيام والعمارات من بخارها؛  
ويقطن الضوء نهائياً في حالة ما بين النهار والظلمات على  
حدود الغموض والكثافة، فلا يتغير أبداً والمدينة تعجز هي  
أيضاً عن تحطيم هذا الحزام المدلهم، فتقاطر وكأنها قطعة  
من الاسفنج تطلق ماءها المتكاثر المتدفق، فلا نعرف أين  
يذهب وقد أصبحت الأرض المتشعبة لا تقدر على  
امتصاصه فتترك إذاك الحجرة وقد تراكم هواؤها طبقات  
طبقات تحت تأثير خميرة النيذ والكحول وتعفن جوها منذ  
ساعات. و:التعطن! (وكنت أنتَ عندما كانت روحك  
تفيض وتقطر بزخامة ودسامة في قصرية الأيام الملتوية،  
كنت لا تفهم ما أقوله أو تتصنع البلاهة وتؤكد أنك لا  
تفهم كلامي، تريدني بجانبك وكانت عنجهيتك القديمة

تتصاعد إلى شفتيك وتقفل عليها بقفل الصرامة والصرمود  
فتحدثني عن زوجتك وعن هذا التناقض الذي يمزقك طرفاً  
طرفاً: واحداً لي وواحداً لها! فأنصرف أنا، وكنت تبكي  
وأسمعك تنتحب وأنا وراء الباب، (الباب أم، بالأحرى،  
بوابة الضيعة) عبارة عن غشاية كريمة مرصعة بنسيج مصلب،  
قطيفي المخمل أو صوفي - من يدري! - متعرج القطبات،  
مقوى بألواح من الخشب المعاكس المتألف من شرائح  
متضاربة الاتجاه، تربط الباب بأشرطة مضمفورة متقابلة  
الخيوط وقد كان مزركشاً بصفائح حديدية الخ... وأنا  
واقفة وراء داركم العتيق في أقدم موضع من القرية...

وهذا: كان القط يستنشق ظله ويتوارك داخل ساحة كأنها راحت تتقلص تحت وطأة الحر كما كان يتجنب الاقتراب من الجدران وقد اجتاحتها آلاف الرقاكات والشقيقات التي لا يراها أحد من كثرة رهاقتها رغم تكاثرها واندماجها داخل المادة نفسها. حتى إذا ما تصاعدت الشمس إلى أوجها لا يتمكن أحد من الوقوف في وسط الفناء خشية أن يحترق جلده وسط روائح النعناع اليابس ومعجون الطماطم الجاف وقد بدأ يتعطن في أطباقه الخشبية والقديد المفلفل المنشور على حبال الغسيل المتراكمة شاقولياً فتسدي صبغة غريبة على الفضاء المشرج من شدة القيظ. ولذا فلا يكف الضيون الماكر عن محاولاته تخلصاً من ظله الذي راح يلاحقه منذ أن بلغت الشمس سمتها. كانت هذه هي طبيعته، فلا يلفت إنتباه أحد ولا حتى تعاطف الشيخ الهرم الذي جلس متربعا في صدارة الفناء، لا يبالي بما يحيط به ولا يظهر في عينه المصابة بالرطوبة شيئاً وما كانت الشمس لتبقى في مكانها مما حمل القط على الانزعاج فحار في

أمرها أمام هذه الظاهرة الغربية قابلاً في مكانه، متكاسلاً  
 متمططاً، متثائباً، ولم يفهم أحد في الدار شيئاً عما انتاب  
 هذا القط المجنون وهو يحاول عض ذيله فيما كان الشيخ  
 الجالس على فروة خروف قد راح يترقب وقت صلاة  
 الظهر. فلا تغير الحرارة من عاداتها شيئاً. وما أن تدرك  
 ضرورتها حتى تتصاعد الروائح في وشائج مختلفة. كان  
 الجد يتمتم مفكراً: «ان العام الماضي كان عاماً رهيباً إذ  
 سلط الله الجراد على قريتنا». لقد أكل كل الصوف الذي  
 كان يجف في وسط الدار حتى ذعر الأطفال، أما خالتي  
 مليكة فقد خافت والتجأت إلى غرفتها حيث كانت تسمع  
 الجراد يقضم كل شيء على وتيرة غريبة: غز.. غز.. غز.  
 أما الجد فكان يتذكر آفات وكوارث أخرى كانت قد  
 أنقضت على القرية وقد كانت أضرم من الغزو الجرادي  
 فتكاً. كان الشيخ لا يكف عن التسبيح ولا يجلس إلا في  
 الشمس قائلاً إن الجراد يمثل الآفة الثامنة فقط: وذلك  
 تماشياً مع ما تركه الأسلاف وقد فطروا على جانب كبير  
 من الحكمة والمعرفة والتجربة.

(اثنتا عشرة آفة بالضبط يصعب إحصاؤها وعدّها واحدة  
 واحدة) كان الشيخ لا ينفك يتذكر ذلك العام الذي أخذ  
 الأطفال فيه يضعون الغرابل على الجراد المتهاطل فيقبضون  
 عليها في أفخاخ من اختراعهم. وكان ظل أسلاك الغرابل  
 المتداخلة المتشابكة ينعكس على وجوه الأولاد فكانت تبدو  
 وكأنها طبعت بها نهائياً، مثلما يطبع الفراش المزخرف

حصيرته على وجه من نام عليها أثناء القيلولة. كانت أمي تهزأ بعنتريات القط وبهلوانياته وعبثاً كانت تحاول استقطاب اهتمامه وتأخذه في حضنها وبين الظل المدرار والشمس التي تغلي في السماء غلياناً كانت هناك مناطق متوسطة يعرف الضيون الماكر استيطانها مؤقتاً ريثما تغيب الشمس وراء إحدى شجرات التوت في الحديقة، صوب الغرب، أو ريثما تنتهي العمة العجوز من تبريد الغرفة الداخلية بصفق عشرات الأسطل من الماء البارد الذي أخرجته من البئر المشؤوم (حيث اغتصم.. لكن لا طائل من نبش الذكريات الرهيبة وطحنها.. بل كانت تغني... ) المحاط بطحلب ناعم أخضر بالقرب من حاشيته وبالعشب اللينع بالقرب من أشجاره المثمرة، كانت العمة فاطمة متصعصعة، متعصبة لكل ما يمس شؤون المنزل وترتيبه وتنظيفه ولكل ما يمس العفن من قريب أو من بعيد. لا ترحم ولا تشفق ولا تغير من رأيها في أي شيء قط. وكأن سلطانها لا يكفيها فلا تتورع من منع الأطفال من وطء المنزل بعد غسله بمياه باردة متدفقة تجف في أقل من لمحة البصر لحدة الحر وشدة القيظ. وكانت مهلوسة إلى حد يثير الاستغراب فلا يجرؤ أحد على تحديها أو عصيانها بما فيهم القطط المدللة التي تقضي سحابة نهارها في تسلق الأشجار للمكوث فيها متربصة متأهبة على الانقضاض بغتة على العصافير المسكينة. أما الكهل الضرير فما كان يبالي بهذه التفاهات. كان يحب أكل الفول والمكوث تحت الشمس ساعات

طويلة لا يتحرك إلا إذا حان وقت الضوء فيختفي إذاك وراء التوتة الكبيرة ويتوضأ بعيداً عن أنظار النسوة وقد تعودن ممازحته على افراطه في الاحتشام وعلاقته المتقلبة مع زوجته، تلك الجدة الوعرة المزاج والتي كانت توفيت فتركت صورة تخلد ساعة احتضارها كي تدخل الرعب فينا وتقدم لنا مثلاً عالياً في الشجاعة والنبل، كان لا بد لنا نحن الأطفال من أن نقناد به ولما نعرف بعد من هو أبونا من كثرة غيابه وتغييبه، راسلاً البطاقة تلو الأخرى: (دلهي الجديدة. 12 - 11 - 1950. حسان) وكأنه يمشي في سكة ابن بطوطة وقد قرأ له الكثير (دخلت يوماً على أبي محمد يندكان المسوفي، الذي قدمنا في صحبته، فوجدته قاعداً على بساطه وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان، فقلت له: من هذه المرأة؟ فقال: هي زوجتي. فقلت: وما الرجل الذي معها وممنها؟ فقال: هو صاحبها. فقلت: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلدنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة، لا تهمة فيها، فعجبت من كلامه ومن رعونته. فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني عدة مرات، فلم أجبه على دعوته). (رحلة ابن بطوطة. ص: 678).

أما القط فقد كان يستمر في تحركه يلتوي وينط كالمسعود فيثن ويموء ويلحس أرضية الفناء المحرقة، فيستدير ويلف ويتشامخ وكأنه أصيب بمس من الجنون،

فتضحك أمي لهجره هذا ومرجه: «يا لك من قط أبله. تعال لعندي، هنا في الظل...» كانت أمي وهي جالسة في احدى زوايا البهو تعبق الجو بحسية جسدها الرائع المتدفقة في الفضاء وقد كانت الشمس قد أشعلت في عينيها حريقاً مهولاً مما زاد في لمعانها وهورها، خاصة وان شفيتها الحميمتين كان قد أصابهما ارتخاء لشدة الحر المفرط فاضفتا على وجهها مزيداً من الشبق والإثارة. وقد اكتظ سروالها القطني الفضفاض بأنوثتها الرائعة كما اكتظ صدريتها بنهديها الثاجيين العابقين بالرائحة العنبرية. كانت تفهقه وتداعب القط وهو يدور في مدار الشمس ويدور: «تعال هنا حيث الظل. والا احترقت قوائمك يا أبله.. هيا تعال...!» كما كانت في نفس الوقت تلف وتدور حول الجد الضرير وهو جائم لا يتحرك فيبقى جالساً متربعا مكانه على فروة الخروف فلا ينهض إلا لقضاء صلواته الست. لقد كان الشيخ قطبها الأساسي فلا تكف عن الاعتناء به ومداعبته في علاقته الغرامية الصاخبة مع زوجته القمطريرة السيئة المزاج والتي تحمل على رأسها ليلاً نهاراً تصفيفة صلبة كانت تزيد من شراستها وكبريائها وكانت أمي تتذكر عام الجراد وكيف أكل الصوف والكسكسي ومعجون الطماطم واللحم المقدد، فتخزن. أي عام حدث ذلك؟ لم تعد تميز بين الأعوام جيداً ولا حتى الأيام. لا بد أن غزوة الجراد المشهودة كانت قد حدثت في أواخر الصيف وأوائل الخريف. أضغات أحلام وتعريضات كوايبس. كل الفصول



تتشابه وتختلط في ذهنها لكن سنة الجراد كانت بمثابة العينة... لن تنساها. قال الكهل الأعمى: «آفة الجراد هي القرع الثامن حسب طقوس الأسلاف...» لن تنسى تلك السنة التي هاج الأطفال فيها فراحوا يتراكمون وراء الحشرات بدون ما جدوى. أما أبي فما كان ليضطرب ولا يتحرك له ساكن. كانت ضيعاته وأراضيه الخصبة مضمونة ومأمونة ضد الجراد والجفاف والبرد الخ... عندما كان يريد الكهل النهوض كان يستنجد بها... «الله! بآية ساعديني على الوقوف... لقد حان وقت صلاة العصر...» فما ان تنتهي من مساعدة الجد الضريع حتى يأخذ القط في ملاحقتها والجري وراءها ومناوشتها وعض تلابيب تنوراتها. فكانت هي تمضي، لا تأبه لاستفزازات القط اللعوب بل كانت تأخذ بيد الشيخ فتقوده نحو البركة كي يتوضأ مستتراً وراء التوتة العتيقة، فيشعر عندئذ بوخزة الندم وتبكيك الضمير. كان عليه أن يتدخل في القضية. عشرون سنة مضت. ثم يعود إلى جلوسه تحت أشعة الشمس فتلتهب جفونه المحروقة وتلين شعر لحيته. كان على علم بالمصيبة. لم يغفر أبداً لابنه هذه الجريمة النكراء. لكنه أصبح عاجزاً وضرباً... واغتمم ابنه الفرصة واستولى على أملاكه. لم يحتج الكهل. تركه وشأنه وقد انهكته الشيخوخة وشعر أن جسمه قد بدأ بالفسخ والتفكك.

كانت الحياة تعود إلى قلب أمي كلما ترك الوالد القرية وسافر إلى العاصمة أو إلى الخارج (مراكش. 12 - 3 -

1941 حسان) لقضاء شؤونه التجارية؛ فتخلق هي..  
أمي.. حركة وضجة من حوالها ولا تتوقف عن الضحك  
واللعب واستشارة الأطفال ومداعبة الكهل واستفزاز القط فلا  
تكلّ ولا تملّ أما الجد فقد كان يترقب تساقط الغسق وأذان  
المغرب ليجن جنونه ويبتهل ويصلي الركعات الإضافية  
ويدخل في المتاهات التصوفية (علمني الكثير من كتب ابن  
عربي وكان يحفظ له الأسفار بأكملها) مدة طويلة من  
الزمن، فيما كانت القطط تقبع في أعلى الأشجار تنصب  
الكمان الغادرة للعصافير المبهورة، وفيما كانت العمه  
العجوز تعد أكلة العشاء برفقة خالتي مليكة التي كانت تترك  
المطبخ من حين لآخر وتصعد إلى غرفتها حيث كانت  
تستسلم إلى البكاء من فرط ما كانت تعاني من مقت وكبت  
وإذلال وقهر. ثم تعود لاستئناف شغلها دون أن يفيق أحد  
لصعودها ونزولها. كانت أمي في تلك الساعة تحرس  
الأطفال وتسليهم في وسط الحديقة حتى حلول الليل فتلجأ  
معهم إلى داخل المنزل حيث يصل مسامع الجميع صهي  
الكناريات وتغريدها فلا يجرؤ أحد الأطفال على الخروج  
مرة ثانية لاستمتاع لغناء العصافير مخافة السقوط في  
الحوض العميق حيث يسبح الحوت بشتى أشكاله وألوانه  
على وتيرة سرمدية، مستديرة في بهجة وابتهاج، كانت  
تسمط أمي بعض الأيام وتفقد حيويتها وتقرب خلصة من  
حاشية البئر وتأخذ في الدوران جاهمة الوجه، مثلجة  
الأطراف، خاصة بعد أن تزوج عليها أبي للمرة الأولى..

وما كان من الشمس إلا أن راحت تزيد الأمور والنزوات احتداداً وضراوة وقد حل فصل الخريف وحلت معه جحافل الذباب التي أخذت تجلف عروق الصغار وتوتر أعصاب الكبار. ولم تعد الخدمات يعرفن كيف يتصرفن وغرقت الدار في تيار من الفوضى الجامحة فلا يستطيع أحد أن ينام ولا يتحمل أهل المنزل ذلك الجو من السمط الرهيب المهيمن على الشخوص والطقوس. فاغتنمت الهرم الماكرة الفرصة وراحت تتصيد العصافير بشكل جنوني، تلتقطها في الحديقة فتبتلعها وتعود وشواربها ملطخة بالدم البريء وتلحسها نكاية بالحاضرين وبعنجهية ساخرة أمام الملاء أجمعين لا تجزع من العقاب ولا تخاف، وكان أن تفاقم قلق أمي مع ازدياد التذبذب والتشوش وما عتم ان كسا القلق والاسوداد سحنتها. فراحت لأموها تتهامل وبمظهرها تتهاثر. فلم تعد تعير الدرر والأنغار الضاجة في أقصائها اهتماماً والتي كانت اعتادت أمي على ترويضها وإطعامها وتنظيف ديارها المنحوتة، المزخرقة. أمي التي كانت في أمس تستفيق مبكراً لتعلمها الغناء والتغريد. أمي التي عودتنا مثل هذه الشطحات اللطيفة. أمي التي كنت وأنا صغير وأنا أتجسس عليها فأراها في تلاففها والطيور الملونة المدللة، تستيقظها بعطفها ولطفها المعهود وبمهارتها المأثورة على ما كنت عليه الطيور من عبوس في مظهرها وانتفاش في ريشها - معبرة عن غضبتها - وحدة في مناقيرها وهي على استعداد لتنقيير يدي أمي التي كانت

تعمل على التهدة من روعها وإذا بالطيور تتنافس تغريداً وتبليلاً فتملاً بزقزقتها الأرجاء وتشنف بسحرها الآذان فيرقص المنزل الهادي الغارق في سباته العميق طرباً وتهليلاً فيما كان أزيز الشرب جراته يخرق الفجر الحليبي ولم يمر على حلول الصيف سوى أيام قلائل وقد تلفلف في ورق متعريس مزخرف بألوانه البنفسجية الرائعة. وكأنه (الجد الأعمى وهو جدي أنا) الذي كان يسبب هذا الأزيز وقد نهض للوضوء قبل الضوء وراح يستخرج الماء من البئر العتيق، البئر الذي كانت هي قد... كانت أمي تروض الدّرر والأنغار، وتعلمها الموسيقى بسمفونية الصباح وتعاتبها إذا ما راحت تغالي في بنها أمواجاً من الضجيج في الأثير في ساعة الاستيقاظ المبكر، توبخها بصوتها الخافت فيه من الرخامة بحيث أن القطط المتناومة في زوايا الدار لا تسمعها والتي تنام ملء أجفانها بعد قضائها النهار كله في مطاردة العصافير المتتنظطة والفتك بها «يا للسفاحة» هنا في الحديقة وهناك في مخزن بائع الزيت القريب، في المخزن الملتصق بجدار البستان، هذا المخزن الذي هو مأوى الفئران السمينة، يعجّ بالجرذان المشعرة الرمادية المتثاقلة مع بطونها المتورمة الملساء، بما فيها الإناث الحبلى التي كانت تكنس الأرض بأظافرهما وضروعها الرهيفة الوردية المقززة. فكثيراً ما كنا نشاهد المعارك الضارية الطاحنة التي كانت تنشب بين القطط والفئران، قطط تنازل معشر الفئران والجرذان الضخمة التي كانت

تغذى من الزيت الفاخر، من زيت الزيتون المسمن، فكنا  
نقف على سطحية الدار، نتكىء على الدرايزين وقد سوس  
الزمن والندى خشبه. كنا نقف إذن متفرجين، متلهفين،  
فتخاف النسوة علينا، يخشين انهيار الحباك القديمة تحت  
أقدامنا، نتفرج ونحن على وشك الاغماء علينا وفقدان  
الوعي لمشاهدتنا هذا الاقتتال الدموي، الدامي، المميت،  
بين القطط والجرذان السمينة ذات الأعين الضيقة اللعينة  
وسماتها الخيثة، كنا نتحيز لقططنا نشجعها بأصواتنا وبرمينا  
الجرذان بالحجارة بدون ما جدوى فقد كانت القواضم  
تتغلب على الفرو، تفترسها تحت أعيننا، فنبقى هكذا  
محدقين بأبصار باهتة مشدوهة، وقد أغرورقت بدموع الغيظ  
وعبرات الأسى فإذا بأطرافنا من حيث لا ندري ترتجف  
وقلوبنا ترهف فيسيطر الغثيان على صدورنا أمام هذه  
المجزرة الشنعاء حتى إذا ما انقلبت المعركة فصادف أن  
تغلب أحد الهررة على يربوع ضخم يهزم، رحنا نملأ الجو  
تصفيقاً وهتافاً فتأتي النسوة ويأمرن الضيون المنتصر بالعودة  
إلى الحديقة فينصاع إلى الأوامر وينط متبخترأ، مظفرأ،  
ناصرأ.

وهي: أما عن فترة المراهقة، فماذا؟

وأنا: كان هذا:

كنت أروح اكتسح المدينة وأمسحها ذهاباً وإياباً،  
منهوكأ، محمومأ، مهمومأ، مغمومأ، وتوغل القنوط  
والبغضاء والحققد في أحشائي، رحنت باحثأ عن الحبيبة  
ملاحقأ إياها، راكضأ وراءها، رحنت وقد نمت في ذقني

لحية لم أحلقها لعدة أيام خلت وقد تسربلت بثياب غير لائقة وقذرة، رحت وقد نقصني النوم وتحت كابوس الأرق الشاحب، رحت باحثاً عن الحبيبة وكانت قد اختفت وراء نافذتها تحمل في يديها مشايتها وهي على أهبة الاستعداد للانقضاض على جسمي الهزيل كما لو كنت حشرة أم الأربع والأربعين، وهي متأهبة للصرخ فزعاً من تفرسي فيها بعين مبالغ في حولها نكاية فيها في سبيل اسقاطها بين ذراعي. فقد كان عليّ، وهذا شرط من شروط اللعبة، أن أتربحها وهي راجعة من الحمام العمومي فأتبع خطاها متشهماً آثارها في عقب الرياحين والمسك والعنبر بحيث أنه كان بإمكانني أن أسير في سياجها المعطر مغمضاً العينين فأصل إلى قعر عرينها حيث كان الغول أبوها يتربح عودتها من الحمام وعيناه تحدقان في عقارب الساعة الجيبية. تحديقاً فيه ما فيه من شراسة وحقد وبغضاء لشدة ما كان يقرع عليها من زحمة المارة والمارقين فتتقاذفها أذرع الذكور ذات الشعر الكثيف لا غرض لهم سوى التحويم ليلاً نهاراً في أرجاء المدينة يلغون ويدورون حول سعادة الآخرين وهنائهم وترفهم، مثلهم مثل الذباب (كان معلمي سي الزغواني مولعاً بالجاحظ، فيردد علينا قصة الذبابة والقاضي، ويمثل أمامنا أقساطاً منها...) المتزاحم حول نقطة من القهوة المشبعة سكرًا، يعكفون على التهمع لأتفه الأمور، ذوي العواطف الجياشة والشبقية اللامحدودة يحملون في جيوبهم المبعجة كتب المتنبي والمناسير السرية؛ ذوي الأذان المكتظة بصوت أم كلثوم: كوكب الأقطار

المشرقية وأفيون الشعوب العربية وهي أخطر ما وُجد بالنسبة إلى شباب المدينة ذوي الأحذية المهترئة من كثرة جولها وصولها على أسفلت الشارع الرئيسي، يتنقلون من رصيف إلى رصيف في هرج ومرج دائمين من فرط ما يعانون من أعباء الحيرة والعزلة والارتباك. وقد كان يصطحبني رفيق لا يفارقني كان كثيب الوجه أبكم اللسان ممشوق القد يكاد رأسه لطول قامته ينطح السحب، يمشي بجانبني، يسايرني شاهراً ربطة عنق عريضة ذات ألوان صارخة ويبدو وكأنه فخور بها وكان قد استلفها من أحد أصدقائه هو أقل منه فاقة وقد كنت على علم بذلك، فلا يتركني ولو لحظة واحدة، إذ أنه كان على علم بأنني تقاضيت نهارها الأجرة الشهرية كمساعد محاسب مؤقت في أحد الشركات العقارية وذلك أثناء فصل الصيف، وبمساعدة العم اسماعيل... ومما أن أضع في يده بضع أوراق نقدية حتى يتغير مزاجه على ما كان يتظاهر به في أول الأمر من رفض مما يحملني على الالحاح عليه، فيغلق قبضته على الأوراق فجأة متظاهراً بالتلعثم واحمرار الوجه وما هي إلا دقائق حتى ينطق الرجل قائلاً: (إني مدين لك بكذا وكذا...) ثم ينطلق كالصاروخ شاكراً، باركاً، مثرثراً، مسترجعاً لتوه فصاحته وفضاظته، فأرتاح أنه سيتغيب عن وجهي أسابيع معدودة حتى يعود إلي بالضبط في اليوم الذي سأتقاضى فيه مرتبي. فيزعم مدعياً أنه سوف يقدم هذا المبلغ إلى أمه المسكينة وهي تحزن لأنه يتخبط في برائن البطالة والفقر. وقد كنت على علم بأنه سوف يغزو أول حال تعترض

طريقه (أو أول دكان لبيع الزهور، فيشتري باقة يهديها إلى حديثة عشيقته عهداً). وهو في اتجاه ونحو المدينة القديمة فيبدد ما أعطيته في ساعات معدودة قلائل شارباً ثملاً، وسط روائح النشارة والسمك المقلي اللذيذ فيأكل منه ويبالغ عمداً فيبرر بالتالي عطشه ومقارعة الخمر، فلا ينتهي إلا عند الصباح تحيط به زمرة من المدمنين، غير مبالين بقشور الحلازن التي كانت تترقع تحت أقدامهم غير أبهين بالضجة المسيطرة على المكان وحتى لصوت المطربة الموهوبة وقد راحت تغرد نائحة باكية على حبيب العمر فيتناثر صوتها مجموعة من اللآلي تتساقط على رؤوسهم وتنخر قلوبهم المحرومة وقد لعب الخمر في رؤوسهم وإذا بهم يتشاجرون وتتكاثر استيهاماتهم ويدب الانشقاق في صفوفهم وتتعطن نكهة أفواههم فتبرز أوشامهم على وجه بشراتهم وتتصدع أخوتهم المؤلمة الحساسة فيما رائحة البسباس المبلول راحت تعبق الجو وقد قص ارباً ارباً ووضع في صحون صغيرة ملوثة ومشققة... أما صديقي فقد كان ضجرني بإصراره على اغرائي مكرراً: «سوف أعطيها أمي، فهي في حاجة ملحة إليها، شكراً يا رشيد: لقد كادت تموت جوعاً...» وقد كنت أعلم علم اليقين ما سوف يكون مصير تلك الأوراق المعدودة وكيف يستعملها في قضاء ليلته وهو يضاجع جكلين زوجة الضابط الفرنسي، أو يشرب ويشمل فيلح على رفاقه بدفع ما يشربه ندماءه «هذه نوبتي... دالتي...» ويقسم حتى أن صاحب الحانة كان يسجل على حسابه ما لا يمكنه دفعه لتوه إذ اعتاد عليه



أن يقدم الورقة تلو الأخرى بل ويزيد من سخائه فيهددهم  
 صحناً ملأناً مرقاً حاراً يسبح فيه بعض الحلازن حتى  
 يساعدهم كل ذاك على تجرع عرق الصبير الخام، عرق  
 يلهب الاحشاء التهاباً... ثم تعيد كوكب الشرق الكرة  
 وتطحن الشجن إلى حد لا يطاق فتذرف الدموع مدارراً  
 على حبها الضائع ويفجر القانون الجو برقاقاته المستلقطة  
 عبر هذه العريسة الصوتية المهولة، ذهاباً وإياباً في أخذ ورد  
 متواصلين ثم تعاود نفس المقطع من جديد فتذوب القلوب  
 لمحبي الشعر المجنون (أراك عصي الدمع، شيمتك  
 الصبر...) فتترنح الحانة وتدور دورتها ونقرات العود  
 تدغدغ أذان السكارى الرثعين المبهورين المنصتين رغم ما  
 كان في الأسطوانة القديمة من خشخشة تقزز آذانهم المولعة  
 بالموسيقى ورغم السكر المفرط والنعاس الحزاز وجراد  
 البحر المبتلع ورداءة مظهر الحانة وجوها الدبق: (ميزريه  
 كحلة يا خويه... هذه رشوة ولا بلاش). لا يكف الخمار  
 عن التذمر رافعاً يديه إلى السماء. أجل إلى هذه الحانة!  
 إلى هناك سيذهب ريفي... إلى هذه الحانة بعينها (أو إلى  
 منزل آخر عشيقاته الكثيرات، نظراً لجمال عينيه)، ويحاول  
 إخفاء ما يشعر به من غبطة وفرحة أمام هذه الأوراق النقدية  
 التي قدمتها له ظناً منه أن الأمر يتعلق بمحبة له وشغف به  
 في حين أنني لم أفعل ما فعلت سوى للتخلص من هذه  
 العلقة التي انقضت عليّ من السماء في وقت غير مناسب  
 وقد أخذ السأم والتمرد مني مأخذهما فرحت أجوب المدينة  
 ماسحاً شوارعها وقد قضم الحب قلبي فيما كان الواقفون

يحملقون بأعينهم الخسيسة حول سعادة الآخرين ونساء الآخرين. لا شك في أنه مائت عما قريب في إحدى حانات المدينة حيث يترك كل مرة قطعة من كبده المتفتت المتقرح وقد تأكله الجوع والخمر والصقيع (كان ينام عادة على مقعد في الحديقة العمومية وهو يخجل أن تراه أمه التقية، الورعة وهو غارق في سكره وثموله) أو نطفة من منيه التي يضعها في أرحام العشيقات، وقد احترف عدة حرف منذ أن طرد من المعهد الإسلامي حيث كان يزاوّل التعليم. لا يمكث فيها أكثر من بضعة أسابيع ثم يغادرها دون أن يتقاضى أجرته كما كان ينصرف في بعض الأحيان من منصب عمله حاملاً معه الدرّج الذي يخزن فيه صاحب الحانوت أمواله ويمضي فيبدها في ماخور مشهور قد أطلق عليه اسم طنان، رنان: «القمر»، عندما تكسد سوقه الوجدية وتهمله العشيقات نكلة فيه وانتقاماً لأنه لا يعرف للحب من معنى، ما عدا وهو يسمع أغاني أم كلثوم (أراك عصي الدمع) فيبكي لها ويتأثر بها، أو أغاني هنا راشد (عيني بترف...) لقد زاوّل كل الأعمال حتى أدى به الأمر وهو الملحد المعادي للدين على الاضطلاع بمسؤولية المؤذن! في إحدى مساجد المدينة. ومؤذن ويا له من مؤذن. ضحك منه أصحابه وهو متنكر في لباس تقليدي متقلداً جبة فضفاضة وعمامة بيضاء وبلغة صفراء. فأصبح يتجنب زيارة الحي حيث ذاع صيته لفرط ما كان عليه من خجل وعار.. كان يجاحف الجدران مخفياً وراء نظارات سوداء، متنكراً أمام أصدقائه حتى إذا ما اكتشفه أحدهم

راح يبرر موقفه قائلاً أنه إنما يستغل النظام الديني ويتجسس على الأئمة ورجال الدين رغم هزلة الأجرة وقد أقر العزم أن يحول المسجد حيث يؤذن وينام فيه إلى حانة بعد انصراف مصلي صلاة العشاء. على أنه لم يفعل شيئاً مما قاله. وما لبث ما طرده الإمام بعد بضعة أسابيع لأنه سمع أن مؤذنه كان قد انخرط في الحزب الشيوعي. فخلع عنه الثوب الديني وراح ينتقد الدين ويكفر بالأئمة ويشتمهم ويسب الرسل والأرباب حتى قبضت عليه الشرطة (شرطة الاستعمار) بتهمة الالحاد ومناوئة الإسلام الحنيف، وذلك تحريضاً من بعض أذبالها الأهليين المتعاملين معها. ثم يطلق سراحه فيعيد الكرة، فيعاد إلى الحبس، فلا يعرف للتوبة ولا للندامة سبيلاً. كان كلما زج به في السجن يضرب ضرباً مبرحاً فيعذب تعذيباً وتحلق جمجمته فيعقب، عند خروجه من السجن، على الملأ: «ميزرية يا الإخوة.. يحرق دينهم ومشايخهم. ميزرية يا خوان.» إن كلامه هذا ما كان يغري المقربين منه قط وخاصة أنا، رغم أنه - كمال - كثيراً ما كان يساعدي عندما أشرع في البحث عن أخي الأكبر داخل حانات المدينة التي كان يعرفها واحدة واحدة...

وظلت الشمس تصعد، صغيرة، باهتة، قرصاً وردياً  
مجعداً فاهاً تجعده بعض الخطوط المخضوضرة الخفيفة إلى  
حد ما. وإذا بشعاعها الضئيل يتوزع على سيلان التوتة  
المتهمج. قد شكله طلوع الشمس المتبعثر على ذرات  
الضباب الصيفي الخفيف. ورحت أفكر: أقوم؟ ألا أقوم؟  
وأخيراً تهرباً من دفء جسمها أتسحب من الفراش. فأتجه  
نحو النافذة متجنباً الأوراق المستطيلة الشكل، الخليوزية  
المعدن، الدهماء اللون، المعلقة على أحبال الغسيل التي  
شدت في فضاء الغرفة تخترقها، متشابكة، متراكبة،  
متضاربة، متداخلة، ممتدة من حائط إلى آخر، وفي  
الجهات الأربع، لتجف وتتحول تدريجياً إلى صور تمثل  
الشخص والأماكن والساحات والشوارع التي رآها أبي في  
المدن التي زارها. وسرعان ما أشحت بوجهي عنها.  
وجسم ماريا الرائع قد تهاطل على الفراش وتوغل النوم  
فيها توغلاً، وكأنه تسرب إلى كل جزء من أجزاء لحمها  
وإلى كل مسام من مسام بشرتها. جسمها يتهاطل على

الفرش بأحجامه وأشكاله وألوانه ورخواته الأساسية. ومن جديد أتحول إلى الشمس أستقبلها. وأفتح النافذة بحذر، فلا تأزّ أزيزها. فتهطل التوبة على وجهي هطيلاً ولا تشرئب بعض أغصانها إلى داخل الغرفة فتخرق الزهرية الحافلة أزهاراً صفراء مفعقة هذا الفضاء الداخلي حيث ما زالت بقايا العتمة وبعض رواسبها تتزاحم، تزخر الجو فتملاه بشكل غوغائي بلا انتظام. ولا تزال (الشمس)، فاهية، فاترة. كانت باردة. ويرتجف بدني كالمصراد. وأنا ملي تنز دفتاً وفتوراً (كان المعلم سي زغواني يحكي عن حرف الجرم فيشبهه بأذن الأرنب وأرنب الأنف أو ب... لم يكن المعلم يحكي... لا أدري بالضبط. وأسرح بعقلي هناك خارج القسم، مشغول البال بتلك البطاقات البريدية وأسماء الأماكن التي جمعت منها العشرات، بألوانها وصورها وطوابعها البريدية وأسماء الأماكن التي كانت تمثلها: القاهرة، دلهي الجديدة، اسطنبول، دمشق، طشقنت، كولومبو، اصفهان، بعلبك، بوخارة، شكاقوا، بارق، نيويورك،... برهة من الزمن، وأفهم أنه علي أن أمد أصابعي الغضة المرتجفة. فيتساقط على أناملي المجموعة بشكل هرم، عود الطرفه منهماً كالمطر الثقيل المتهاطل (كان جسدها يملأ الفرش بأكمله، وكأنه يبغى الخروج من إطاره، فيسعى أن يفيض ويتبعثر في الفضاء، فيملأ الغرفة، فالمنزل، فالضيعة، فالقرية، فالبلاد، المعمورة، فما وراء المعمورة. كانت أنوثتها...).

وصارت الأنامل حمراء، متبججة، منتفشة، منفوخة، منفوشة  
كالمهبل المدعوك. كالطائر المتشعث، وإذا ألحسها  
بلساني. قال سي زغواني: هات الاخرة، قدمتها. وتلسعني  
العصا لسعاً وتكسر أحد أظفري... ويسيل الدم. قلت:  
ليضرب. عليه أن يترك الأدوات الرهيبة المرعبة (المقص،  
القطن، الكحول الطبية) في مكانها، حيث هي، داخل  
الخزانة. أنفخ على أصابعي العشر بزفرات صعدت من  
أعماق أنفاسي... وما كانت الشمس بحامية. سمعت  
خفيف الأوراق ونقرزة الطيور المتغاضبة وهي في عملية  
الاستيقاظ. ابتسمت لطقوسها هذه الغربية. مثل مريم -  
ماريا إذا ما استفاقت... لا عذوبة ولا حنان ولا حب ولا  
عشق... وتبقى هكذا ما يناهز الساعة وكأنها تسترجع ليس  
حيويتها فحسب، بل وحياتها نفسها. مرة أخرى، كانت  
أشعتها (الشمس) تتبعثر في الضباب قبيل تلك المادة  
الخضراء التي يكونها نسيج التوتة المتكالبة وكأنها تضخ ما  
في الجو من هواء ومن ضوء، وكأنني بها تتشرب الأشياء  
والألوان على إختلاف أنواعها، بما فيه: الزهرية، جسم  
ماريا - مريم، أوراق المتكدسة، وبجنبها الورقة التي كتبت  
عليها «أحبك» بمياها (مدادها، حبرها، صمغها،؟).  
وراحت العصافير تنتظم على شكل مشكاة وخرمشت بزغبا  
وريشها ذاك الجدار المقابل الأخضر العتيق القرمزي اللون  
المغسول بندى الليلة المنصرمة. وتحوم اللعنة في رأسي.  
وتنبثق الكفرة الصباحية الأولى... (رب اليهودية هذه.

وربي أنا. مالي وكل هذا؟ من أين بالأوراق الرسمية لتزويج هذين الشخصين؟ من أين لي أن آتي باعتراف شرعي وشرعي يبرهن عن أنها: (هي اليهودية المسكينة) قد اعتنقت الإسلام الحنيف... الحنيف... لا، لم أقل شيئاً... أبعثر كلماتي في جسدها، أحشرها هناك فلا أوقظ العاشقة، وهي: لا مشكلة قط. إنك تعرف كل الناس في العاصمة... ثم عليك بالرشوة... شوف واحد موظف قَدَم له ما يتيسر، يعطك ما حبيت... بسيطة... لا تخف. سوف ندفنها - إذا ما ماتت - في مقبرة إسلامية وسوف لا يعلم ولداها عن هذا الموضوع شيئاً ولا عن غدر أبيك... وتعرف ليش ما تزوجهاش؟ لأنه يكره اليهود... عنصري... الأب... أقول لك الرجل عنصري... متعصب الراجل... ناكها مرة ثم ثانية، من الأول كان عارف أنو ما يتزوجهاش أبداً... وأنا يأنبني ضميري: الحق معاها. كان يسمي كل أولاده - باستثناء شجرة الدر - (كيابل، أو: أولاد الهجالة). عندما يغضب علينا... ثم يأخذ في ضربنا بعصي غليظة ويخصني أنا بأقصى ما في معاملته من خشونة (يانذل. ياكبول. يا ابن الأرملة. يا ابن الهجالة) يضرب ويضرب وتتهاطل الضربات بعد الضربات على (كلمة التهاطل يجب محوها) حتى يأتي العمّ جلول... كان تاجراً وصاحب المخزن المقابل لمخزن الأب. العمّ جلول: هو كذلك: التصدير والاستيراد. كان قد فقد ساقه اليمنى بعد أن أصابها الإكال

(الغنغارينا) وعوضها بهيكل خشبي. يأتي وأسمع من بعيد وقع رجله الخشبية على الأرض فينجيني... ينقضني... ولكنه داهمته المنية قبل أن أدرك سن المراهقة، دخلت إلى المخزن صبيحة إحدى الأيام. وجدته مشنوقاً وجسمه يتدلى، ذهاباً وإياباً، يتدلى من فوق الخشبة الأفقية التي تسند سقف المخزن.. ولم أبلغ العاشرة بعد. كان وجهه نيلى اللون أما ساقه الخشبية فتتدحرج يمناً ويسرة. وإن أنسى فلن أنسى. كانت هذه مقارنتي الثانية مع الموت: في مواجهة مباشرة وجهاً لوجه. انتحر عم جلول بعد أن أفلس. ورفض أبي مساعدته.. علمت ذلك فيما بعد... قال له: «كيف يا رجل... صراحة، لا يمكن ذلك... أنت منافسي... لا يمكن إغائة المنافس...» ذكر حديثاً دينياً ملفقاً (أعلم أنه قادر على مثل هذه التركيبات والتلفيقات والسرقات وبارع فيها... كان - عند الحاجة - يخترع آيات قرآنية لا وجود لها البتة... أمام الجاهل طبعاً... ) وبعد اكتشاف تلك الجثة المعلقة، المتدحرجة، عشت عدة أشهر أعاني من الصدمة ما أعاني (كان قد وقع ذلك سنتين بعد حادثة الترامواي الذي هشم جسم العم فاطمة... وحتى الآن. أسمع من حين لآخر، صوت رجل العم جلول الخشبية تفرع حجر التبليط المفروش به الشارع الذي يفصل بين مخزن الأب ومخزن العم جلول... لكن هذا الهوس (قرع الاقدام) كان أخف من الهوس الآخر (نحنحة العم فاطمة) ومن كل ذكريات الأليمة الأخرى...



ظلت الشمس تصعد صغيرة. تلمستها قرب النافذة المفتوحة، يرتجف بدني ارتجاف البردان. وأتلمس الشمس من جديد. الحمراء، الزرقاء، الصفراء. والتي تتحرك ولا تتحرك. التفت إلى الورا. فتباغتني مريم بعريها من خلال الأزهار الصفراء (أمي لم تقل شيئاً... بل قالت: الدار دارها. وجه الخير... لم تقل شيئاً عن هذه الأجنبية كما أنها لم تنبس باسم زوجتي. كانت مع ابنتي، في إحدى المنازل على شاطئ البحر... تحب البحر... لكن أمي) المكتظة بها الزهرية التي جاء بها من براق:

«براق»

12 - 9 - 1939

«حسان»

حيث، لكن لماذا هذا الرقم؟ 12؟ الرجل متطير. يتفاعل العقلانية والإصلاح... كان قد آوى الشيخ ابن باديس واستضافه عدة مرات... لكنه: متعصب، متطير... الرواسب... بقايا ريفية لم تتخلّ عنه بعد... التفت، وإذا جسمها الرائع قد انبثق من خلال الزهرية: رأيتها تفت عينيها ببطء وعلى وجهها ذلك الحرض الصباحي الطفولي... مثلها مثل الطيور عند طلوع الفجر... منتفشة... عبوسة إلى حد ما. لا تهاجمني إلا في الضوء... قالت مرة: أنا لا أمارس الجنس في الظلام. أريد أن أرى وجهك وجسمك وأن أرى أيضاً جسمي

ووجهي وأيضاً تداخلنا وتشابكنا... رأيت يدها تتنقل عبر العتمة. عبر المادة الخضراء بظل أوراق التوتة وتشق يدها المسافة بين الجسد والجدران تقبض على فرجها بنعومة وبراعة كالطفلة الصغيرة. تطبق عليه كالكماشة. تداعبه. تلاعبه. تلامسه. وهي كذلك نصف نائمة نصف غائمة... في النوم. لكنها سرعان ما تفلته وأرفع رأسي حولها فأشعر كأن جسمها راح يتبخر في فضاء الفراش، وكأنها تتبخّر وتزيل عنها قطرات النوم الأخيرة ولا يبقى منها إلا رائحتها (جاويها وشبها ودادها) وكأنها تدور في دوار تغمره البهجة والزقزقة التي تجذبني بكيفية مغناطيسية نحو ملق النقاط ومفترق الطرق ومركز الكون كما يجلب الحباب في الليل، وأعني بها: القطط، ساعة الأصيل ونظرة الأم عند الزوابع وشبح الأشجار الطفولية (التوتات) والصبورات المدرسية (حميد يرمي بممحاته تحت جلباب المعلمة) وغرف النوم (غرف لطيف أخي تسامي غرفة ياسمينه أختي).

ثم هي تنهمك في ذكريات الأيام السالفة عندما كانت ورشة الخياطة في منزلنا مملوءة بالأخوات والمنسج الكبير يملأ الغرفة بشكله المربع الهائل وكأنه جمل ربض تحت مطر الأسلاك الملونة، والصدىقات والزبونات يتعرين لتجريب الألبسة الجديدة والفساتين الزفافية، والجو يغدق بالشبق والدعارة والتلمس والأنظار الخنوعة المتعطشة للأجسام والصدور المتنفخة والعانات المتورمة والأفخاذ المصقولة، والبنات في هرج ومرج وحيوية ونشاط وقهقهة

وهستيرية لذيدة وهن يتعاملن هكذا بهذه الطريقة وبصفة تلقائية، عن غير قصد ودون أي دراية، بأمر الجنس، لكن ورشة الخياطة وتكاثر الانثوات واختلاط وانتشار الروائح الجسدية وحكاية الأحاديث حول الزواج والرجال وحتمية اللمس وتصاعد الوشوشة، كل هذا المحيط وكل هذه التصرفات الصافية تعطي الحجرة حيث تتجمع الأخوات الكبريات (أمينة وكريمة ورحمة وسلوى وسعاد) مناخها الخاص ودورها الذاتي وشخصيتها الفريدة من نوعها، وعندما تتجراً إحدى الصغيرات على الدخول إليه، يطردها ويعاتبنها: «اخرجي، ماذا تريدن؟ ماذا تفعلين هنا؟ هذا ميدان الكبار، لا يهّمك ما نقول، انصرفي، انصرفي...».

ثم أنا:

لم تبك عمتي فاطمة يوم الجنازة. لم نر شيئاً وسمعنا أشياء كثيرة كانت تأتينا من الدار ومن غرفه ومن المطبخ ونحن الصغار (أنا ومهدي وسعيدة) نلعب تحت التوتة. علمت أنها لم تبك على موت أخي (عبدالله) البكر. علمت ذلك من فم فؤاد وقد هاجر إلى الخارج وتزوج وأنجب ولداً وبتناً واستبدل جواز سفره بجواز البلاد الذي يعيش فيها ولم يعد لو مرة لزيارتنا وقد نسي وجودنا ونحن نخفي الأمر عن أمي ونضع رسائل نكتبها بأيدينا في صندوق الرسائل المعلق على البوابة الهرمة وقد تأكلها الصدا، ونقرأها لها ونكذب عليها ونقول إنه يدرس في معهد

الفيزياء النووية التابع لمدينة أمريكية؛ وهو في الحقيقة يقود الطائرات الضخمة بين القارات ويسكن بإحدى ضواحي باريس وتجنس وخجل من عمله هذا فلم يطأ أرض الوطن منذ العهد الذي سافر فيه وترك البلاد بلا رجعة. أخبرني فؤاد عن موقف عمتي فاطمة ولم أفهم إلى يومنا هذا.

لماذا حدثني مثل هذا الكلام ونحن نعلم كلنا والجيران معنا وسكان الحي كلهم، أنها غير قادرة على التعبير عن شعور آخر، دون الغضب والضجر والشم.

(أولاد القحبة... أنفخي. جيتو تتزبو قبل ما تتعنبو) وهي ما أحبت أحداً في حياتها (سوى فؤاد) ولا شيئاً (سوى التنظيف والقيام بالواجبات المنزلية) ولا حيواناً (سوى السلحفاة التي كانت تخافها وتهابها وتتبرك بها) وذلك رغم همجيتها وعدم احترامها للطقوس الدينية، لا تصوم ولا تصلي ولا تريد الحج إلى مكة والمدينة، شعوذة منها وتطيراً. تسرق الخبز وتخفيه عن الأعين وتعطيه فؤاد عندما يدخل الفراش، تقاسمه إياه وتهدد عصفير الحديقة إذا أكثرت الزرزقة وتبالغ فيها ثم أنها تشير إلى السماء بقبضتها إذا ما نسيت نفسها وتهاطلت الأمطار مدة أيام طويلة، شتاء أو صيفاً (عام الطوفان وواقعة التوتة) وتتاول على أبي إذا ما حاول ضرب فؤاد أو توبيخه، وتجري وراءنا ولم نمنع منها ولا ننجو إلا إذا جعلنا بينها وبيننا قرص الشمس الكبير، عند الأصيل، فيبهرها ضياؤها الشعاعي، وتدمع عيناها البراقتان، فتعود إلى أعقابها

وتركنا نتسلق التوتة ونهزأ بها وهي تشتم وتسب، فيفيض نابها عن شفتها السفلى وتخال إلينا في ديجور النهار فزاعة رهيبة اخترعها فنان ماهر ماكر، فنريد تعليقها فوق الشجرة لكننا نخاف في نفس الوقت أن تجف وتيبس تحت حرارة الشمس. لم تبك وأنا لم أستغرب ذلك يوم أخبرني فؤاد به، وكأنه كان يفشي بسر دولة. أذكر أنه استاء من عدم مفاجأتي ولقد كنت أعرف عمتي فاطمة أحسن منه لأنه كان متمسكاً بتلابيبها دائماً، ولا يعرف منها إلا رائحتها الكريهة، أما نحن فكنا أكثر منه موضوعية خاصة وأنا نعرف كذلك أن لها وراء غطرستها وتوحشها وخشونتها قلباً يفيض بالحنان والطيبة وحب الأطفال، هي العانس (لماذا لم تتزوج؟) وأنا مصمم على فهم الأسباب التي أدت بها إلى هذا الوضع، حتى ذلك اليوم الذي خرجت فيه لأول مرة وهي تقترب من المئة لشراء الزلاية لقمر (زوجة أبي) الثانية فرستها الحافلة الكهربائية وشتت أمعاءها وبعثرت أعضائها، ولم تمت لتوها، رغم قوة الصدمة، بل مكثت تتلوى تحت الحافلة ورجال الأنقاض ورجال المطافئ يحاولون رفع القاطرة بأكياسهم الضخمة المتشامخة العنق... ماتت عاقراً فلا تعرف من أمور الدنيا إلا السفاهة والتنظيف والترتيب والتفريك في المنزل... (جيتو تتزبو قبل ما تتعنبو... ولاد القحبة... ولاد القحبة) ولعلها هي لا تفقه شيئاً مما تقول، أو تفهمه نصف فهم.

... ومن جديد راحت الشمس تصعد. صغيرة، باهتة،

قرصاً وردياً. تبانت من بعيد. من مكان حسبته الشرق:  
بانت باردة بعض الشيء. قاحلة. قليلة السطوع، شاحبة،  
تلتطخ باقة الزهور الصفراء التي بها تكتظ الزهرية العتيقة،  
البلورية، الشفافة. تلتطخ الشمس صفرة النوار. لكنها زائدة  
من اللزوم. وتدوم العملية هذه أكثر من نصف ساعة: ما  
يكفي من الوقت للاستيقاظ النهائي للعصافير والأفراخ  
المصففة الآن بشكل مشكاة وكأنها (الشمس) تتصاعدة  
بتؤه، متعمدة في تباطؤها، ومتجاوزة حد الدور. تصعد  
بدونما حيوية حتى يتيح لها المجال في أن تتصاعد، من  
التوتة، المعزوفة الموسيقية المتناغمة، أن تقوي وتيرتها إلى  
حد نقطة الانفجار، فتصبح الزقزقة عبارة عن ثرثرة نحاسية  
وزقزقة مدققة. تصعد بدون حيوية، كأنها تشجع نفسها على  
الاستمرار، رفقاً بالعصافير التي تعج التوتة بها عجباً. بدا  
لي ذلك مريباً. وإذا بي أتملاً حناناً للتوتة، للعصافير،  
للعشيقة وقد فاض جسمها المكتظ نوماً وتكاسلاً وتجاوز  
الحدود الفضائية المألوفة بمثل هذه الحالات... لكأنني لم  
أكبر بعد أبداً. أنه نوع من العبقرية ما أحسّ به من صعوبة  
على التجرد من الطفولة... لم أعرف كيف أتخلص منها  
وأنا أب لابنة وُلدت تحت رمز برج الأسد. كذلك أبي.  
كذلك ماريا (مريم؟) قلت: أنا محاط بالأسود. سمعت  
شوارع القرية الضيقة تستفيق شيئاً فشيئاً. أحدثت أن  
المقهى الفريد قد فتح أبوابه وعليها الحسكة الخشبية، ذات  
الألوان الفاقعة: حمراء. صفراء. خضراء، برشاء، نقشاء.

وكان الصباح يمر من شارع إلى شارع. يقرع آذان النسوة السمينات اللآئي يعملن في غسل الصوف في الجدول المهطال أو آذان النسوة الثريات وهن يستطلعن عما حدث من على أسطحة الدور... صوت واحد كان ينطلق من الأرض يصعد من الأعلى، يجول في الأنحاء، يدخل الطرق الطينية الواطية، يختلط بلذة الشمس ونعوماتها الفجرية... كان ضوء المصابيح يتآكل أسود محروقة الخيوط الفلزونية، فتتجمع فوقه مادة الكهرباء المركبة من ملايين الهتامات الممغنطة. النوافذ تحولت إلى لون الباذنجان. يأتي الليل بسرعة فائقة. العصافير الأخيرة لها أصوات مقلوبة. تبلغ مكثبي كأنما بللها المطر الذي لا يني يحفر اثلاماً طويلة على الزجاج. بحيث تعطي كشافته احساساً خاطئاً بالمرونة، لعل ذلك بسبب البخار. أنفاسي ملتصقة بمرآة. شبكات واسعة متداخلة. متاهة أخرى تحت البلور. ومع الظلام الساقط وقبل أن أنير، ينتابني احساس بفقدان حواشي وحدودي. لكن: أي جهد يبذل من أجل عبور الفراغ الذي يلف بصرد كلمتي. لم يبق سوى نسخها قبل أن أعود إلى الفراش مليئاً بإحساس الواجب المنجز على أتم الوجه. لست واهماً. عروقي معقودة. كأنها ملتحمة بالقوص بالذي يبهمني تألقه الأزرق. انفعال آخر للكبت. عدم نسيان أي شيء على المكتب. التحقق من وجود جميع وريقاتي في الدرج. إنني لا أحب أن أترك أسراري منتشرة في خلفي. حل الليل وجاء يلامس خدي.

ويلمس ذقني ويغزو مثلث العشيقة المغزوزب... الوقت يمر بسرعة هائلة. ومع ذلك. فأنا لم أتوقف. بل إنني بالأمر ما نمت. واليوم لا أشعر بأية رغبة في تناول الطعام. أرق. وخلفة. ها أنذا مفعم. لم أغمض عيني. سهرت طول الليل أرتب بطاقتي البريدية. في الصباح، كانت زرقة الفجر مائعة. للتدوين. هذه جملة نفسية!

أحسني مفعماً بالصفاء. لكن تعذبني الرغبة في فتح صندوق الأحذية التي أخبىء فيه صوري العزيزة. أعتقد أنني فتحت شرحاً في علم الإنسان بفكرة تأليف كتب حول محاسن التناقض الجدلي بين الحداثة والتراث القديم. إنها أطروحة ثورية. لكنها ليست ميسورة الإثبات. ورغم ذلك. أعرف نفسي. لدي صبر الصبار. هذا ما كانت أمي تقول لمدحي. كانت واثقة من نجاحي في مهمتي. وأنا أجهد حتى لا أكذبها. لقد وهبت حياتي من أجل انجاز عملي على أكمل وجه. سوف أخلف للأجيال الآتية ميراثاً (!؟) ها تصلني أصوات الصباح الأولى كأنها مصقولة بالضباب الذي يكتسح الشارع والبساتين رويداً رويداً. حريرية. متزغبة. هي ذي الكلمة التي كنت أريد، تماماً: متزغبة. إنها تحتوي على كل شيء. لا حاجة بنا إلى اللغو. فهي تكفي ذاتها بذاتها. كانت أمي واثقة، لم أخيب ظنها أبداً. كانت واثقة من نجاحي. وفي الحقيقة كان ظهور نزعتي مبكراً. مع الطوفان الضوئي يحتد عنف التوتة، إنه الخريف. غزارة نباتية. سنام شجري.. ومع هالات



الفوانيس والزجاج المغشي بالبخار. تغدو الحديقة تخيلاً فائق الروعة. وتتناهى في رأسي آلاف البغونيات شاقة خلاياي العصبية إلى حد التفجر في الهياج المذبذب والمكثف لحالة نفسية معدّنة. زعانف بشكل أزهار. شيء في رأسي. مثل جرد يجرش باعتناء دقيق، وبهمة. أتكون عمتي فاطمة على حق؟ كانت تردد دائماً هذه الجملة، راقمة نحوي، محدّقة في: «ولد الفار يطلع حفاراً!».

يتهالك الليل من جديد، فكرت أن المطر الذي انحسر في النهار سيتساقط في المساء. إنه أمر مألوف في فصل الصيف، ولكنه لم يسقط!. لن أفعل مثلها. سوف انتهي بمشابهتها. يا للرب الرطب! قنوات الانتظار العصبية. الليل الذي يجب اجتيازه، إنني - رغم العمل المنتظر انجازه - أتوجس الآتي، وهذا الإحساس، كلما انطفأ النهار، بأني أصير دون حواف أو حواشي. عروق متآكلة باحتكاك الكلمات على تخوم الوعي، بودي لو أولف كتاباً عن وحدة عظماء الرجال. انفعال آخر للاحتواء. لو كانت عمتي فاطمة حية، لقلت إنها غناية مبتذلة. كانت أمية، لكنها تحفظ عدداً من الأمثال الرائعة، مختصرات خاطفة للواقع المصقع والمشقق! أرغب في النوم بضع ساعات وإلا، فستصرد عيناى. يجب التأكد - قبل ذلك - من أنني لم أنس شيئاً، وأن جميع الوريقات نسخت محتوياتها على بطاقتي. مهمات الليل الصغيرة مهدئة. إن نزوعي المهني يرهقني في الحقيقة. فأنا أحمله منذ الطفولة!. أوكد

التضاؤل. أتوق إلى كرة صوتية، أقول: لا بد من وضع كتاب يهتم بتحليل عبقرية ابن خلدون، عن طريق العلوم النفسانية: («كان سكان صقلية يثرون على الولاة الفاطميين تخلصاً من تبعيتهم للمسلمين. أهم تلك الثورات، ثورة قام بها أهل جرجنة وطرنيس في خلافة المهدي عام 313 هجري وثورة أهل جرجنت أيضاً على واليهم سالم بن راشد سنة 325 وقد دامت هذه الثورة فترة طويلة من الزمن خرجت فيها جرجنت عن طاعة المسلمين حتى تمكن سالم من استرجاعها عام 329». ابن خلدون. تاريخ العرب والبربر ص 479)... ولكن كم هي كبيرة وضخمة تلك الجهود التي أبذلها لعبور الفراغ الملتفت صرداً حول كلماتي. سبق وكتبتها. يمكنني اخلاء السبيل لانفعالاتي. إنني في بيتي (قبل مجيء مريم بغتة). مصوناً من الزلزال والدبق. يبدو الليل الذي سقط منذ ساعاته فسفورياً. بسبب جبال المطر السيكة. المدينة الصغيرة لا تبلغني كالعادة. لا شك أن مواطني قد شرعوا يسألون عن كيفية قضاء يوم راحتهم. كرة القدم؟ كاوبوي؟ سكرة؟ دين؟ معضلة. رأسي يطن. وبالرغم من البهجة التطلعية، لدي شعور يتمزق كيلومترات من التفتة المبرقشة في دماغي. إنه يوم آخر طويناه مثلما يطوي منديل بال.

ثم هذا. حدثها عنها... قلت مكرر ومعاوداً: (كنت إذن أضاجع زوجة أبي الشرعية. ترى هل كان سبب ذلك صلة الرحم المهانة طيلة قرن كامل من العنف والنار؟ لقد

كان ارث السلف يحرك خوفاً لأنني كنت أبى أن يكون سلوكي كسلوك رئيس العشيرة. وكانت القطيعة واضحة جلية. وأما أبي: فقد كان مصراً بصرامة على رفضه. فكان لا يفوته قط أن يوقفنا دائماً عند حدنا فكنا نتعلق بجملده مثل البق العنيد: إن التلميح إلى الدم كان جلياً ولم يكن حبي الأثم لزوجة أبي إلا مرحلة من مراحل الكفاح، وأما الوالد فقد كان يتركنا نتشتت وقد أطل علينا من أعلى مرارته في جو من التناغم المشبوه فيه. كان لا يابه لاطراباتنا وكان فخوراً لجوعنا المتلهف. فلم يبق لنا من ملجأ نركن إليه سوى النهب والزنا بالمحارم والخمر: فإذا ما اتفق له أن يرتكب خطأ تلبلت نفوسنا لذلك فيغتنم تلك الفرصة ليرفع عنا ما كانت تفرضه علينا عشيقاته اللاتي كن يشحذن أظافرهن طوال النهار للتمكن من تحسين عزفهن على القانون. لقد كان يحبسهن هن الأخريات أيضاً فكن يقضين أوقاتهن في تلحين شعر شاعر يدعى عمر لا يعرفه أحد في المدينة سواهن: لقد كن في ما مضى من منظمات إلى دور الزنا فأخذن هناك على المغنين اليهود من مدينة قسنطينة أبداع الموشحات الأندلسية. وكنت عند الاستفاقة من النوم أتناول العشيقة (قمر) كاملة فأنقب بأصابعي في داخل طياتها وخفاياها باحثاً عن خال كنت فخوراً بأنني أول من اكتشف وجوده، إلا أن ذلك لم يكن قميناً بأن يهدى قلقي. لكأن لقلقي رأس جرادة ضاغبة. القط! كنت مستمراً في اندهاشي من فخامة أشكال جسد ضرة أمي

وكنت إذ أراه يسير بهيئة متصلبة أتنبأ بأنه كان يشتهي رفع  
 رجله والبول على سروال الضرة القصير وقد تُرك سهواً  
 تحت حراستي ذلك الصنور فكان يتشممه بدون انفكاك  
 (كان لون السروال وردياً باهتاً كلون الحلوى، يا له من  
 ذوق سمج!). ولكن هذا القط العنيد كان لا يتجرأ على  
 البول لأنه كان حسن التربية وكان له وعاء يبول فيه في  
 الحديقة. وكان هو على تلك الهيئة ينظر إلى الأشجار  
 الساعات الطوال: إنه لافتتان الضيون! كانت تدلله وتملّقه.  
 وكانت حركتها تدخل الهدوء في نفسي: فيزول عني  
 الخوف: كنت كأني قد مت بعد، وظل فكري ينتقل جيئة  
 وذهاباً داخل رأسي وجثتي المنهوكة. كانت أمي لا تحب  
 القط السمين، هو ذلك العدو الحقيقي! كان من اللازم أن  
 أحوله عن عشيقتي وكنت استعمل لذلك «نانا» قطة أمي.  
 والا لوجب خصاؤه! يا له من انحراف جنسي عند  
 الحيوان. كانت قمر نائمة كالكدس النابض. رائحة تتصاعد  
 رخصة ولدنة. كنت أريد أن يزداد تعفني داخلها قليلاً وأن  
 أستعيد تلك الحالة من الفراغ الثري بالقوة وبالهديان. كنت  
 أثناء انتجاعي أنقب بأصبعي باحثاً عن بعض الفجوات غير  
 المنيعة التي من شأنها أن تمحو ذنوبي بصورة نهائية. وكنت  
 وأنا في حالة التراخي واللامبالاة قلما أجد منفذاً لسوء  
 حظي الذي فاقت فيه المغالاة وجه الحقيقة. وعندئذ كنت  
 أسلك من جديد الطريق الوعرة فانتهي إلى نفس الوسواس  
 من نساء مزققات إلى رجال في حالة غضب على صهوات

جيادهم إلى حيوانات لا تغيب البتة عن مثل هذه الحالات  
الحلمية.

ترى هل كانت تضحك ساخرة من خيبيتي؟

أجل كانت تلك العشيقة العجيبة تضحك وهي منتصبه  
بالضبط على الحدود الفاصلة بين الحلم والواقع اليومي .  
وكانت كذلك خبيرة بأنشودة الماء فتجعله يختلج عند  
مساس جسمها . كنا نستحم معاً بغرفة الاستحمام الخضراء  
الفيروزية اللون الخاصة بالزوج المداس العرض والذي كان  
في ذلك الوقت يفقد جميع الصّلات التي كانت تربط بيني  
وبينه . لقد كانت تفهم بالفطرة كيف كنت قد عنفت في  
ضميري وأحرقت كالجس في أحاسيسي ومشاعري فكنت  
مسحوقاً ممحوقاً مثل السرفة ذات البصيرة الثاقبة بافراط .  
فكنا نبقي حابسين لتبليد ذهننا تجاه عالم كانت رموزه  
الهيروغليفية المغلقة تعذبنا بوخزاتها إلى حد الانهزام ثم بعد  
الهزيمة إلى حد الرضى والموافقة . أجل كانت تضحك .  
ترى هل كانت شاعرة واعية بذلك الاندھال الذي كنا نعيش  
فيه في انتعاش وفيضان وافر؟ وكنت أطالبها ملحاً بأن  
تسيطر على الوضع عوض أن تتكهن به حدساً . كنا ننام  
ونستيقظ وقد وافقت إلى إبعاد رتابة الحياة اليومية عن  
هوانا . وكانت الألفاظ وقد خلت من كل فائدة في حالة  
الصمت تتمزق فتفقد كل مادة وقواماً . إنه البكم نستهلكه  
بصورة ناسخة فاسخة . ترى هل أن الرخويات في الخارج  
لاصقة بغبار الشوارع الملتهبة الحرارة؟ ترى هل تجازف

بالسطو على زبائن المقاهي (مقهى الجزائر) الذين كانوا يحتسون الشاي في ظل الأقواس الباردة؟ لم تكن تدري الجواب عن كل ذلك. (قرطبة. 12 - 1 - 1950. حسان).

كانت تقول: بل أنظر إلى هنا إذ يطيب لي أن أحقق في ظل فرجي الهجين على ملحفة الفراش البيضاء. أنظرا! لكأنه علجوم أشعر بالذات! كنت أتركها تتكلم فكانت تلتف على نفسها ويغمى عليها من فرط اللذة. وتغتسل وترجع فتخر على الفراش. إنه حقاً لضفدع أشعر قادر على افراز جميع أنواع اللعاب والرطوبة. وكنت أمرر عليه يدي مرة وأخرى وعندئذ بدا القط كأنه يضحك ضحكاً بلغ حداً اختلجت له شعرات شاربه (كان يشبه قط معلمتنا الفرنسية العجوزة التي كنت تنفق وقتها في النظر إلى أقفاص العصافير من مختلف البلدان والأنواع، المصففة على رفوف ملصقة على جدران القسم. وكانت - هذه الطيور - لا تغرد الا عند الإشارة وحسب إرادة تلك المعلمة الغريبة الأطوار (سحارة؟). لقد كانت تفرض علينا أن نجيء لها بنصيب من السمك لدرس العلوم الطبيعية وكانت تقدم السمك لعزیزها الضيـون الماكر. ومهما كانت الحيوانات والنباتات التي كنا ندرسها فقد كانت دائماً وأبداً لا تطالبنا إلا بالسمك. وفي يوم من الأيام عقدنا العزم على وضع حد لذلك النزيف المالي الذي كان يحدثه تعهد ذلك القط بالقوة في ميزانية عائلتنا فقررنا أن نضع القط في كيس وقذفنا به في الهوة. فمات

المعلمة كمدأ. فانقطع بذلك مقتها للعرب). رائحة أبطي  
الانثة. شعور بالأسف والأسى... انفتحة ضئيلة... لقد  
كانت لذة تقتيل وتمزيق صورة الوالد فاعرة فاها. ينبغي قتل  
القط بل جميع القطط. كانت تقول: بل ابتلاع البحر أفضل  
عندي؟ وكنت إزاء رفضها ذلك أظهر لها السخبط فكانت  
تخاف لذلك وترتاع. إنه ديب النمل في رأسنا. إن أبي ما  
زال تاجراً كبيراً محترماً جداً وعندما يمر بجانب المسجد  
يقطع المؤذن آذانه ليسأله من أعلى الصومعة عن أحوال  
صحته. صوت جميل، صوت صاحبنا المؤذن! ويا له من  
افراط في الاحترام والمجاملة؟ وأسألها: هل كان أبي يكثر  
من مجامعتها، فتقول مستغربة: ترى هل يجوز أن تغار من  
أبيك؟. كانت خبيرة بعصر وجهها وعجنه عجنأ وخصوصاً  
بالتحكم في تلك الخصلات التي كانت تتيه فتصل إلى  
ملتقى ركني شفيتها وارجاعها على جبينها. وكنت أقصد إلى  
جعل زوجها بغيضاً في نظرها فكنت أقص عليها بكثير من  
الحقد قصة أخوتي المجهولي الهوية الذين كانوا يربون في  
صحون الديار بقطع النظر عن المرأة اليهودية... كانت  
خبيرة بالتفنن في الغرام. لقد كانت لا تستعمل جسمها  
فحسب بل تستعمل أيضاً حيلأ أخرى إما طويلة مسهبة أو  
قصيرة موجزة: لقد كانت توفق إلى اضاء حلة شعرية على  
العالم المحيط بها بواسطة مجرد نتف من الصور ونتف من  
أبيات الشعر وكانت رغم حياتها، حياة المرأة السجينة تتقن  
التقبيل مثل الفراشة فتبوسني واهدابها تخفق فوق شفتي

خفقاناً (عيني باترف، يا حبة عيني... بلاش تبسني بعيني...). و خلاصة القول أنها كانت مستسلمة استسلاماً تاماً إلى فنها، فن المرأة التي خلقت لتعبد العشيقي ولتغيب عن الدنيا وتنسى الواقع. ترى هل كانت تتقن العزف على القانون مثل بقية زوجات أبي بما فيهن اليهودية! لا، بل أنها كانت مبتدئة تعزف بدون مهارة. فكانت أظافرها لا تقوى على الصمود في وجه وصلة من الموسيقى الأندلسية. أصبحت الآلة بذلك مجرد قطعة يتزين بها. وكنت أفضل الاستماع إلى الأسطوانات فكنت أذهب فأجتلبها من عند بعض صعاليك الخمارة التي كان أخي يختلف عليها. وكان ناسها لا يحبونني ولكن عبدالله - وكان في نظرهم راسخ القدم في العلم - كان له من الهيمنة عليهم ما كان يجعلهم لا يتجاسرون على رفض قضاء حاجتي. وأما أنا فلم أكن أحبهم أيضاً وذلك لأنني كنت لا أشرب الخمر ولا أدخن «الكيف». فكنت كلما زرتهم شعرت بأنهم يعتبرونني مخلوقاً من المخلوقات الأحادية الخلية قد أشرف على الضلال وسط عرينهم. (عيني باترف...).

كانت تقص قصة زواجها بأبي فتقول: زواجي إنما هو تنويع لصفقة تجارية لا أكثر ولا أقل. وكانت أمها رغم تضلعها في نوبات الموسيقى الأندلسية وفي أغاني الحب والغرام قد وقعت في قبضة الوالد فكانت علاقتها علاقة غامضة بل ومريبة لأن ذلك الزواج قد تسبب في مساومات خارقة للعادة: ذلك أن أم قمر كانت في حاجة إلى المال،



وعلمت عند ذلك أن أمها كانت على علم بعلاقة ابنتها بي  
وأنها كانت تشجع على ذلك وتحث عليه لاعتقادها أن  
حسان الجزائري في الحقيقة ليس الا شيخاً هرمأ أضعفته  
غدة البروستات وعشيقاته العديداً. وكان الجو حاراً.  
وكان القط مستمراً في عدم تجرؤه على البول وكان مع  
ذلك يغفو من وقت إلى آخر غفوة قصيرة ثم يستفيق. أهو  
حب الكسب والربح؟ أهو الطمع والهفة على الانتفاع؟ إنها  
الرغبة في القضاء على عادات أجدادي السلفية واسترجاع  
الأبوة المستلبة. وقمر، هذا الزنا بالمحارم الزاخر، هنا في  
متناول يدي! فنتابني الشهوة من جديد ومن جديد ألجها.  
اقتحمها أنا الطفل الذي لا يعرف أباه الا من خلال  
البطاقات البريدية:

«عدن»

12 - 6 - 1936

«حسان»

ثم أترك قمر وأخرج وسط رائحة الصوف المحروق...  
تهدا الحرارة قليلاً بقرب الأسواق فتترك المجال لتحل  
محلها شبه ظلمة عتيقة منطوية في عقر الأزقة المتشابكة  
الواحد في الآخر والتي كانت تشرف جميعاً على الجبال.  
إن الذهاب لزيارة ذلك العطار في دكانه المكتظ بآيات من  
العجائب والغرائب (قارورات المسك وزجاجات ماء الورد  
وفاشكات ماء الزهر وعلب العنبر الخ...) لإغراء خطير

يجب أن أدفعه بسرعة: إذ كنت أخشى أن أفاجئه في حالة غير لائقة ولو حصل ذلك لكانت تفسيراته وتعليقاته طويلة معقدة. . كنت إذ أمر بالمقاهي استنشق رائحة الشاي بالنعناع التي كانت تنغرز حتى داخل منخري. فتنحرك لها أجفاني حركة لا إرادية، لا أكاد أتحملها. الفضاء أمامي بمجرد تناوبات بين العمى والانهيار كانا يتعقبان بحسب هيئة الأماكن التي كنت فيها. وبدأت برودة الجو تبعث الحياة في خلائق العباد والحيوانات وقد بدأوا يتهيؤون للخروج من سباتهم الذي كان في الواقع سباتاً لذيذاً. وزادت البرودة بسرعة خاطفة في عدد المتزهين الذين كانوا يجتهدون كادين في التمتع بها أطول وقت ممكن. ومع ذلك فكنت أحلم بمرش بارد صاحب وذلك لكي أستبدل جلدي بجلد آخر جديد ولكي أمحو آثار بصمات قمر! (ترى هل كانت تمحى؟) والترنج عند تذكر القصفة التي مرت. صدمة النهود وآثار بصمات قمر (ترى هل كانت لا تمحى؟) الترنج عند تذكر الصعقة الجنسية التي كوتني. صدمة النهود وأثرهما في. حيوية الابطين الفحميين. شبكة حركة الخلائق الخصبة التي كانت تجس هندسة الأشكال المكورة لمناضد الباعة الخرقاء المضحكة. ركام منسقة المتاع ذو نتوءات تخترقه زوايا حادة وتلينه دوائر ذات لونين (لون المغرة ولون الدم الأحمر). وغدت المنازل مجرد فوهات براكين مقعورة في الهواء الطلق. كنت سعيداً وأنا أخترق الزحام المخنق حيث كنت أشعر بأنني إنسان

خاص، على حدة، وأنني رجل يضمّر هذه الأمة التي  
أحرقها كما يحرق الجص زناي بالمحارم الذي كنت أجره  
في دخيلتي، كنت في تكالب على اجتناب الوحدة كلفني  
ذلك ما كلفني فأمنع حلقة الخلائق من أن تلفظني، فكنت  
أسعى جاهداً إلى البقاء على اتصال بالجماهير التي كنت  
أضيق ذرعاً بها، فأزعزع من حين إلى آخر خدرها وسباتها  
المعديين (ترى هل خطر على بال هذا الجمهور على الأقل  
وجود رائحة عشيقتي قمر على بشرتي؟) ومع ذلك فلقد  
لزمت الصمت والحذر حتى لا أجعل من هؤلاء المارة  
اللامبالين مجموعة من الطغاة الجلادين المتعسفين. وكانت  
العزلة!

... ظلت الشمس تصعد وتصعد، قرصاً وريداً فهاً... .

رأها تحوم كالعصفور، من ذلك الصنف الذي تعود أن يراه داخل التوتة وفوق سقف القرميد. كانت أمامه تتفسح في الحديقة. علاقتها بالأم حسنة للغاية. لا تتحدثان ولا تتكلمان كثيراً: بعض الحركات، الإشارات، الأيماءات فقط! ظل يلاحقها بدأب. طنت في أذنيه ذبابة زرقاء كبيرة، ذات أجنحة هرمية والرأس ملولب. تلفت مأخوذاً. الذبابة والقاضي. سي الزغواني. هزالة حرف «ذ». فخامة حرف «ض». كان الغسق والدنيا ليل نوعاً ما. لكن الذبابة رغم البرودة لا تتوقف عن الطيران. لاحقتها، نقرته بانزعاج واضطراب فيه لوعة الموت الآتي. التحق بمريم. جمعت كفيها، هبطته على لوحة. أحست صدمة العظم. رأت لحمة الكتف ترتجف. مال. استعاد توازنه. استدار. رآها. لم يقل شيئاً، لكنها فهمت ما كان يخالج نفسه في العمق. استعاد توازنه. قالت إلى أين؟ قال: ارحل من هذا المنزل. أترك الضيعة. أخذ أمي معي... أترك الأموات للدود... سئمت الحشرة والسعال والتناوم والتغالب...

لثدفن اليهودية في مقبرة اليهود! ولم لا! أما هو فأنا لا تهمني هذه الأشياء... أصبحت كوماً من العظام وبشرتها قد تشققت وتهرأت... أما هو فبطاقاته البريدية عزاء لي... لن أفهم أبداً. بدت مردودة متلوعة... قال: وأنتِ كذلك: مفصومة! منشطرة! أبوك فرنسي وأمك جزائرية... أين الربط والشد والخيط بينهما. وأنا كذلك. لنمشي في حالنا. المنزل تهرأ وتصدأ وتلقح... من ذا الذي سوف يرمم سكانه وجدرانه؟ قالت: حميد أخوك... هو مهندس معماري واختصاصه ترميم القصور القديمة والمساجد العتيقة والآثار التاريخية... قال: لقد فعل ذلك منذ سنوات وسئمه بسرعة. (وكاتبتي احدى اخواتي مطولاً في الموضوع، منذ سنوات، عندما كنت في الخارج. كتبت ما يلي):

(«أجل لقد استمر هطول الأمطار في لب الصيف، ونم يفهم أحد سبب هذه المبالغة. أما أنا فلم أر مانعاً أن تصب السماء آلاف السطول من الماء الزلال، شعرت بتفاعل الناس وحلق في جو الدار رذاذ اليأس، وكان أفراد العائلة ليسوا معلولين ولا باصحاء، إنهم بين بين كأنهم ناقهون من مرض عضال أو على أهبة الاستعداد للسقوط في مرض لا يقدر أحد على تسميته بوضوح. وكانت السماء تلقي ما بوسعها من جلجلة هدامة وزوايع لا تحصى ولا تعد وأعاصير آتية من وراء بلاد الثلج، فتهتز لها السطوح وتنخسف الجدران وتشطح الأشجار وكأنها قد

فقدت وعيها وجذورها. وتقلع السفن في الميناء وتطير في السماء باتجاه القمر. وهلع الناس من هذه المصيبة، قالوا إن الآخرة قد آن أوانها وإن الله عيل صبره لم يطق التآني أكثر فقرر أن يستعجل الأمر ويتخلص من العالم قبل حلول القرن الخامس عشر الذي حُدد حسب أقوال العلماء وأصاب الفلك والمشايخ والأئمة ليوم الطوفان. وحتى الأواني أصبحت لا تعرف في أي بحر تسبح. كنت إذاك مراهقة شابة لا أبالي بكلام الكبار. وجعلت من شجرة التوت سفينة سيدنا نوح وجلست عليها بمفردي في عزلة شيقة والماء من حوالي يهيج ويهدر فيأمرني أبي بالنزول فارفض، ويأتي عبدالله أخي الكبير يتوسل إليّ يطلب مني أن أترك الشجرة فارفض أيضاً. ثم يصعد ويجلس إلى جانبي ويفتح مظلة ضخمة ويغطيني بمعطفه. وهكذا نمكث أياماً وأسابيع نتفرج على يوم القيامة، لا نترك الشجرة إلا في الليل وندخل إلى المنزل حيث تنتظرنا عمتي فاطمة، حاملة خيشة تبسطها على الأرض وتجبرنا على مسح أحذيتنا فوقها وهي تشتم وتضرب ونحن نضحك منها. قالوا أصبح صيفنا شتاء، وشتاؤنا صيفاً. مكث الرجال في المنازل يترقبون اليوم الأخير وتركوا المقاهي والحانات والشوارع. وسرعان ما تحول خوفهم إلى حقد، فسأم، فقلق. راحوا ينظرون إلى السماء المغيمة نظرة غضب وشراسة، يرمونها بالحجارة ويتسفهون. جهدوا كل الجهد للتغلب على الفراغ فلم يجدوا له حلاً. أما أنا فدأبت على

المكوث فوق الشجرة يغسلني المطر الفاتر، فيلحق بي أخي في بعض الأيام ويتركني لحالي أياماً أخرى. سئم أبي المكوث في الدار، فأخذ يستغل كل فرصة للقيام بعمل ما، أياً كان، إذ راح يقوم بأعمال أمي في المطبخ أو يساعدها على تقشير الخضر وتقطيعها. ويختلس أحياناً فرشاة عمتي فاطمة الحديدية ويغسل الدار. ويجبر كل أفراد العائلة على تغيير ثيابهم كل يومين، وينهمك في غسل أكوام الملابس بما فيها أقمصه النساء الملوثة بالدم الحيضي وخرقهن الشهرية. جرب كل الوسائل للتسلية والترويح عن نفسه لكنه كان جباناً فلم يجرؤ ولو مرة واحدة على الكفر وشم الإله، على عكس العجوز الشمطاء التي كانت تهدد السماء بقبضة يدها ولا ترحم الطيور التي كانت تحاول الالتجاء إلى داخل المنزل. «أبناء القحبة» ثم كانت تنحرف في كلامها وتأخذ في شتم الأطفال بعد أن تتخلص من كل الطيور المبلولة «قلت لكم! أولاد القحبة! حبيتوا تتزبو قبل ما تتعنبو! شفتم... رايتم... هذا سخط الله عليكم...» تطلب مزيداً من المطر، وأبي لا يوجه إليها ولو كلمة عتاب واحدة، لأنه يخافها. كان حميد ثاني الذكور يعيش على جناح اليقظة ويقتل الوقت بكل قوة وعزيمة وبطش. وجد حلاً لا يمس شرفه وأخذ يستعمل يديه لفك كل الأشياء وكل الآلات وكل المحركات، ثم يعمل على تركيبها من جديد، ولهذا كان الحل بالنسبة إليه يسيراً فشم عن ساعده ووقف بالمرصاد، يتفحص الجدران والسقف والسطوح

والنوافذ. يقضي الأسابيع الطويلة متنقلاً من مكان إلى مكان داخل المنزل، يصلح ما تخرّب فيه؛ فقد شحم مفاصل الأبواب وكانت قد تصدّأت بتهاطل الأمطار، وسرح الاقفال التي امتلأت بخاراً لزجاً، كما أنه رص قنوات المياه وقد فاظت بتدفق السيّان وعضّ براغم المزالج بأخرى من الصلب والفولاذ، وطلّى باب الحديدية البالي بطبقتين من الدهان الأسود، وظل هكذا مدة أسابيع وأنا رابضة فوق شجرة التوت لا يعاتبني أحد خوفاً من عواقب الله الوخيمة، وكان أخي ينتقل من حجرة إلى أخرى ومعه أدواته التي كان قد اختلس معظمها من دكاكين الخردوات. وقد انخرط منذ صغره في عصابة من أهل السوء شكلها أولاد الحي البطالون (نكّلة في أبي؟)، وكان هطول الأمطار الطوفانية هذه في وسط الصيف لا يزعجه قط. كذلك كانت الحال لدى أفراد العائلة كلهم بل وسكان المدينة جمعاء وأهل البلاد برمتها. أما هو فقد استغل الفرصة الذهبية هذه وأظهر قدرته وشطارته على الأعمال اليدوية فانهمك أياماً عديدة في اصلاح الثلاجة وهي خاسرة منذ اللحظة الأولى التي اشتراها فيها أبي. ثم انفرد بالمذباح وقد كان على أحسن حال فأخرج أمعاءه وأحشاءه وركبه من جديد وطلّى جهازه بالشمع فأصبح براقاً لماعاً واكتسب صوتاً صافياً لم نكن لنعرفه من ذي قبل. وهكذا وهو في تراوح ودوران. لا ينام ولا يأكل حتى هزل جسمه وفش جلده، يزيد المطر من غزارته ويضاعف الواابل فورانه، فيما كانت عمّتي فاطمة



تلعنه وتجري وراءه وتنظف المكان الذي عمل فيه وتزيل نشارة الخشب وسحالة الحديد وغبار الجبس ومسحوق الاسمنت ورواسب الجير الخ... وما أن انتهى من ترتيب الدار كلها وترقيعها وتحسينها وتجميلها حتى فهم أن المطر قد تغلب عليه وأكل صبره وكبت حيلته وأوقعه في شرك الشكوك والهواجس والسأم ككل الناس فاغتاظ في أول الأمر ثم قرر أن يعطل كل الساعات الجدارية التي ورثها قمر زوجة أبي من أحد أسلافها الذي كان يعمل قرصاناً محترفاً ماهراً من قراصنة القرن الثامن عشر. فكان يجوب البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وحتى - حسب زعم البعض - المحيط الهادىء؛ فأخذ أخي يعطل الساعة بعد الأخرى وينهمك في تصليحها مدة طويلة من الزمن لا يترك غرفته ولا ينام ولا يأكل حتى إذا ما نقص وزنه بشكل مخيف، أشفت عليه عمتي فاطمة وأهملت القيام بشؤون فؤاد، وما كان حميد يبالي بكلامها ونصائحها ليطردها بعنف ويستطرد في أعماله الدقيقة. وانتهى أخيراً من الاعتناء بالساعات الجدارية الصقيلية وهز رأسه باتجاه السماء بعد سهود دام أكثر من شهر. وإذا به يدرك ويتأكد بنفسه أن المطر مازال يتهاطل وقد خرب وعفن. وصدأ من جديد كل ما أصلحه. لاحظ أن عشباً زغبياً راح ينمو بين تبليطات الغرف ووسط الدار، وحشيشاً غريباً يكسو الجدران، وصوفاً بزاقية تؤكسد دواليب الآلات، فراح يستعيد ذاكرته وقواه ومهارته ليستمر ثانية في الترقيع والترتيق

والتصليح والتفجير والتصقيل والتصبيغ والتشحيم والتفتيق،  
 والمطر لا يهفت ولا يخف والرطوبة تكتسح حتى بوقال  
 الأسماك التي لم تعد تفرق بين الماء والجو وبين المبلول  
 والجاف وكأنها تسبح في الهواء وتزحف في الماء. وما  
 كان حميد لينهي أعماله وقد قام بها للمرة الثانية. أما أنا  
 فما زلت أصعد كل صباح إلى أعلى الشجرة بمفردي. لا  
 يصطحبني الا أخي الأكبر الذي كان يغطيني بمعطفه ويفتح  
 من فوق رأسي مظلة هائلة كان المطر يقرع قماشها الحريري  
 المشمع كتيماً على وتيرة نبضات قلبي الصغير، والمطر  
 يستمر في تساقطه الجنوني والناس من حولي مرايا لزقة.  
 يقول أحدهم إنَّ الساعة الأخيرة قد دقت ويزعم آخر أن  
 الطوفان آت لا محالة وأنا سوف نشاهد عما قريب سفينة  
 نوح عليه السلام ويزعم آخر أن هذه الأمطار الصيفية غير  
 المتقطعة إنما هي انذار من الله وإشارة إلى غضبه وسخطه،  
 وعمتي فاطمة تهرول وراء حميد وتهدد السماء بقبضة اليد  
 «أولاد القحبة، أصبحتم تخافونه... يا لكم من جناء...  
 الا فؤاد ولدي أنا وافحل... قتلکم! جيتو تتزبو قبل ما  
 تتعنبو،،،» لكنها تضجر من لعن السماء وشتما فتجري  
 وراء حميد وهو لا يفارق علبة الأدوات وتنظر تحت حوض  
 المطبخ وتطارد جحافل البزاق وقبائل العلق وزرافات  
 الرخويات الوردية المتزحلقة وكأنها مطلية بصابون الغسيل  
 تريل وتشرب الرطوبة في مرح وهرج وتعبت بحيل العجوز  
 الشمطاء وتفكك كل محاولاتها للقضاء عليها متنقلة من

ميزاب إلى ميزاب ومن جعبة إلى جعبة ومن صنبور إلى صنبور ومن أنبوبة إلى أنبوبة تاركة آثاراً مقززة وقلويات طرية وخطوطاً دبة.. والمطر يهطل والسماء تعتصر، والماء يترشح ويتسرب من كل شقة وفجة ومن كل ثقبه ومن كل فرجة وفجوة، والأب يسبح ويساعد في شؤون المنزل والإخوة تحت أغطية الفراش مخفين مذعورين، وأنا في قمة التوتة مازلت رابضة فيما بدأ حميد يسأم وكان قد طلب من السماء أن تمطر أكثر ثم خرج إلى فناء الدار وإلى وسط البستان عاري الصدر يصرخ فرحاً ويغتسل بماء السحاب ويعوي كالذئبة التي فقدت نطفتها ولقد مل الآن المطر، وكره المطر والماء والرطوبة. أما أنا فلا أمله. أخي يحميني بمظلته ويغطيني بمعطفه ويسعل والماء يلصق خصلة شعره، فيضحك وعمتي فاطمة تترك فؤاد لحاله وتجري وراء حميد وتحاول انتزاع علبة الأدوات، خشية تلويث الأرضية فينهرها ويشتمها ويلومها ويهزأ بها ويرجها ويزعزعها وهي لا تسكن ولا تهفت ولا تسكن، تفعل مثل البزاق والعلق ملتصقة بأقدامه متعلقة بأسماله وملتحقة بأذياله، وهو يعمل ويكد ويرفض أي عون ويحفر الأقبية داخل المنزل لتصريف المياه وإزالة الحشرات البحرية التي تسبح وتجول بين أقدام من لا يتجنبها. وبدأت الغضاضة القرمزية تظهر على سماته وغزارة المطر تجعله ينزق كراهية ورطوبة فلا ينام الليل كله بل يظل مستلقياً على سريره بشبابه يستمع إلى هسهسة الماء على السقف».

«تمر الأعوام وينسى الناس كلهم ذلك العام حيث هطل المطر في أوج الصيف. ومات الأخ وكبرت أنا وهرم الأب، وتزوج حميد وأنجب أولاداً ذكوراً، وحاول أن يمارس بعض الضغط على حياتي فوجدني بالمرصاد أصمد أمامه وأذكره بواقعة التوتة، وكيف مكثت أربعة أسابيع والماء قد حول الحديقة والمدينة إلى مسبح. وأنا صارمة في عنادي لا أترك الشجرة إلا ساعة النوم أعود إليها كل صباح مبكرة، رغم عتاب أبي وتضرعات أُمي وتوسلات أخي الأكبر، ويحذق حميد في، فأذكره بما تعودنا أن نسّميه في المنزل، وبين أفراد العائلة، بواقعة التوتة. والناس في كل أنحاء القطر يسمون ذلك العام الذي هطل فيه المطر في فصل الصيف بدون انقطاع مدة طويلة، بعام الطوفان. لكن حميد يظل جامداً لا يخالجه أي احساس تجاه هذه الذكريات فيقطب جبينه ويبدأ جملة أتلقفها: «تصرفاتك غير...» أقاطعه، لا يتذكر واقعة التوتة وعام المطر الصيفي وهو ينتقل من مكان إلى مكان بعلبة أدواته المسروقة من دكاكين الخردوات «أترك الموعظة جانباً...!» يحاول ضربي أرد عليه «تفحص فرج زوجتك، تلحس طيزي!». اصدمه بالكلمات الخشنة»، خمسة أولاد ذكور... ما شاء الله! فحل وسيد الرجال... لكن رويداً ياخويا... تفحص زوجتك وهي تلفظ طفلاً كل سنة، حذار من الدود والتعطن... الأمراض النسوية غدارة...»، يريد صفعي. أقف أمامه. أتحداه... يسقط

ذراعه على جسمه، ينصرف. نسي أيام شبابه الطائش.  
 (الطفشة، أنا! الطائشة، أنا!) يطرد من المدرسة، يتكاسل  
 في القسم ويرمي بممحاته تحت منضدة المعلمة ثم يذهب  
 لالتقاطها ويستغل الفرصة فينظر تحت جلبابها، وتفاجئه  
 وهو يحاول ادخال يده بين فخذيهما، تصرخ وتبكي. يصمد  
 حميد في وجه هذه الذكريات المعتوهة، لا يقول شيئاً. ثم  
 يأتي إلى الدار لمعاتبتي قائلاً: «الناس يقولون... أنت  
 عاهرة!»: «الناس يقولون... أنت عاهرة!» أذكره بفعلاته  
 وأتعجب أمام طاقته العظيمة على النسيان أو التناسي:  
 «وسعاد... أتذكر سعاد... حاولت أن تغتصبها وهي في  
 دورة المياه... في دارنا... جاءت لزيارتي... موش  
 طيش بلغت العشرين آنذاك كنت طالباً في كلية الهندسة  
 المعمارية والآن تتزمت وتنجب زوجتك خمسة أولاد في  
 ظرف سنوات.. قليل أنك تصلي... لا تترك الجامع...  
 شأنك... أما أموري فهي لي...» ينصرف، ويطاطيء  
 رأسه. لا يتذكر شيئاً. لا مرارة ولا وخزاً ولا أذناً.

«استمر هطول الأمطار ذلك العام. كنت أستطيع الزعم  
 أن الطوفان الصيفي منحني فرصة الجلوس على قمة شجرة  
 التوت والتدرب على العزلة وعلى الرطوبة، وكأنني شجر  
 سمكي أو سمك شجري. وإنه نوع من التصوف، ولم أكن  
 قد بلغت السابعة، وأخي الأكبر عبدالله يشنت أجزاء كبده  
 بين حانة وأخرى ويغطيني بمعطفه الوبري ومظلته الحريرية.  
 أما الآخر فيجهد نفسه في ترميم الدار وقد أيقظت فيه حمى

الأدوات المختلفة المسروقة من دكاكين الخردوات والمصففة داخل صندوق كبير معد من الجلد الخام، أيقظت فيه الحنين إلى مهن يدوية مختلفة، احترفها في جميع أنحاء القطر، بعد أن تخرج من الكلية؛ وحمى الأيدي هذه كانت مرتبطة بحمى الأرجل. كان يحب التنقل والترحال حتى تزوج واستقر في مدينتنا وفتح ورشة للهندسة المعمارية التي كانت تغل عليه الأموال الطائلة فلا يعرف كيف يتصرف فيها فيخزنها (ضريبة الوصولية) على زوجته وعلى أبنائه ويستعمل الأدلة الدينية والحجج الفقهية والبراهين الوعظية فيضرب أولاده، يمقتهم، يعذبهم. يخزن الأموال ويصلي. نسي هسهسة المطر على سطح الدار وعام الطوفان وواقعة التوتة. (أما أنت فحمى المستنقعات قد أذهلتك كذلك وكنت تفتش عن قصب جيد وتشلخ الأشجار وتبحث عن الصمغ الزخم بين الوردية والقرمزي والصلصالي)؛ كانت أسابيع الغيث والكارثة قد حلت بالبلاد ففاضت الوديان وخرجت عن مجاريها، وتوقفت القطارات وخرجت عن سككها، وانقطعت المواصلات، وانقطعت الرسائل عن الدار وانقطعت الأخبار معها، الا المذياع! كان حميد له بالمرصاد، يفرغه ثم يركب أجزاءه من جديد فيتغير صوته ويتحسن، ويفقد خشخشته المعتادة وحشرجته (ومريم قائلة: أين أنت الآن من هوسك... هل ما زلت تتخيل أنك تسمع نحنحة العمة فاطمة وصوت أقدامها ومشيتها المتعرجة؟ خبرني عن ذلك... وماذا عن استيهاماتك التي

تدور حول انتحار العم جلول؟) المألوفة وأبي يطوف حول المنزل، غريب الأطوار، بدأ في تلك الفترة يمارس عادة كرهية لم تفارقه حتى الآن. تعود على الا يسمي الأشياء بأسمائها فيلتوي لسانه حول الكلمات ويتلعثم، خاصة وأن المطر لا ينقطع، فتتكون في رأسي فكرة مخيفة لكنها لا تزعجني قلت: إن المطر قائم أبداً وسوف لا يتوقف وهذه الحالة ستدوم إلى ما بعد التاريخ، لكن لا سفينة هناك، ولا سيدنا نوح! والحق أنني سمعته هو أخي الأكبر يقول بهذه الأشياء وهو جالس إلى جانبي ذات عشية تخالها صباحاً ضبابي المحيط. راح يسترسل في الكلام ويهزأ بحميد وبأعماله اليدوية وبورشة الخياطة وبالأخوات يطرزن جهاز العرس ثم يسكت برهة، ينظر باتجاهي حاملاً المظلة، قابضاً على المعطف حول جسمي الصغير وفجأة يفتح فاهه: «ليته كان خمراً... ليته كان خمراً... فأعوم وأسبح... ليته كان خمراً...» ثم ينقطع عن الكلام وتظهر على وجهه سمات مرض عضال سميته مرض الخجل! ولم يخرج أحد في تلك الفترة من الدار وانقطعت أسفار أبي طيلة تلك المدة بل قعد جميع أفراد العائلة في أماكنهم والأبواب والنوافذ مغلقة وقد دجت كل ثغرة بالسبخ، وكذلك أذان أمي وقد عيل صبرها ولم تطق الاستماع إلى وابل المياه يقذف زجاج النوافذ وخشب الأبواب وحديد الشابيك وصلب البوابة الرئيسية وورق الأشجار وتربة الحديقة وقطران السطح ويطلق كل ذلك بقوة وعنفت فتكاد

تجن من فرط الايقاع ومن ترك الأسفار (ولم يعد أبي يرسل بطاقاته البريدية من كل مدن العالم). أما عمتي فاطمة فهي لا تبالي بهذه الجزئيات ولا تخاف من أي شيء فتهدد السماء وتطارد الطيور المسكينة، وتوجه قبضة اليد نحو الغيوم وتهول وراء حميد وتعكف على البيت تغسل وتحك وتحرص ساهرة على راحة فؤاد ونظافة فؤاد ولباس فؤاد وخبز فؤاد ذلك الذي يضعه في جيب سرواله الذي ينام به فيفتت الخبز فيه ويأكل فتاتاً منه كلما استفاق من نومه وهو بين أحضان العجوز وقد شاخت وما بقي منها إلا الجلد والعظم (لماذا لم تتزوج؟ عانس حتى الموت؟ أهذا هو شعارها؟). أما عيناها فهما كحربة سهم أذبلهما طول التحديق في المطر المتهاطل وقد اكتسى عمودها الفقري شفافية رهيبة فبدأ كسلسلة من حلقات ركبتي على وتر من الأعصاب المتهرثة سال، عبرها، نخاع شحيح لم يعرف للخصوبة يوماً معنى. وقد فاض عمرها من حواليها فطبعها بطابع الخلود والحزن النهائي والعزلة الأبدية وعند الغذاء أو العشاء والفطور، ساعة تجمع العائلة حول مائدة الطعام تنتسي الأم المطر لبضع ساعات وتوزع المطبوخ في الصحون منتظرة كلمة التشجيع أو علامة شكر على ما بذلت من جهود متكررة وقد أناطت بنفسها طهي الطعام هروباً من السأم على أنها تتصرف وكأنها لا تنتظر أي تعليق بالنسبة لمهارتها وشطارتها فتقول لإخفاء حمى الانتظار: «مستحيل أن يستمر المطر على هذا الشكل الفظيع ويظل هكذا بلا



انقطاع ما رأيكم يا أولاد؟» لا يجيبها أحد. ولكنها رغم القطن الذي ينجد في أذنيها ترمرم محدثة نفسها «أكلة رائعة! أما عن المطر فلست أدري، فالمطر من أمور الرجال»، فيشعر الأخ الكبير بدبابيس تنخز بشرته، فيقوم تاركاً المائدة ويخرج إلى الحديقة، حيث التوتة، حيث حشرونا يوم جنازته تلك التي لم نر شيئاً منها وقد سمعت الكثير عنها...».

... تبدى مريم حركتها وكأنها تستيقظ من نوم مغناطيسي. ورغم الأسئلة والأجوبة تبقى شاشة الخيالة مسدلة والصور تتعاقب بسرعة فائقة - صور ذهنية وصور بصرية وصور صوتية - وكأنها صادرة عن آلة عرض 16 مليمتر، تقبل الذاكرة بأشكالها الغريبة والمضطربة وبألوانها السوداء والبيضاء والمائية والسبيذجية والحبارية والتدرجية والفاخرة والغامقة الخ... وتمطر الصور مذنبية ومخططة (عقبال الزمن وصدأ التاريخ) وملولوبة ومتشابكة على طريقة الدود (أو البق؟ لكن لا داعي لمجابهتها من جديد وشبح أخي عبدالله مازال قائماً بيننا... ) عندما يتكاثر ويغلي بغليان التكاثر وهو (عبدالله) مازال نصب عيني بابتسامته الخجولة وطيبته الطبيعية يقول: «اللغز يجب فكه وحله والبحث عما وراءه! «كانوا (أصحابه) يهزأون به، يقولون: «لنشرب أولاً ثم نرى... لا عجلة في الأمر...» يقول: «بلى يجب حل اللغز وإلا رحنا فيه!» يحدقون فيه. يوشوشون كلمة «مجنون»، لكنه لا يعبأ وكأسه بين يديه

وعبثه على ظهره وابتسامته على شفثيه، يقول: «يا من عاش وشاف...» ومريم تأخذ حقيبتها، وتبحث عن سيجارة وكعادتها لا تجد العلبة الملعونة، وشبح عمتي يعود الآن للوقوف على المنضدة حيث أكتب وأكتب وأخطط، فلا تجد سيجارة وتفرغ الحقيبة بأكملها. تنفلت منها الأشياء ومن بينها علبة السجاير، تشعل السيجارة وتنظر إلي: «كيف حالك اليوم؟ أريد أن أدخن... هل تسمح...» وأسمح بطبيعة الحال والسيجارة تبخر بدخان كثيف وقد أشعلتها كعادتها قبل أن تطلب السماح (الرخصة). تقول: «كيف نجوت أنت من هذا الوحل العائلي؟ لا بد أنك تحمل حرزاً يحميك ويقيك من جميع الأشرار...» إنها تعلم الجواب: البطاقات البريدية. الأسلاف (أتوا بحسن النية تاهوا برواق الأيام الدموية وقد جذبتهم رائحة التربة المتعطشة إلى دم أسلاف الأسلاف، يروونها ويشبعونها بمياههم وقد أصبح الجو من حولهم عبارة عن حريق هائل يعبق برائحة الصنوبر والعشب الجاف. دخلوا الحياة عن غير قصد وراحوا يدورون بها ويلفون حولها ويعطسون في محارم تفوح زهرة القرنفل والتبغ المسحوق. ورفض بعضهم أن يفكر في المستقبل. كانت الأمور غامضة. الآن؟ تضخمت المدن وكادت تموت تحت شحمتها وسمنتها والأرض المخضبة بالدماء لا تستغل كما يجب وتنبت المساجد كالفطور ويزني في الدين وتكتظ الشوارع بالانتهازيين وتكثر الرشوة، والآخرون يرددون - سابقاً -

الخرافات تلو الخرافات. كانوا ذوي نية طيبة ولكن التاريخ صعب) وتحرق مريم (ماريا؟) السيجارة تلو الأخرى وهي في حركة دائمة لا تهدأ، وتنظر إلي. تحديق في، وكأنها تلومني حقيقة. لقد كان الموت أفضل. الموت أفضل. وهي كذلك بإشارتها الدووية وهيجانها المتوافر كانت كأنها تضخ الظل وقد اكتسح الغرفة شيئاً فشيئاً. ويلتحق الليل بنا ويغطي جسدينا. أنا من وراء المنضدة جالس على كرسي، وهي على السرير مستلقية تدخن سيجارتها تلو الأخرى وتحسني الشاي وتبدد من أشكال الأشياء وكل واحد منها يبتلع الآخر داخل بوتقة حادة ومضجرة في نفس الوقت كأنها - الأشياء - تحترق أو تتبخر وتفقد هكذا ذاتها وقد تتصبب في دخان السجاير التي لم تكف مريم عن تدخينها منذ أن بدأت أتحدث عن حسان الجزائري (أبي) جاءني في يوم من الأيام بقصاصة جريدة قديمة تحمل صورة أبي وهو يبتسم، بلباسه التقليدي، والعرق يتصبب من جبينه (بعد خروجه من السجن العسكري حيث مكث بضعة أعوام على أثر صفعه العقيد الفرنسي) وتساءلني: هل الصورة مطابقة؟.

ثم هذا كذلك: بالنسبة لأخي الكبير قالت مريم، استطرقت في الكلام، تحدثت مريم - ماريا، فقالت: كل سكرة تعيده إلى جده وكل احساس يعتره يجعله يشعر به موجوداً هناك، جالساً في فناء الدار، يقرأ مخطوطات قديمة أو يفك رمز البعض من خرائط سكك الحديد أو المسارات

البحرية. والحقيقة أنه كان الإنسان الوحيد الذي عرف كيف يحبه، والذي تعلم منه دروس الحنان والحنين والتهويم. كان صاحب قصص خرافية، يضع أمام الطفل الذي يفتح عينيه على سعتهما قائمة مكتملة بالعواصم العجيبة. لكنه (المتحدث) لم يجد الشجاعة الكافية للإعتراف فيقول له بأنه لم يكن جدّه هو الشخص الذي يقود القاطرة الضخمة ذات السحابة الزرقاء التي رآها خلال وميض خاطف خارق. في الواقع لم يكن جده الهزيل ذاك إلا مصباحي المقطع الواقع على بعد مائتي كيلومتر من القرية وقريباً من بلدة أخرى أنفه منها وهي في حوزة شركة السكك الحديدية. وقد أدرك منذ البداية، بل ومنذ أن أسعفته الذاكرة، أن والدته لا تريد له أن يسلم نفسه لخيبالات العجوز. فقد أحس بها مسجلة إلى الأبد كأنما هي نقش بارز ما فتىء يوشم حياته: فالخطوط التي تشكل شبكة معقدة من السكك تتتابع فيما بينها، وتنكسر في الأفق، وتتشعب إلى ما لا نهاية، وهي تعج بمشاريع تجريدية عن المستقبل وتنتفخ تحت لدعة البرد وتفجر دوائر الزمن إلى آلاف الشظايا وإلى مجالات معوجة وإلى هندسات غير معقولة. وبعد زمن طويل، وفي اليوم الذي دفن فيه جده من أمه، ظل يحس فوق بشرته بذلك النبض الخارق المتولد عن الهندسة الفضائية الخطية التي لم يفهم منها شيئاً، لكنه توقعها مع ذلك بصورة مهمة خلال رؤيا غريبة أرقته طول حياته، وخلفت عنده انطباعاً بأنه هلب من الداخل، ومخيّط بسلك حديدي من الخارج. لكنه

أدرك حين اكتشف تلك القاطرة المتبخرة لأول مرة في حياته، أنه في كبره سيحكم عليه بالشقاء والتعثر، على أنه يمتلك اليوم في ذهنه صورة ذلك العجوز حية مقلقة، وهو يتجول ليلاً بمصاحبة طول العالم وعرضه، ويعود في الصباح منفوش الشعر مقروراً داخل سترته السوداء التي تحمل شارة الشركة، ليغرق قدميه المكدودتين المجرحتين في وعاء من الماء الساخن الممزوج بالصوديوم. على أن تلك العلاقة التي تربطه يجده، لم يجرؤ هذا على الاقرار بأنه قد فقد كل شيء بما فيه أنانيته، يوم زوج ابنته بذلك الرجل: حسان الجزائري. فقد ألصقوا به ذلك الاسم الغريب الذي يحمله رئيس المحطة، حيث كان يعمل مصباحياً. ولم يكتشف الحفيد هذا الإهمال إلا بعد سنوات طويلة، يوم تساقط الثلج لأول مرة منذ قرن على البلدة مما ساعد السكان، لما في هذا الحدث من خرافة، على الخروج من ذواتهم والافضاء بسرائرهم. كان ندف الثلج قد رطب جذورهم المتوترة التي تحيط ببشرة القذل وتحصرهم في كلابة من البرونز الثقيل. وإذا بكل شيء يصبح ممكناً. فقد سمع الناس ابنة المصباحي (أمي) للمرة الأولى تغني في المطبخ. كأن البياض الذي يكسو الأرض قد حقن في دمها مقداراً من الصفاء مدراراً. وهي التي عودت محيطها على الحمى المرهقة. حتى نوبات الضحك التي أغرقت فيها ما كانت إلا تعبيراً منها عن حيرتها التي تخلصت منها فلا تترك للشقاء في المجال أن يتسرب إلى

أعماقها من باب سعادتها كما اعتادت أن تسمي به قلبها. كان أحد حراس الأسوار، ذلك العجوز البالغ من العمر مائة وأربعاً وعشرين سنة، هو من روى كيف اغتصب اسم جده. فقد أفضى الشيخ بما يلي: «كانوا يسمونه محمد بونفوس عوضاً من محمد بلفريخ. ولا تلمنه فهو لم يتحمل هذه الكنية قط وقد جعلت منه مجرد عبد ليس إلا». أما بونفوس هذا فكان عملاقاً، ذا بخر موبوء برائحة الخمر الحادة الممزوجة ثوماً. قدم من سجن مجهول وقد عمدت السلطات الاستعمارية إلى امتحانه، فأرسلته يسهر على القطار الوحيد الذي كان يمر كل يوم على بعد مائتي كيلومتر من القرية. وصار هكذا محمد بلفريخ، مصباحياً، وقيماً على حياته وكاتماً. مما دفع بالحفيد (عبد الله أخوك البرك) إلى الانطواء على الذات في حالة من التصقع القاتل التي لم تقو على إزالته تلك الحيوية التي اتسمت بها ذكرياته الأخيرة. وعبثاً حاول استشارة مواهبه الخارقة ليوهم نفسه بظهور جده في فناء الدار، ويطالبه بالحسابات، إلا أنه لم يصل إلى أية نتيجة. وزاد في عناده عناداً؛ وارتعش من البرد مثلما حدث له لما ذهب يتأمل القاطرة الأولى والأخيرة في حياته فانهمك في الشرب المنتظم بغية الحصول على الرؤية التي كان يأمل فيها، فيفيق في الصباح الباكر خائر القوى منهوكاً قبل أن تتحول دار أمه إلى خلية دائمة الطنين، وإذا به يخفق ثانية في محاولته هذه. وأرقته فكرة الاتصال بجده فيستفسر منه عن هذا الصمت الذي

ضرب حول هذا الاسم وهو مغلوب على أمره. لقد طغى هذا الاسم عليه طغياً وعلى هويته. فسحقها وألغها تحت وطأة العملاق الذي أصبح رئيس محطة ومالك خدم. ويخيل إليه أن جده يتملص منه ويختفي، فيأبى الظهور له، بل يعاند في الافلات منه تفادياً من إعطائه بعض توضيحات أسراره إلى حد أنهم قالوا عنه في كل مرة صادفوه فيها وهو يراقب السكك الحديدية وهو ذاهب لقضاء ما يأمره به صاحب العمل: «ها هو ذا خادم بونفوس». وشيئاً فشيئاً. انتهى الأمر بالناس ان صاحوا به كلما التقوا به: «هو ذا محمد بونفوس». هذا لا غير.

المولمة الحرجة. وقرر عبدالله الخروج من المنزل فاعتزل العالم كلياً. وقبيل مغادرته البلدة راح يحطم العديد من الأقفاص، فقتل بعض اللقالق ضرباً بالحجارة، ومزق رسائل الحب التي اعتاد على اقتبالها من فتيات عديدات وقعن في شرك حبه وغرق في أعرم سكرة عرفها في حياته. وما أن وجد نفسه في البستان حتى فتر غضبه مع فتور الريح الشتوية، وجاء دور المرارة والتعثر. وأحس وكأنه وقع في فخ إذا لم يجد جده ما يدفعه إلى البوح له بأنه أضاع حتى اسمه فورث بالمقابل كنية لا يعلم قط من أين جاءت. إنها كنية عملاق طوله متر وتسعون سنتماً، سجين سابق وقتال النساء ويشوي عشيقاته بأتون هواه الفتاك. لم يكن له ما يمكنه من تحمل مثل ذلك السر في الوقت الذي كانت فيه كآبة والدته وتهويمات صديقه الاسكافي الشيعوي، وفيضان الحنان لأخوته وسخب العاشقات وعنجهية الأب، وحيل العمة فاطمة، ومسابقات الطيور وأوجاع الرأس التي تعاني منها قمر زوجة أبيه؛ كان



كل ذلك يفرغه من قواه ويزرع في ذهنه الاضطراب. ويفرق كل شيء في عالم منقلب حيث لعب جده دوراً غريباً كل الغرابة في قضية التحول هذا من اسم إلى اسم. ولم يكن يغفر له امتناعه عن توضيح اللغز الكامل وراء تلك الكنية المهزلة لاسيما ولقد ورثها عن وحش بشري يبث صوته الجاهر المرعب في الأهالي، على بعد مسافات من الفراسخ الشاسعة حوله. وجده هذا ما كان ليتجاوز طوله متراً وخمسين سنتمترًا. ولم يتعدّ وزنه الخمسين كيلو. أما صوته فقد كان غريباً كصوت طفلة تتغذى عسلاً وليموناً. وإذا به يدرك اذاك أنه لا ملجأ له يلجأ إليه سوى أن يسيء التصرف مع ما فيه من تناقضات، ويحرق التاريخ ويفتح في الكلمات شقوقاً ويحدث في حنينه ثقباً بدلاً من تجرع القلق الذي ما كانت أرض الجفاف الداخلي المتيبسة المحترقة إلا أن تزيد من حدته ولم يعد شيء يخفف من حدة حزنه حتى أعذب الذكريات وأحلاها: لا الطيور التي كانت تحوم كالمجنونة ولا روائح الحبق التي كانت تعبق بعطرها الدار القديم ولا ألوان التوتة التي كانت تخضب بنسقتها زجاج نوافذ المنزل العتيق، لا شيء يهدئ من روعه! حتى ليخيّل إليه أن الجدران معطرة ومطحلبة هي الأخرى. وإذا به وبدافع غضبه الجارف ينطلق في مطاردة شبح جده ذاك الذي بدون شك خدعه. ثم كان ما لم يكن في الحسبان. كان يوم ظهر فيه جده له. جده، أو بالأحرى، صورته المطابقة له كل التطابق. كان يرتدي سترة

مهترئة، وبدت قامته وكأنها لدمية. وجعلت عيناه تتبعانه وتقلقانه. قال له الجد: «ما أتعسني رجلاً! أطلعك عما حدث». وصل عبدالله واجماً، مصدوماً، زائغ النظر، شاحب الوجه، يحمل ألمه وكأنه قميص شدت ياقته عليه بإحكام وبحكمة حول جوزة حلقة البارزة. «إني منتظر في فناء الدار. فالريح هنا شديدة، والحرارة خانقة. وأني لا أرغب في رؤية أمك وقد تزوج عليها أبوك وقد وقعت مغشياً عليها. يا لها من امرأة طيبة. وإني أنا عالم بشقائها. أما أنت فلا تشغل بالك بهذه الكنية الغربية الغبية. لديك في البطاقات البريدية من التوضيحات ما يكفيك، تلك التي لا تتوقف عن مراجعتها». قال واختفى. وبعد هذه المقابلة التي تخيلها أو رآها في المنام، راح ينتظر. وأنتظر وقتاً طويلاً في البستان وفناء الدار، انتظر مجيء والدته فتعود به إلى البيت وإذا بها ترفض هذه المرة، ترفض الخضوع لأهوائه ونزواته ومضت تؤكد لأولادها الآخرين أنه هو في المكان الذي يناسبه. مضيقة أن غيابته إنما يمنح النساء الراحة، أولئك اللاتي اتخذن عادات سيئة معه، وتخفف بعض الشيء من تلك الأسطورة التي حيكت حول قوته الجاذبية التي تجلب إليه حتماً عشق النساء وهواهن، مما جعل أفراد العائلة يعلمون بأن الابن البكر ما هو إلا فتى خامل، تائه، مصعوق، يمكن الاستغناء عنه بكل يسر. أما الحقيقة فقد كانت الأم تتعذب في صمت فتحس بقساوة هذا الوضع المتفاقم الذي آل إليه

تخاذل ابنها وعجزه عن مواجهة الحياة ومعاركتها. ولكنها ظلت أحوج ما تكون إلى نبرة الغرابة التي كان يلقيها فيها حيثما مر. وإذ قررت نسيان حزنها، فقد راحت تنهمك في العمل فتكرس وقتها كله للعمل في ورشة الخياطة فحافظت على هذا المكان المنعزل، الغريب، المكتظة أجواؤه برائحة الكريب الصيني الذي يمكن أن يشتمه كل من دخل المنزل، وان على أنامل أصابعه، لفرط ما فيه من حموزة ومن طاقة كبيرة على التشبث بالأشياء والالتصاق بالجدران... أما أنت فقد ذهبت ضحية تمعشك وقد شعرت - مثلاً - بخيانة ابن ماجد ذاك الذي مكن فاسكودي قاما من اكتشاف الطريق البحرية المؤدية إلى الهند، أكثر مما شعرت به بخيانة جدك الذي فقد اسمه واضطلع باسم رئيسه، ذلك العملاق الذي كان يشرف على محطة القطار في البلدة. وأنت - أيضاً - أوقعت العائلة في سأم ولم تفدها شيئاً سوى كتم الأسرار (عدم زواج أبيك باليهودية مثلاً) وحياسة المؤامرات المنزلية (موقف ابن خلدون - مثلاً - من الحادثة التي غرقت فيها أسرته كلها خلال رحلة كانت تقوم بها من تونس إلى الاسكندرية بغية التحاقها به: وهو لم يخصص للحادث أكثر من خمسة أسطر يتحدث فيها عن هذه الفاجعة الرهيبة... فتقول في هذا الصدد: «لقد كان خيراً له أن يقيم الحداد، بدلاً من محاولته شرح آليات الشقاء الإنساني والكوني»). الدنيئة واللجوء إلى النفاق والنميمة، كسيرة عامة لحل المشاكل كلها والتفاني في ارضاء الغرائز

على أنواعها وشف غليل الشهوات على اختلافها و...  
(روما 12 - 2 - 1929 حسان).

يوم يدفع بآخر، وتنتفض الذاكرة، مثل قطعة لحم معروق مغلي بالكمون. (ممرث؟). وقد تركت نفسي لشمس الظهيرة ولتجليات الفضاءات الواسعة، فأحس برأسي يصطخب وبأعصابي تتراخى مثل قطعة الخبز التي كان يغطسها جدي الخائن في قهوة الصباح. وكنت أعود من وقت إلى آخر إلى كيمياء المخوطات المنحولة وإلى ذلك الصفاء الضروري الذي يرغمني على التخلص من هواجسي المركبة من كل الأشياء، نتيجة لسذاجة أهل الدار. فكان أن خضع ظل التوتة إلى قانون الفيزياء الشمسية. وحومت حولها فراشات الأصيل في دوامة جنونية عاصفية. وسيطر الرعب على الطيور، فأجد نفسي في ذلك الامتداد الفضائي الهائل، فأدرك إذاك خطورة الألعاب التي أستبدل فيها هويتنا، أنا ومريم. لم أكن أنوي بذلك الثأر من لعنة العزلة التي حلت بي فحسب، بل أحاول أيضاً أن أبحث عن ذاتي داخل سراديب الدم المتشابكة فيما بينها حتى أبلغ ذروة السلالة الخارقة التي لم تكن لتقوى على الاستغناء عن عملي وحنيني. لقد عرفت جيداً أنني إذا لم أعد بالأمور إلى سكتها على وجه السرعة فلن يأتي من يبحث عنها وسوف تقع إذاك أسرتي كلها في أحابيل الفسق الذي يختلط بينها ويفرغها من جوهرها كله. وأنطلق في الجري وأنا أفكر بأنه علي أن أحزم الأشياء في الوقت المناسب وأتخلى عن الأشباح والهواجس...

... بدت مريم مردومة، ملووعة، تتمزق كالشرائط العتيقة. قالت: «أنا باقية! إرحل أنت... فمن المستحيل أن ترضي أمك بترك هذين الشيخين المحتضرين على حالهما». استرقّ موقفها هذا. وكالمدنف جاءته الكلمات... لقد اعتزم على بوحها بأشياء كثيرة كانت تجهلها... انطلق ولكنه سرعان ما وضع الباقي بين قوسين، دلالة منه على حزمه ورجوعه عن قراره... لن يذهب... سيبقى كعادته حتى آخر الصيف. إنه على علم بأنه سيقوم ما بوسعه فلا تدفن امرأة أبيه في جبانة يهودية. لقد عثر على التنامي، ولم يعد لجملته من معنى. كانت معادلات الذهن القديم تعود بسرعة. لا، ليست الكلمات في العدم ملحوقة. ها هي (مريم) تنش كالقطط الغاضبة. وفهم الآن أن الدنو منها لم يعد سهلاً. ذهب في المراقبة. لكنها ركبت مفاصل إضافية على جسمها. ورأى في الضوء المنبجس من التوتة رفيف أنفها واضحاً ملموساً. أراد أن يحتضنها ولم يتحرك. أخرج رسالة العم اسماعيل من الدرج: «لقد علمت أنك لم تقم بالإجراءات القانونية لتلافي الموقف... وإلا، يا للفضيحة... عائلتنا عريقة... سوف تعفن بوحل العار... أرجوك... الدنيا بخير... طمنونا عنكم... عمك اسماعيل. الامضاء: اسماعيل الجزائري محاسب متقاعد...» أعاد الرسالة الأخيرة في قضية المرأة اليهودية إلى جيبه وهوس العم اسماعيل معها. ونز العرق منبجساً. وصمنا معاً. التحما.

استلم الورقة التي كتب عليها كلمة «أحبك» بماء المتعة  
ووضعها أمام المصباح ذي البلور البوهيمي. برزت الحروف  
وقد أوشكت أن تمحى نهائياً. ماء خائر على ورق رقيق.  
قال: «أين يقع الحد بيني وبينها؟» جاء المساء مضطرباً.  
حط على مقربة منهما. أطفأ المصباح. تلاطم الظلام  
حولهما كاليمّ. وأجهش في البكاء.

وما أن يمطر الصباح حتى أستيقظ، فتبادر إلى ذهني لتوه فكرة بديهية: «لقد انتهت الحرب»، ثم أبحر في سيولة هذا الجو المائع السلس، جو يرمش رمشاً ويرف زفيراً ويومض وميض ألوان مختلفة طغى عليها لون التوتة الياضعة، المتكالبة... لقد انتهت الحرب منذ أكثر من عشرين عاماً. ومن جديد يطوق حوافي رنين الهاتف في مكتب أبي وأزيز الرصاص في ساحة الحرب وطين المنبه المستمر وصلصلة مفاتيح العمة فاطمة وقرع أقدام العم جلول الخشبية، وإذا بأشريحة المواد المشبوهة تظغى على الجو فتجعله خائراً يتكدس طبقات طبقات نثة على صفيحة النوم الذي لم ألبث أن أخرجت منه، وقد أرهقتني الهواجس والإمساخات والكوابيس وازداد ازدحامها على نفسي منذ أن قرأت تلك الرسالة الملعونة حيث أخبرني فيها عمي عن هذه القصة الرهيبة، والخاصة بعدم وجود عقد زواج بين أبي وهذه المرأة اليهودية التي كنت أعتقد أنها إحدى زوجاته الشرعيات ولا أدنى حجة مكتوبة بأنها - اليهودية - قد

اعتنقت الإسلام كما كان في الحسبان. وقد غيرت هذه الرسالة مجرى الأمور، فأصبحت أبحث عن استرجاع اتصال بالأشياء وبالناس، والتخلص من الأوهام المزدحمة في عقلي ازدحاماً يبهمني وميض لمعانه وطفاحة غزارته. الضوء يلتهم كل ما يصادفه في غرفتي التي كانت تحتوي فيما عدا الكثير من الفراغ والإسلاك والشرائط والحبال التي أستعملها أنا بنفسني لتجفيف نسخ الصور السلبية بعد تحميضها، سريراً ومكتباً فقط.

... إنتهت الحرب. منذ أكثر من عشرين سنة وكانت إجدائها توشك أن تلتصق بجدار الدار حتى أنني كنت أكاد أمسها في فصل الصيف وأنا جالس إلى مكثبي خاصة عندما كنت أطيل العمل حتى ساعات متأخرة من الليل، كنت أكاد أمسها أو بالأحرى أكاد أمس أحد أو بعض أغصانها تلك التي كان يضيئها المصباح الكهربائي على المكتب فتلمع أوراقها وكأنها ريش يرتعش بحركة طفيفة وقد أدلهم مؤخر الحديقة وتراكت عليه الظلماء طبقات طبقات تكاد تكون ملموسة، بينما تتضاعف حركة الوريقات الإهليلجية الشكل وكأنها مخضبة بلون أخضر ساطع يتصبب من الضوء الكهربائي المنبثق من حجرتي التي كنت أترك مصراعتي نافذتها مفتوحين فأنتعش لأدنى نسيمه تهب خفيفة آتية من وراء جدران الحديقة وتسري - أو بالأحرى - تمتد رويداً رويداً حتى تستقر داخل التشابك الحالكي الذي تكونه تفرعات الأغصان، يظهر - هذا التشابك - من خلال زجاج



النافذة وكأنه يعتمد على حركة ذاتية مستقلة تنتشر بسرعة أكبر عند هبوب الريح قوية بعد انتصاف الليل، فكان التوتة بكليتها تستيقظ فجأة وتحمحم، ثم - بدون فترة انتقال تدريجية - تعود السكينة وتهدأ الأغصان وتهدأ كذلك الأوراق والوريقات وتسترجع سباتها العميق الهائل وجمودها ما عدا الأغصان الأولية تلك التي تسلط أشعة الأنبوب الكهربائي أضواءها المجهرة عليها فتبرز بدقة في مقدمة الأغصان الأخرى التي لا يصل إليها الضوء فيشحب لونها أولاً ثم تغيب عن النظر شيئاً فشيئاً فلا أعود أراها وإنما أحس وجودها إلى أن تضمحل - نهائياً - رثاها؛ لكنها تبقى في الحقيقة متواجدة متداخلة متطابقة الواحدة فوق الأخرى وسط قشرات وطبقات الظلام المتراكمة التي من خلالها ينبع حفيف خفيف أو زقزقة عصفير خافتة، وكأنها - العصفير - تطلق هكذا من حين إلى آخر صيحة ضعيفة من خلال نعاسها، مرتعشة، مضطربة، متأوهة، نائحة، نواحة...

لكن الرسالة التي بعث بها عمي قد أزعجتني وكذلك الموقف الذي أخذته العشيقة مني، فكأنها لا تكتفي بأمور العشق إلى حد أنها طلبت الطلاق من زوجها رغم وجود طفلة صغيرة أنجبته له، بل وتفاجئتني في قعر دار الإسلاف القديمة، الرثة، وتنتهك سر الزوجة اليهودية وتتوغل داخل الحجرة محتفية بترحيب أمي الصامت وترحابها الايماني، غير مبالية بصوري وبطاقاتي البريدية التي كان الوالد يرسلها

إلى زوجاته الأربع (الخمسة؟) من كل مدينة يزورها أو يقيم فيها بضعة أيام للراحة، أو التجارة أو العشق أو... وكأنها تعتمد استفزازي، تعتمد حتى أفقد وزني وأتبه في خرائط الكلمات «فان ما بين القلم واللوح نكاح معنوي معقول، وأثر حسي مشهود - ومن هناك كان العمل بالحروف عندنا - وكان ما أودع في اللوح من الأثير مثل الماء المتدفق الدافق، الحاصل في رحم الأنثى. وما ظهر من تلك الكتابة (مجموعة الكلمات؟ تجمعها؟)، من المعنوي في تلك الحروف الجرمية (هو) بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم - فأفهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل». «ابن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثاني ص 314» والذاكرة وأبحر في محاولات المنطق الغربية وأنكح مريم فأولج فيها القلم وأخرجه بعد وميض الاستمتاع مبلولاً بمنيتها الأنثوي وأكتب على الورق الحروف الأربعة التالية: أ. ح، ب، ك («ثم عبارة الشارع، في الكتاب العزيز، في إيجاد الأشياء عن جمع الكاف والنون (كن) فأتى القرآن بالحرفين الذين هما بمنزلة المقدمتين. وهذان الحرفان هما الظاهران، والحرف الثالث هو الرابط بين المقدمتين، خفي في: «كن». وهو الواو المحذوف لالتقاء الساكنين. كذلك إذا التقى الرجل والمرأة لم يبقَ للقلم عين ظاهرة...» ابن عربي. الفتوحات المكية. السفر الثاني ص 300 - 301) فتسافر كذلك الصوفي (محي الدين بن عربي الأندلسي المولود سنة 560 هجري بمدينة مورشيا الأندلسية والمتوفي

سنة 736 بدمشق، بعد أن صنف أروع الكتب الصوفية وخاصة كتاب الفتوحات المكية وكتاب التجليات الإلهية، وكتاب فصوص الحكم) وتذهب وتروح وتذهب وتلتهث قائلة: كان ابن عربي عبقرى اللغة لأنه - والتوحيد كذلك - عرف كيف يربط بين بلاغة الحروف وتوابعها والمتعة الشبقية التي تربط الرجل بالمرأة...

وأنا: كان الأمير عبد القادر من مشايخه وأنصاره، فكتب كتاب المواقف اعجاباً به وطلب أن يدفن بجانب ضريحه، فكان ذلك سنة 1883م بدمشق.

وهي: من يعرف هذا؟

وأنا: القليل، لكن البعض يعتبر ابن العربي زنديقاً كافراً.

وهي: والأمير عبد القادر؟ ألم يتبع سيرته وابتهل له؟ وأنا: أتركى هذا (إنطلاقاً من الكلمة: أحبك) ومن حرفها الأخير: «الكاف» يصل بنا المطاف إلى هذا الحد... فبعد ابن خلدون وابن بطوطة، ها نحن نصل إلى ابن عربي والتوحيدي...

وهي: التوحيدي؟

وأنا: واضع كتاب الإمتاع والمؤانسة.

وهي: ما هذا؟ كتاب إياحي، بالطبيعة.

وأنا: لا... آسف كتاب في اللغة والنحو والكلام والحروف والتاريخ والفلسفة.. كتاب مجزأ إلى أربعين ليلة، حرق معظم كتبه استياءً وغضباً على أهل زمانه، وقال

فيه السيوطي: «ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه في حياته وخرجت من قبل حرقها. وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه إلا القليل وتبلغ نحو عشرين ولم ينقل منها الا كتاب المقابسات وكتاب الإمتاع والمؤانسة وكتاب الصداقة والصديق».

وهي: هل من نموذج من الإمتاع والمؤانسة.

وأنا: يقول أبو حيان التوحيدي: «فإن الكلام صلف تياه، لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، خطره كثير، ومتعاطيه مفرور، له أرن كأرن المهر وإبان كإبان الحرون وزهو كزهو الملك، وخفق كخفق البرق، وهو يستهل مرة ويستعسر مراراً، ومادته من العقل، والعقل سريع الحؤول، خفي الخداع، وطريقه على الوهم، والوهم شديد السيلان ومجره على اللسان، واللسان كثير الطغيان، وهو مركب من اللفظ اللغوي والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعي الاستعمال والاصطلاح، ومستملاه من الحجا، ودريه بالتمييز، ونسجه بالرقعة...» (التوحيدي، كتاب الإمتاع والمؤانسة. الليلة الأولى. ص 9..).

... فكأن التوتة بكليتها تستيقظ فجأة وتنتفض وتحمم، ثم - وبدون فترة انتقال تدريجية - تعود السكينة وتهدأ الأغصان والأوراق والوريقات وتسترجع سباتها العميق الهائل وجمودها المهول ما عدا الأغصان الأولية...

هي: لقد قلت ذلك منذ لحظة.

أنا: وكان كل هذه الوشوشة والحفيف والتأوهات  
والتنهدات والخفقانات والاختلاجات تعشش في عتمة التوتة  
الضخمة العتيقة التي تكاد تلتصق بنافذتي، لم تكن مجرد  
خفقان أجنحة العصافير المتناثمة بين أغصانها وأوراقها، أو  
مجرد همهمات نابغة من حناجرها المتكاسلة، بل هي -  
على الأصل - تمثل أنات وأنياناً وعويلاً وظلاماً شيوخ  
العائلة الذين تقدم بهم السن ولم يبرحوا بعد تلك الدار  
الكبيرة الرائية جدرانها، المهشم بلاطها والمعطلة أجهزتها  
(خيوط الكهرباء، أزرار الحنفيات... معادن المزارب،  
مفاصل الأبواب، قنوات المياه، براعم المزلاج، أمعاء  
المذياع، محرك الثلاجة، كلس الجدران، آليات الساعات  
الجدارية الصقلية وقد أصبحت مهمة بعد وفاة قمر التي  
تزوجها أبي منذ خمسين عاماً ولم تبلغ بعد، ولم يأتها  
الطمث كذلك... وترقب أبي أن..)، فبقوا على فراشهم  
مستلقين وأعينهم في الظلام مفتوحة وألستهم عن الثرثرة لا  
تكف، والعقعة والهديان واللغظ والنحنة (هوس العمه  
فاطمة لا يزال يتابعني، يطاردني، يمقطني، وكذلك هوس  
العم جلول، وساقه الخشبية تتدحرج في الفضاء، بعد أن  
اكتشفته مشنوقاً، قد تركته الحياة، بعد أن أفلس نهائياً.)  
وغزارة التوتة...

...1905: تاريخ ميلاد حسان الجزائري. 1925:

زواجه من إمرأته الأولى. 1926: ميلاد ابنه البكر:

عبدالله. 1927: ميلاد ابنته البكر: سعيده (أول سنة)

1926: ميلاد ابنته الثانية و(آخر سنة): يسمينة (ياسمين؟)  
1935: دخوله للسجن بعد صفع العقيد الفرنسي على عين  
الملا: 1939: دخوله للسجن للمرة الثانية بتهمة الدعاية  
المفرضة: 1941: ميلاد ابنه الرشيد من زوجته الأولى،  
وخاصة وأن الثانية لم يأتها بعد الطمث ولم تأتها كذلك  
الخصوبة: 1942 تعامله مع الجيش الألماني وتعيينه كأمين  
مالي للحزب الدستوري التونسي. 1942: استقبال في منزله  
الشيخ عبد الحميد بن باديس على رأس وفد من جمعية  
العلماء. 1943: بعد انهزام الجيوش الألمانية بشمال  
إفريقيا، زجّ به في السجن للمرة الثالثة. 1945: خروجه  
من السجن. 1946: زواجه من امرأة ثانية: قمر، وقد  
كانت من أصل تركي ومن عائلة عنابية عريقة، فلم تتمكن  
من إنجاب الأطفال، ولم يأتها بعد الطمث لصغر سنها  
(14؟ 15 سنة؟). لم يمارس الحب معها عاماً كاملاً.  
ترقب وصبر، بل نام في رائحة جسدها المتنامي، وبات  
يكتب قصيدة غرامية مطولة رديئة (لم تكن المراهقة تبلغ  
الخامسة عشرة ولم يأتها الحيض بعد ولا الخصوبة، رغم  
غضارة جسدها وفخامة صدرها وحنية أفخاذها وتكور  
أوراكها وزوغبة عانتها... ) بقلم الرصاص في كراس خشن  
الورق، لا زلت احتفظ به، وهو يتماوت، طريح الفراش.  
1948: تكاثرت أعماله وأرباحه وكانت تجارته في أوجها.  
1948. تزوج بامرأة ثالثة: شجرة الدر. كانت من عائلة  
بورجوازية وعصرية العادات والتقاليد. رفضت وضع الخمار

على جسدها والقناع على وجهها. كانت تدخن علبتين من السجائر وتشرب الكحول في المناسبات. رضى لها. عبدها. 1950: تعرف على اليهودية هانريات غزلان، خياطة نسائه الثلاث. أنجب منها ابناً وابنة. اعتنقت الإسلام بمحضر شاهدي عيان، ولم يسجل ذلك في أية وثيقة شرعية. طلبت منه الزواج. قال لها إنه كتب العقد والصداق عند أحد القضاة من أصحابه. اطمأنت لذلك. كان يكذب. 1954: اندلعت الحرب التحريرية. اندمج فيها بأمواله وحماسه. 1958: أفلس نهائياً. وكان منذ أن بلغ العشرين: مسافراً، رحالة، يجوب العالم ويرسل من حين إلى آخر بطاقات بريدية لزوجاته الأربع (أو الخمس؟). كان لا يكتب على ظهر البطاقة سوى اسم المكان والتاريخ والإمضاء: حسان: (اسطنبول 12 - 8 - 1924. حسان. - قرطبة. 12 - 6 - 54. حسان. - القاهرة 12 - 10 - 1936. حسان. - طشقنت. 12 - 12 - 1928. حسان. كلومبو. 12 - 1 - 1945. حسان. - براتيسلافا. 12 - 4 - 1937. حسان. - طهران. 12 - 3 - 1926. حسان. - البندقية. 12 - 12 - 1950. حسان. - شيكاغو. 12 - 11 - 1929. حسان. - سان فرانسيسكو. 12 - 1 - 1938. حسان - باريس. 12 - 1 - 1925. حسان) 1962: استقلال الجزائر. 1963: استقر في ضيعته الصغيرة حيث منزل أجداده الكبير. 1965: ماتت امرأته الثانية قمر. 1970: توفيت زوجته الثالثة: شجرة الدر. 1975: مرض مرضاً

مزمناً ولازم الفراش. 1976: رجعت أمي (زوجته الأولى):  
بايا) إلى المنزل العتيق للقيام بشؤونه. 1977: جاءت  
الزوجة اليهودية وقد أصابها سرطان الحلق وطلبت المأوى.  
قبلت أمي أن تقوم بشؤونها وتساعد في ترميضا وعلاجها.  
1978: قررت أن تقضي كل مواسم الصيف في المنزل  
الكبير: حيث التوتة والبطاقات البريدية وحجرتي التي لم  
يتغير فيها شيء منذ أن كنت طفلاً. كونت تدريجياً مخبراً  
صغيراً لتحميم الصور. منذ ذلك العهد تفاقم الوضع  
بالنسبة للهواجس والأهواس. نحنحة العمة فاطمة وقد  
ماتت سنة 1950 تحت حافلة الترامواي الكهربائي وهي  
رائح لشراء الزلابية لقمر وكانت هي الأخرى حاملاً كما  
كانت شهواتها كثيرة. راحت ضحية الزلابية مثلها مثل ابن  
الرومي (رأيته سحراً يقلي زلابية - في رقة القشر والتجويف  
والقصب - يقلي العجين لجينا من أنامله - فيستحيل شبايك  
من الذهب) الذي أدى به ميله للفقراء والثوار وإحساسه  
الطبقي القوي إلى الهلاك (وكذلك تطيره وولوعه بأكل  
الحلوى: خاصة الزلابية) إذ أكثر من عدد أعدائه وأضجر  
أصحاب الساسة والسلطة في ذلك العهد (القرن الثالث  
هجري) فكان قتله على أيدي الوزير الوهبي القاسم بن عبيد  
الله بن وهب الذي أمر بدس السم في زلابية فمات بها ابن  
الرومي سنة 283 هجري...). شهيد التطير والطبقية والولوع  
بالإدمان على أكل الحلوى (الزلابية)... الزلابية وشهوات  
قمر. هي التي تسببت في موت العمة فاطمة... ونحنحتها



تلاحقني منذ طفولتي، وخاصة منذ أن قررت قضاء كل الصيف في الدار حيث أمي تقوم بشؤونها وتمرض العجوزين وقد أكل الذنب رأس الأب وتآكل السرطان حلق الزوجة اليهودية، تلك التي - في الواقع - لم يكتب عليها صداقاً ولا كتاباً، فكذب عليها وخدعها.. وأنا لا أعلم ذلك حتى اليوم الذي وصلتني فيه رسالة العم اسماعيل، أصغر إخوان أبي، كاتباً: «باباك ما تزوجش باليهودية وما كتب عليها الصداق. كان تموت، ما يمكن دفنها إلا في جبانة اليهود... لازمك تحل هذه القضية بسرعة قبل ما تفوت الفرصة وبقا واحنا مسخرة قدام عيون الناس. وأنت عندك الكتاف والأصحاب... شوف كيفاش ادبر راسك وتمنع هذه المسكينة من الفضيحة نهار اتموت... وما يخفيكش أن أولادها ما على بلهمش حتى بلي أمهم من أصل يهودي.. طمني بسرعة.. عمك إسماعيل...».

... طمنونا عنكم: كان الأب يأتي ويغضب ويقمع ويتسلطن. يأتي العم جلول لإنقاذي من الضرب المبرح. اسمع قدمه الخشبي على حجر بلاط الزقاق الفاصل بين مخزنه ومخزن أبي (تجفيف الفواكه وتصديرها إلى جميع العالم هوسه كذلك مازال يطاردني.. اكتشفته مشنوقاً. أزرق الوجه، نيلي الأطراف. انتحر.. ساقه الخشبية تندرج يمنة ويسرة ببطء وهدوء سكية.. حيث كان يسافر ويطوف ويتجول.. طمنونا عنكم. ألصقت أشتات رسالة العم اسماعيل بصعوبة، بعد أن مزقتها ضجراً. طمئيني

أنت رغم انفصامك (شطر من هنا وشطر من هناك) حمت  
كذلك على العالم بأسره متبعاً آثار أبي ورحلاته.. أحاول  
أن أحرق ذلك الصمت الذي رصصه أفراد العائلة كلهم  
حول هذا التعطش العائلي والمرث والمرس والنقع  
والإنقاع.. جاءت مريم - ماريانا.. باغتتني في قعر الهموم  
وقعر داري وضيق غرفتي المشطبة بالحبال التي أستعملها  
لتجفيف الأفلام السلبية (معمل تجفيف الفواكه.. كنت  
أعمل فيه أثناء العطلة الصيفية.. أوقدت نار الفتنة والضغينة  
في قلوب العمال.. قاموا بإضراب ضد الأب دام عدة  
أشهر.. لم يتزعزع حسان الجزائري، فشل الإضراب. فهم  
أنني حرضت العاملين، لكنه تظاهر بالجهل). حيث المدن  
والشوارع والمساجد والآثار ومحطات القطار والجسور  
والأنهار والصحاري الرملية والثلجية، كلها معكوسة، مقلوبة  
على الورق الشفاف الرمادي، المبلول بمختلف الحوامض،  
المتقاطر.. تجيء مريم كالثائمة. طمئيني حتى أطمئن العم  
إسماعيل.. بدأنا. بدأت. قلت: أريد أن أوقف هذا  
الهجس والوجس. غسلت رأسي بالماء البارد. أكثر من مرة  
عابتك (كان أبي يعاتب أخي عبدالله ويمنعه من الصعود  
إلى قاعة الغناء أثناء السهرات الرمضانية.. عيني باترف..  
عيني باترف.. بلاش تبوسني في عيني... في عيني..  
المغنية اليهودية تعطيني الرسالة الغرامية تلو الأخرى..  
أوصلها إلى أخي.. أرى الدمع في عينيه تترقرق.. تتوقف  
عند البؤبؤة.. عيني باترف يا حبة عيني.. تخرج الرسالة

المكتوبة مسبقاً من صدريتها وقد اكتظت بثديها الممثلةتين .  
كانت الرسائل تعبق بروائح العطر الطيب والمسك والعنبر  
والكافور . . تلتوي أمعائي تشبهاً . يجف ريقى . تحترق  
أناملي عند لمس الرسائل البنفسجية، المعطرة). فأتملص  
منها أزرق ملحوساً . تنقر الموسيقى رأسي (أستاذ الموسيقى  
في الثانوية. كان رهيف الشعور، جميل الهندام، رائع  
العينين، أنيق اللباس، رقيق الأصابع، يتمخط في مناديل  
من حرير خام. يحمل حول عنقه علاقة من صوف  
الكشمير، ثلجية البياض. يجلس إلى البيانو لا نعرف إلا  
الأغاني وموسيقى المواخير والأعراس. يستمر في عزفه:  
يتجاهل الصخب. يطفو على سطح العالم (العالم الآخر)  
وعندما ينتهي. زوافيرية! زوافيرية، قاعة سينما سوار. .!  
فريد الأطرش. هذا ما لكم: بساط الريح. . أما أراك  
عصي الدمع. جهلة. .! لا تعرفون من أم كلثوم إلا  
طقطوقاتها. . . باخ. هذا شيء يتحداكم. زوافيرية قاعة  
سينما سوار! نقهقه أكثر فأكثر. يتضاعف الصخب  
والضوضاء. يعود إلى البيانو. يعزف. . . يعزف تواسيح  
أصيلة. لا نبالي بها كذلك. .) والصور (بكل نوعيتها)  
تتالي كالعصافير المعشثة في التوتة وكأنها جن جنونها  
(وإذا جن ليلي أنتم قمري أتت قمر. انتحر العم جلول.  
ومات كذلك استاذ الموسيقى. . بالسل والتخلف الفني  
الذي كان يسيطر على تلاميذه. . لا تهمهم الموسيقى  
الأندلسية ولا التوريات الغريبة) عند الغسق. نهرتني بعينها:

يكفيك وسواساً وهلواساً. لم تقل مريم بعدها شيئاً. استلقيت على ظهري. زحفت التوتة نحوي وأغصانها تحرق الفضاء والمكتب وشرائط الحبال والبطاقات البريدية المتكدسة والمصباح الكهربائي من بلور بوهيميا وقد جاء به من تشيكوسلوفاكيا حسان الجزائري، أبي أنا المتماوت، المتحاضر، المتلاشي.. استلقيت على ظهري: صرت رجلاً ولم تكبر. أنا: لماذا أكبر.. الطفولة هي منبع كل شيء.. لولاها لما كتبت كلمة وما حمّضت صورة. لا أريد أن أقطع صلة الرحم بطفولتي. لا. أبداً أدارت جسدها بزعل متصنع. هكذا، رأيت وادبها الجميل ينبع من النقرة ويصب في المفرق، ثم من جديد اخترقتني التوتة كالمادة النصف جامدة والنصف سائلة.. نوع من النسيج الأخضر المتراص الحبكة والمخمل، وكأنها (التوتة) نوع من الخابور يجري هادئاً مليئاً والأسماك الكبيرة (الطيور) والوحد (المادة الخضراء الخام) اللزج: المزيت، المخبوص، المليوص، القاطن في عمق الماء وعمقات السماء. كانت تحكي. كنت ساكتاً سكتاً سكتاً تماماً. ارتمت فوقي. شعرت أنها تريد أن تلهمني. تصنّجت. تعادلت فوقي. تدلت أطرافها كالأمراس على جسمي. سحبت عضوي المبلول. تركت جسدها يتهشى من جديد، أخذت الورقة التي لا تحمل آثار الحروف وهي في حالة امتحاء وذوبان واهتراء: (ألف. حاء. باء. كاف) تلك الحروف (أعلم - وفقنا الله وإياكم. إن الحروف أمة من

الأمم. مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم ولها أسماء... وعالم الحروف أفصح العالم لساناً وأوضحه بياناً، وهم على أقسام العالم المعروف في العرف). (ابن عربي. الفتوحات المكية. السفر الأول. ص. 260) التي تلتطف من تعاطينا النكاح وهي كالألف واللام عند ابن عربي الذي سمى هذين الحرفين بحرفي العشق: «أعلم أنه لما اصطحب الألف واللام، صحب كل واحد منها، وهو الهوى والغرض. والميل لا يكون إلا عن حركة عشقية، فحركة اللام حركة ذاتية، وحركة الألف حركة عرضية. فظهر سلطان اللام على الألف لإحداث الحركة فيه. فكانت اللام. في هذا الباب أقوى من الألف لأنها أعشق، فهمتها أقل تعلقاً باللام، فلم تستطع أن تقيم أودها... وذلك أن الألف ليس ميله من جهة فعلى اللام فيه بهمته، إنما ميله إلى اللام بالألطف لتمكن عشق اللام فيه...» (ابن عربي. السفر الأول. نفس المصدر)... كان جلدي يتقصص، ينزل الرعش من قحفي سالكاً صليبي، هابطاً نحو ربلتي. بدوت أجوف فارغاً. وبدت كذلك هي الأخرى وقد أذهلها كلام ابن عربي وتصوره للعلاقة الموجودة بين الحروف (العلاقة الجنسية المحضنة) وهي (مريم) تصطفل لتحاسب نفسها بالنسبة لأصلها المتشقق، المفصوم، المنشطر (ولعله، كذلك: متكامل، متوائم وملتي؟) ثم مسكت بيدها على عناني ومنه جرتني إلى البستان، تحت التوتة وكل الناس في المنزل نيام (متناومون؟). انتشرت رائحة الليل ممزوجة

برائحة التوتة. صارت سيدة الموقف، شلحت ثوبها الشفاف. انفرط جسمها اللحيم، توزع في كل الأرجاء. استلقت عارية تحت الشجرة التي ملأت مخي وتسربت إليه من خلال مسام البشرة، وأنا أراقب الغيوم السوداء الداكنة تحوم فوق رأسي كالزنابير وتحتها تحوم غيوم أخرى أكثر قرباً من البدن، أكاد ألمسها بأناملي. رأيت الطيور تتحرك وكأن أجنحتها مقلوبة، مشظمة، متبدلة، تتفارر مرعوبة، مفجوعة من جراء وجودنا تحت الشجرة الضخمة. كانت مريم مستلقية. كان فخذها منفرجتين. أدركها أول المزن. . أول اللبخة، أو البلل اللزق. وبدت الأرض موصولة بالجو بخيوط خضراء (أغصان التوتة) مفتولة ومبرومة. كانت هي تتخللها ابتهاالاتها المنكودة. قررت أن أولجها. قمت متشاهلاً. استقبلتني فتحتها الحمراء. رأت من روائي تحديق الطيور المتلصص. ابتلعت مريم قضيبتي. خبأته، أدفأته، أحرقته. كان فرجها يظهر من خلال العتمة منبعجاً. قالت: أنيكك. أخربشك. أكتب فيك أشواقي وشقائتي. . لتخلص من هذه التوتة التي غزت احشاءك وسبختها حشيشاً وعضاراً. . نكني كما ينك القلم الورق (فكان بين القلم واللوح نكاح معنوي معقول، وأثر حسي مشهود. - ومن هنا كان العمل بالحروف - وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق، الحاصل في رحم الأنثى. وما ظهر في تلك الكتابة من المعاني في تلك الحروف الجرمية». (ابن عربي. السفر الثاني. ص 314) ألعنني، كما توأج

الكاف والنون «وهذان الحرفان: «كن» هما الظاهران،  
والحرف الثالث هو الواو المحذوف لالتقاء الساكنين.  
كذلك إذا التقى الرجل بالمرأة لم يبقَ للقلم عين ظاهرة.  
وكذلك عند الالتقاء يسكنان عن الحركة. ويمكن إخفاء  
القلم كما خفي الحرف الثالث (الواو) (ابن عربي. السفر  
الثاني. ص 300، 301)، فعلت ذلك بعنف، لوت ساقها  
حول خصري «ألا ترى حرف اللام وقد لوى ساقه بقائمة  
الألف وانعطف عليه، حذار من الفوت؟ فمیل الألف إليه،  
نزول». (ابن عربي. السفر الأول. ص 325) وشدت على  
عنقي بقوة وعنف، بل بعنجهية. : نحوم في مدار السفينة  
الخضراوية (التوتة) المتطاولة، وينحدر الليل علينا أكثر  
فأكثر، وتهفت الأوراق، وتسكن الطيور. ثم تذوب. رائحة  
غريبة تقضي على رائحة الليل والتوتة. تملأ المكان حيث  
كنا نتجانس وتبادل كل الأثقاب (ولم تصلح الأصابع؟)  
تشبه إلى حد ما رائحة الحور المقشور والجبن المكسور  
واللبن المروب. شممت. فعلت هي كذلك. صرت وأنا  
تحت التوتة، كأنني بدأت أتغير. شيء من مريم (مبهم،  
مجرد، مفارق) يتسرب تحت أظفري. كان عبير الرائحة  
يزحف، يأتي من بعيد، من بلاد استوائية، كثيرة الحرارة:

«مدأشقر»

12 - 7 - 1953

«حسان»

وهي صاعدة من فرجها تلتهب هيكلية التناسلي وحتى  
أخمص القدمين. أسمع صوتي يتوقف، يتركني، يخدعني.  
أي: كأني أصبحت قادراً على الاستماع للسكوت والصمت  
الخارجين من حلقي ذاته، وذلك، برهة، قبل أن تتوقف  
الكلمات من الامتداد بمطاطية عجيبة في الفضاء. وكأني  
وأنا لا أزال استرسل في الكلام وأتلفظ بالكلمات تلو  
الأخرى، كانت مريم - ماريّا تعي وعياً كاملاً مطلقاً بعدم  
صلاحية أو - لعل - بوقاحة، صفاقة، سفاهة، فحش،  
قذيمة (هذه الكلمة احترقت خلاياها العصبية، خلاياها هي)  
أو بدناءة (أي ما كنت تحمله نزاهتها وعفويتها من دناءة  
وسفالة) كلماتها وحروفها (رغم ابن عربي والتوحيدى)،  
مفكرة: لنسكت على الأقل.. لنسكت. لنسكت (أو  
بالأحرى): أسكت. أسكت ثم أيضاً:

رفع رأسه وشعر أنها تنظر إليه وهو لا زال مغروساً في  
أعمق أحشائها الدبقة: مالك؟ ما بك؟ انسلت منها.  
ركضت نحو المنزل الغارق في الظلام. تبعني. صعدنا إلى  
الحجرة. أخذت سيجارة من علبتها وبحثت طويلاً عن  
عرف كبريت أو ولاعة فانتبهت إلى قداحة برتقالية حاملة  
اسم شركة من الشركات الصناعية (إشهار؟) واكتشفتها  
بالقرب من المصباح العتيق، وسط الدويرات الخمرية  
المنحوتة على خشب المكتب العتيق (هو كذلك)، ثم  
أشعلت الولاة وقربتها من رأس السيجارة وبدا صوتها  
وكانه يخرج من نفثات الدخان الملتفة، ويتوقف كلما



شفطت نفحة من التبغ وكلما (وهي تتكلم) هتت حرفاً من الحروف التي تتكون منها الكلمة. بدأ المطر يتساقط مهطلاً، مرهقاً، مضناً، رمادياً، ضارباً أوراق التوتة فيزيد تميعها سيلاناً، وكأن أغصانها تحاول الإيواء داخل الغرفة. لكن سرعان ما نهضت مريم وأغلقت النافذة بعنف وضجر وكأنها لم تعد تكبح كراهيتها لهذه الشجرة التي حدثتها عنها مطولاً، قبل أن تأتي إلى الضيعة الصغيرة، فتدخل المنزل العتيق وتكتشف أسراري... المطر يقرع الأوراق قرعاً (قرع أقدام العمة فاطمة المتعرجة وقرع العم جلول الخشبي على بلاط الزقاق...) وكأنه - كذلك يتسرب وريداً نحو ذلك الهيكل العظمي المستلقي على الفراش، ذلك الجسم المتهرئ، الممزق، المتلاشي، وقد قبع فيه السرطان، ولم يبق فيه إلا تلك العينان الضخمتان وفمها الادر، ورأسها كراس دودة القز، أي تلك الحشرة المسكينة التي أطلقت عليها كل العائلة لقب اليهودية، أي هانريات غزلان. فيحيط بها الماء المطري شيئاً فشيئاً ويكثر حجمه، فيحمل... الطوفان فيها ما أراد ويجرفها مثل ما يجرف قشة من التين أو رقاقة من الخشب فيهرول بها في أرجاء العالم الفسيح وتتلاطمها المياه (كل المياه): البحار والوديان، الأنهار، البحيرات، والمستنقعات، فتغسلها وتطهرها من تلك اللوعة التي حملها أبي إياها، فشوه سمعتها وأوحلها في ماء المرث والمرس والنقع والإنقاع... (ومرة أخرى): المرث.



## كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).

ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).

الإنكار، 1984، (رواية).

الرّعن، 1984، (رواية).

يوميات فلسطينية، (يوميات).

طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).

الإرثاء، 1983، (رواية).

الحلزون العنيد، 1984، (رواية).

ضربة جزاء، 1985، (رواية).

التفكك، (رواية).

لقاح، 1983، (شعر).

يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).

معركة الزقاق، 1986، (رواية).

فوضى الأشياء، 1990، (رواية).

حقد الـ FIS، (مراسلات).

تيميمون، 1994، (رواية).

رسائل من الجزائر (بيان).

الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).

واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).

الانبهار، (رواية).

■ صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة

الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (ANEP) عام 2003.



الطباعة :  
المطبعة الحديثة للفنون المطبعية  
17, نهج فروخي مصطفى - الجزائر



# رشيد بوجدره

رواية تقع أحداثها في بيت قديم، أين يحتضر أب الراوي الذي كان طوال حياته رجلا استثنائيا. يتقن بشكل خارق عدة لغات، رحالة لا يتعب، رجل أعمال فذ، سياسيا شجاعا وزوجا لخمس نساء، من بينهن امرأة يهودية تشكل المحور الذي تدور حوله الرواية. تحتضر الزوجة اليهودية هي الأخرى في هذا البيت العتيق وتقوم والدة الراوي بمعالجتها كما تعالج الأب. وأمام المرض المميت للأب وزوجته يحاول الراوي إعادة تأسيس شخصية هذا الأب الذي ظلت دوما مبهما، وهذا بواسطة عدد كبير من البطاقات البريدية التي أرسلها له من كل أنحاء العالم والتي كانت تشكل الرابط العاطفي الوحيد الذي كان يجمعهما. بهذا يكتشف الأب أن والده لم يتزوج أبدا المرأة اليهودية، وخلال بحثه عن السبب يطلع على الجوانب المشينة التي تعرفها عائلته والتي ظلت في طي الكتمان. إنها ما يشبه عملية هضم لكل العناصر بدءا بالمعدن إلى النبات مرورا - وهذا هو الأهم - بالإنسان بالغ التعقيد، بالغ الشذوذ وبالغ التأثير. هذه الرواية المدهشة بالنظر إلى كثافة الشخصيات، قوة وعنف الحالات وغنى الأسلوب تملك مكانة متفردة في المشهد الروائي العربي. رواية المرث تجعل رشيد بوجدره واحدا من أهم وجوه الأدب العالمي المعاصر.

©Editions ANEP

N° ISBN 9961-756-13-4

N° Dépôt légal: 829-2002